

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر - باتنة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية وآدابها

الاغتراب عند الإمام علي من خلال نهج البلاغة

أطروحة دكتوراه العلوم في الأدب العربي القديم

إشراف:

أ.د. عبد القادر

إعداد الطالب:

محمد مشعاله

دامخي

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
د. عبد الحميد بن صخرية	أ. محاضر	جامعة باتنة	رئيسا
أ.د. عبد القادر دامخي	أ. التعليم العالي	جامعة باتنة	مقررا
د. علي عالية	أ.محاضر	جامعة باتنة	عضوا
د. قديد ذياب	أ.محاضر	جامعة قسنطينة	عضوا
د. العلمي لراوي	أ.محاضر	جامعة أم البواقي	عضوا
د. علي بولنوار	أ.محاضر	جامعة المسيلة	عضوا

السنة الجامعية: 2009 - 2010م

" تلك الدار الآخرة نجعلها للذين
لا يريدون علواً في الأرض و لا فساداً
و العاقبة للمتقين "

مقدمة

حدث بي الأقدار دون سبق إصرار أن اطلعت على بعض نصوص نهج البلاغة فوجدت فيها أصداء حزينة تشف عنها عبارات و كلمات رصينة، فاستزدت قراءة في النهج فثبت في فؤادي ما كان عناني من قبل ، و ازددت مساحة الحزن اتساعا و إغرابا أكثر من ذي قبل و كانت مساحة الحزن تزداد اتساعا و إغرابا كلما ازددت قراءة، و إمعانا في أعمال الفكر، و كانت الظاهرة تتلون بأنواع البلوى و الشجو فأردت الوقوف على مسبباتها، فاستجمعت قواي العقلية وأعملت الفكر فيما كان يستوقفني في تلك النصوص، فإذا صاحبها يبدو كمن يحاول أن يزيل عسرا، أو يصرف نكرا أو يبعد خسرا، فلحقه الأذى و اعتصره، فصمد له و ما غير، و دافعه و ما أدبر، فهو منه في عناء و الناس منه في لهو و غنى، فكان التساؤل عن سر و جيف هذا الحزن و الأسى في هذا الكتاب مبعث إسراري و إصراري على الوقوف على مكانه في مجموعه و عن أسبابه المنثورة في ملفوفه، فانبريت - بعد الاستعانة بالله - في دراستي هذا الكتاب -نهج البلاغة - بعد أن تيقنت أن نصوصه قد صدرت عن نفس ملتاعة بالحسرة والأسف متجلية بالقهر والاعتراب الذي جلله به مجتمعه عدوه منه و من كان ناصره، فعزمت أن أدرس هذه الظاهرة عند صاحبها من خلال مؤلفه، و بعد مراجعات كثيرة لموضوعاته استقر الرأي عندي أن تكون الدراسة تحت عنوان - الاعتراب عند الإمام علي من خلال نهج البلاغة و الذي حملني على هذا المحمل، هو وجود كثير من عناصر الاعتراب في فصول الكتاب؛ من خطب و رسائل و وصايا، ثم ما راعني من أن أحدا من الذين كتبوا عنه لم يسيروا إلى هذه الظاهرة فيما اطلعت عليه من كتابات، فأردت أن أنير هذا الجانب من الكتاب؛ الذي هو بعض من صورة مؤلفه، إثراء للكتاب و كشفا عن جانب من جوانب شخصية صاحبه، و أرجو أن أوفق في ما ذهبت إليه في هذه الدراسة بحول الله و عون.

و قد قسمت هذا البحث إلى أربعة فصول، حيث تتناول **الفصل الأول** الإمام علي ونهج البلاغة، ففي **المبحث الأول** تناولت حياة وسيرة الإمام علي منذ نشأته إلى حين وفاته؛ مستعرضا أهم مزاياه في حياته الشخصية و في علاقاته مع الناس قبل و بعد

توليه الخلافة، و إن كنت قد ركزت الحديث عن فترة خلافته أكثر لما لها من أثر في ظهور ظاهرة الاغتراب عنده، عندما وقف لوحده - كما أرى - مع الحق و بالحق إلى أن انتقل إلى ربه، حيث ثارت القلاقل في الدولة الإسلامية بمجرد توليه الخلافة فخرج عليه بعض من بايعوه و نكثوا ببيعته و ألبوا الناس عليه، فكانت حرب الجمل و عصاه أهل الشام و لم يبايعوه متعللين بالمطالبة بدم الخليفة الشهيد عثمان رضي الله عنه، و ما استتبع ذلك من نزاع أدى إلى وقوع حرب صفين و ما تخللها من محن و أهوال، و ما انتهت إليه من تحكيم مزيف، أزاله عن الخلافة، فانقسم جيشه و أنصاره إلى قسمين، قسم يناوئه و يعاديه، و قسم معه يؤازره فترة ثم يزور عنه ازورارا لا رجعة فيه، و ما استتبع ذلك من طمع أهل الشام في أخذ البلاد منه و الحكم عنوة، و قد هاله تقاعس أصحابه عن نصرته حتى سقطت كثير من البلاد في أيدي منائيه، كل هذه الأحداث أثرت فيه و كان نتاجها خطبا و رسائل مفعمة بالاغتراب الذي نحن بصدد دراسته.

و أما **المبحث الثاني** فتناولت فيه نسبة كتاب نهج البلاغة إلى الإمام علي، إذ شكك بعض الناس في نسبته إليه، و أوعزه بعضهم إلى جامعة الشريف الرضى، وقد نبه البحث على فساد هذا الرأي و بين أن نهج البلاغة هو كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، و جامع الشريف الرضى لا الشريف المرتضى كما ذهب بعض الدارسين في القديم و الحديث، كما أشار البحث إلى من يعتقد بأن كل ما وجد في نسخة الشرف الرضى هو من كلامه رضي الله عنه، و نبه إلى أن في نهج البلاغة نصوص لا يمكن أن يكون الإمام علي من قالها، و إنما حملت عليه، كما حمل كثير من الحديث المكذوب على رسول الله صلى الله عليه و سلم. و خلص بنا البحث في هذا المبحث إلى أن كتاب نهج البلاغة ليس خالصا من الإضافة، و لكن بالمقابل ليس موضوعا كله، و بينا أن الأحداث التي مر بها الإمام علي رضي الله عنه كانت تستتطق الحجر فكيف بالإنسان؛ و كان الإمام علي صاحب الفصاحة و البلاغة فكان النهج وليد الأحداث المدلهمة من جهة و وليد قوة البيان وصفاء القريحة من جهة أخرى. و قد اخترت من بين

شروح نهج البلاغة الكثيرة نسخة حقها و وثقها صبري إبراهيم السيد و قدم لها شيخ المحققين عبد السلام هارون، و كان اختياري لهذه النسخة لوسيطها.

أما **الفصل الثاني** فتناولت فيه مفهوم الاغتراب عند الغربيين و عند العرب ففي **المبحث الأول** تناولت مفهومه عند الغربيين باعتبار أنهم أول من أشار إليه حيث وضعوا له المصطلح المعروف، و قد نبهت إلى أن حالة أو ظاهرة الاغتراب ظاهرة قديمة قدم البشرية و مظاهرها كانت تتجلى عند كل الشعوب أفرادا و جماعات، و لكن المصطلح ظهر مع الحضارة الغربية و أول من بسط فيه القول هو الفيلسوف الألماني **هيجل**، و إن سبق إلى الإشارة إليه من قبل **جان جاك روسو** و غيره - و ذلك في كتابه **ظاهريات الروح**، و قسمه إلى الاغتراب بمعنى الانفصال أو الانقسام، و عدم التعرف على الذات، أو التناظر بين الذات و البيئة الاجتماعية، و هو معنى سلبي، و الاغتراب بمعنى التخرج أو التوضع **Enteausseung** و هو اغتراب ضروري و إيجابي و يمكن تسميته التخلي أو التسليم، أما على مستوى الفرد فإن هيجل قد ميز بين أنواع و أشكال عديدة للاغتراب منها الاغتراب عن المجتمع أو البنية الاجتماعية، و الاغتراب عن الذات، و الاغتراب عن الوجود، و الاغتراب عن المجتمع قد يحدث عندما تقع صراعات داخل المجتمع فيرتد الفرد إلى ذاته و يكف عن التطابق مع البنية الاجتماعية و يسعى أن تتطابق ذاته مع شخصيته و سماته هو .

أما الاغتراب عن الذات من خلال طبيعة الإنسان الجوهرية، فهو نتيجة طبيعية عندما ينسلخ الفرد عن البنية الاجتماعية، و لما كان الفرد في الأصل متطابقا مع البنية الاجتماعية الكلية، فإن اغترابه عنها هو اغتراب عن ذاته لأن التطابق مع المجتمع هو الذي يكفل له التوازن فإذا اغترب عن المجتمع اغترب في الحقيقة عن ذاته الجوهرية. و أما الاغتراب عن الوجود المستقل فينشأ عند الفرد عندما يفقد استقلاليته و يلجأ إلى الاعتماد على الآخرين من أجل الحصول على الوسائل التي من خلالها يؤكد استقلاله و تنمية فرديته، و لكن عندما يحصل على ذلك يفقد استقلاله و وجوده المستقل، إذ أصبح موجودا لا بذاته و لكن بغيره.

ثم تناول البحث الاغتراب الديني عند فيورباخ، من خلال كتابه (جوهر المسيحية) إذ انتقد الدين، و اعتبره نتاجا إنسانيا محضاً، إذ رأى أن الإنسان لما تملكه الخوف في مواجهة مظاهر الطبيعة التي تحقق به من كل جانب لجأ إلى خلق قوة وهمية تفوق الطبيعة و تتجاوزها و أضفى عليها كل صفات الكمال، و من هنا نشأت الألوهية، باعتبارها ماهية الإنسان المغتربة، أي أن الإنسان سلب نفسه كل صفات الكمال و جعلها لهذا الوهم الذي يسميه بالإله، و عليه فيجب التخلص من الدين، و إرجاع صفات الإنسان لذاته و عقله الذي بإمكانه القضاء على كل مظاهر الطبيعة الخطرة، و بذلك يتم قهر الاغتراب، باسترجاع كل ما أخذ منه حتى يغدو الإنسان على طبيعته.

ثم تناولت الاغتراب عند ماركس و الذي تأثر بشكل أو بآخر بفورباخ و اعتبر الدين أفيون الشعوب، و إن كان تناوله للاغتراب قام أساساً على نقد هيجل حين اعترض من حيث المبدأ أن الإنسان عقل فقط أو وعي فحسب، في حين يرى هو - ماركس- أن الإنسان هو من يقف على قدميه بثبات على الأرض و يستوعب و يعزز قوى الطبيعة، زيادة على أنه يحيا حياة اجتماعية، أي أنه موجود في صحبة الآخرين، و بما أنه كذلك- في صحبة الآخر- فهو يتعامل معهم، و في تعامله معهم يتجلى اغترابه، و بخاصة عندما يكون عاملاً بسيطاً أو غير مالك لوسائل الإنتاج التي تكون لسلطة أقوى منه فعندها يظهر و يتجلى اغترابه في العمل حيث يعمل حسب إرادة المنتج لا حسب إرادته، و ينتج بمقاييس السوق لا بمقاييسه، و من هنا تبدو في حياته أربعة أنواع من الاغتراب هي؛ اغتراب الناتج، و اغتراب العمل، و الاغتراب عن الآخرين، و الاغتراب عن الذات و قد حاول ماركس بفكره الشمولي القضاء على هذه الأنواع من الاغتراب، بقلب النظام الاجتماعي و الاقتصادي حتى يتم قهر كل أنواع هذا الاغتراب أما إذا لم يحدث ذلك فسيظل الإنسان مغترباً إلى الأبد.

ثم تناول البحث الاغتراب عند الوجوديين بدءاً بالفيلسوف الدانمركي كير كيغارد، أبو الوجودية الأول الذي يرى في الجمهور أو الحشد خطراً يهدد الفردية في

عصره، و الفردية عنده هي التي تجعل من الإنسان إنسانا حرا واعيا بحريته يتصرف كما يشاء تماشيا مع ميولاته الفردية و خصائصه الذاتية، و ميولاته الفنية و العلمية و الأدبية، فإذا خضع للحشد و الجمهور، و وقع تحت طائلته انمحت ذاته، و أصبح جزءا من القطيع و بذلك يفقد حريته و إذا فقد حريته فقد وقع في الاغتراب، و لذلك كان نضاله ضد الجماهير و دكتاتورية المجموع كنضاله ضد الملكية و الديكتاتوريات العسكرية، و قد وصف الجمهور و الحشد بصفات ذميمة جدا مثل البق ، و الرائحة العفنة و الحشرات الطفيلية.

و قد هذا الفيلسوف الألماني **هيدجر** حذو كير كيچارد في عدائه للجمهور و الحشد باعتباره -الحشد- وجودا زائفا لأنه ينزل بالإنسان إلى منزلة مبتذلة؛ حياة يومية متشابهة، فالإنسان الذي يضيع في الجمهور يفقد حريته و استقلاله، و يصبح رأسا في القطيع، يعيش مثل الآخرين و يعمل ما يعمل الناس و يفكر في ما فيه يفكرون و هذا تزييف كبير لذات الفرد؛ فالفرد المغترب هو من كانت هذه صفاته، أما الإنسان غير المغترب عند هيدجر فهو صاحب الوجود الأصيل، حيث يشعر الفرد بأنه ذات قائمة بنفسها و مسؤولة عن ذاتها، و أنها لا بد لها من أن تأخذ على عاتقها تبعات وجودها من خلال القرارات و الاختيارات التي تقوم بها و تنتمي إليها و التي يمارسها الفرد بحرية تامة و بوعي كامل، لأن الوجود حرية و الحرية مسؤولية؛ و المسؤولية اختبار بوعي و ثبات على حرية الاختبار.

ثم تناول البحث مفهوم الاغتراب عند سارتر أبو الوجودية الملحدة، حيث ميز بين نوعين من الاغتراب عنده، فالاغتراب الأول يتمثل في نظرة الآخر لي باعتباري موضوعا -كما يعبر سارتر- و هذه النظرة تشعرني بموضوعيتي كما يراها الآخر، و هذا غلط لأن الإنسان ليس شيئا أو موضوعا. و إنما هو حرية دائمة، و الحرية الدائمة مسؤولية دائمة و مواقف متجددة، و النظر إلي كموضوع ينفي عني هذه الحقائق و بالتالي أشعر بالاغتراب إزاء نظرة الآخر لي كما يعبر سارتر دائما.

و أما النوع الثاني من الاغتراب عند سارتر فهو لا يكاد يختلف عن الاغتراب عند ماركس إذ يرى سارتر أن تحقيق ذات الفرد يتم عن طريق العمل الحر و به تصبح الذات متموضعة في الخارج -الإنتاج- و لكن إذ حدث و أن تدخل عامل خارجي في توجيه العمل حسب قوانين السوق و أذواق الناس، فعندها يكون تموضع الذات غريبا - الناتج- مما يجعل العامل و عمله مغتربا عنه، لأنه ليس من صميمه و من هنا ينتج الاغتراب عن الذات لأنها تزيفت، و لم تنتج ما تريد و حسب ما تريد، و إنما أنتجت ما أريد لها و بالشكل المعين لها.

ثم تناول البحث مفهوم الاغتراب عند إريك فروم - و هو محلل نفسي- و قد ركز في أبحاثه التي تناولت هذا الموضوع على عدة علاقات كعلاقة الإنسان بذاته - الذات الأصلية، و الذات المزيفة- و علاقته بالآخرين، و بالعمل الإنساني و ناتجه، انعكاسا لرأي الآخرين أفرادا أو جماهير، على حساب الذات الأصلية التي يحس بها إحساسا متميزا لأنها ذاته الحقيقية في تفاعلها مع الحياة حيث تكونت بلا إكراه خارجي فهي أصلية لأنها ذاتية بحتة لا يمكن تكرارها. كما قد يتوهم بعض الناس أنهم بأتون ما يأتون من تلقاء أنفسهم دون أن يشعروا أن ذلك غير صحيح لأنهم يخضعون في الحقيقة إلى السلطات المجهولة مثل الحس المشترك و الرأي العام و ما تواضع عليه الناس، كما اعتبر خضوع الشخص في علاقاته مع الآخرين إلى الاغتراب، كالعمل الاضطراري أو العمل من أجل الهروب من الفراغ، أو الخضوع للصنميات الحديثة مثل الدولة، و الحزب، و الجمعيات المدنية، و السوق الاستهلاكية، و عبادة الشخصيات السياسية، و الاجتماعية و الفنية أو الرياضية.

و قد تناولنا في المبحث الثاني: تعريف الغربة و الاغتراب عند العرب و مفهومهما من خلال بعض المعاجم، ثم تناولنا مظاهر الاغتراب عند الجاهليين بدءا بامرئ القيس معتبرين الوقوف على الأطلال مظهرا من مظاهر الاغتراب عند القوم، ثم توقفنا إلى الاغتراب الناتج عن التمييز العنصري و الذي يمثلته عنتره بن شداد أحسن تمثيل، ثم توقف بنا البحث إلى فئة الصعاليك الذين تجلت عندهم ظاهرة الاغتراب

بوضوح؛ نتيجة علاقتهم المتوترة مع مجتمعاتهم، إذ كان بعضهم في غير توافق مع قبائلهم فخلعوا و أصبحوا يعيشون حياة مغتربة عن حياة مجتمعاتهم القبلية، و فئة ثانية فرض عليها الاغتراب لسواد بشرتهم فرفضوا واقع العبودية المسلط عليهم ففارقوا قبائلهم لأنهم أبناء إماء أمثال الشنفرى، و السليك بن السلكة و تأبط شرا، و عاشوا حياة ملؤها الاغتراب، نتيجة إحساسهم بالظلم الاجتماعي المتمثل في الاحتقار و التعالي عليهم، إضافة إلى حياة التشرد التي انتقلوا إليها فأوغلوا في الاغتراب بسبب جرائمهم وجرائمهم بعد أن طردوا من قبائلهم، فجمعوا بين الاغتراب العنصري ، و الاغتراب الذاتي المفروض عليهم نتيجة الحياة البرية التي عوضتهم عن دفئ الحياة الاجتماعية، كما وقفنا عند فئة أخرى من الصعاليك؛ و هي فئة الصعاليك الفقراء، الذين يمثلهم عروة بن الورد أحسن تمثيل، و كان اغتراب و تصعلك هؤلاء الشعراء بسبب ما كان قد لحق بهم بسبب الطبقة الاجتماعية التي جعلت المال و المال وحده مقياس المواطنة فساءهم ذلك، فخرجوا عن مجتمعاتهم و عاشوا حياة التشرد و العصيان، فكانت غاراتهم على القوافل و القبائل مسلكا تجلى منه اغترابهم و تنافرهم مع مجتمعاتهم.

ثم تناولنا مفهوم الاغتراب في الإسلام و كيفية تجلياته ومن من الناس يمكن أن يطلق عليه لفظ المغترب، و ثنينا ذلك بالحديث عن التصوف باعتباره مظهرا من مظاهر الاغتراب عند القوم ملمحين إلى أهم تجلياته عندهم.

أما الفصل الثالث فقد تناول فيه البحث الاغتراب عند الإمام علي و قد قسمنا هذا الفصل إلى مبحثين ،**ففي المبحث الأول** تناولنا تجليات الاغتراب عند الأمام علي في الجوانب السياسية، و الاجتماعية، و الجوانب الدينية الصميمة كالوعظ و الإرشاد، ففي الجانب السياسي تطرقنا فيه إلى ما نال الإمام علي من عنت و ظلم سياسي من أصحاب الجمل، و أهل الشام، و من أنصاره الذين خذلوه في آخر حياته مع ظهور الخوارج و اشتداد كلب أهل الشام،

و أما الجانب الاجتماعي فقد تناولنا فيه ما كان يعرض للإمام علي من مشكلات اجتماعية، مثل طمع الناس في بيت مال المسلمين، و مطالبة بعض أنصاره بعدم

التسوية في العطاء، و تمييز بعض الناس على باقي الأمة، و غيرها من الموضوعات التي كان لها أبعد الأثر في اغترابه عن مجتمعه.

و أما الجانب الثالث و الموسوم بالوعظ و الإرشاد فقد تناولنا فيه حرص الإمام علي على توجيه الناس الوجهة الصحيحة في السلوك الديني و الدنيوي نتيجة ما كان يراه من انحراف عن الدين الصحيح و لكن دعواته كانت كمن ينفخ في الرماد، فساءه الأمر و ازداد عنهم بعدا و اغترابا.

و في **المبحث الثاني** تناول البحث أهم أبعاد الاغتراب عند الإمام علي حيث طبقنا مقياس **ملفين سيمان M.Seeman**.

و اتضح لنا أن الإمام علي كان واقعا تحت ضغط سلب الحرية و العجز الذي عاناه من أعدائه و أنصاره، كما اتضح أنه كان واقعا تحت تأثير التناقض القيمي بينه و بين مجتمعه؛ إذ كان يعطي للأشياء و الأحداث قيمها كما يؤمن بها فكرا و سلوكا، و لكن غيره ممن ينتمي إلى المرجعية الفكرية نفسها لم يكن كذلك مما عمق هوة الاغتراب و التنافر بينه و بينهم، و نشأ عن ذلك شعوره باللامعيارية؛ إذ أصبح ما يؤمن به ليس له كبير معنى عند المجتمع، فحاول جهده إعادة المجتمع إلى جادة المعايير المشتركة، و لكن عصيان أنصاره و طغيان أعدائه جعل تلك المعايير تتلاشى في الواقع و أمام ناظريه فأعقبه ذلك كثيرا من المرارة و الحزن.

و لكن على الرغم من كل ذلك إلا أنه - و إن أحس بكل أبعاد الاغتراب - فقد قاومها في المجتمع و في نفسه و لئن فشل في الأول فإنه قد نجح في المجال الثاني و قهر اغترابه، بصمود قلما يوجد عند من ابتلي بمثل ما ابتلي به.

و تناول البحث في **الفصل الرابع** الدراسة الفنية لوحداث الاغتراب حيث تناولنا في **المبحث الأول** استراتيجيات الإقناع في نصوص نهج البلاغة و لما كان نهج البلاغة مقسما بين الخطب و الرسائل و الوصايا و الحكم، و لما رأينا أن الغالب على نصوص

الاغتراب هو ما يتصل بعنصر الخطابة فقد أفردناها بدراسة خاصة، كما وقفنا عند إستراتيجيات الخطاب في نصوص الاغتراب عند الإمام علي من حيث الإقناع و الاحتجاج، ومن حيث الإطار، و التتابع و الأفعال في الماضي والمضارع والأمر ، كما كانت لنا وقفة مع النهي ودلالته ثم وقفنا عند الألفة بين التجربة النفسية و الإبداع الفني في نصوص الاغتراب معتمدين طريقة التعبير بالسلب و الإيجاب و النفي و الإثبات في أبعاد تجربة الاغتراب عند الإمام علي، و كيف انقادت له اللغة و مفاتيحها فكانت اللغة اغترابا و كان الاغتراب لغة.

وفي **المبحث الثاني** تناولنا التصوير الفني في وحدات الاغتراب، و كيف كان دوره في إبراز أبعاد هذه التجربة عند صاحبها؛ الإمام علي، و قد تنوع التصوير في هذه الوحدات بين التصوير الوصفي و المجازي، أو الوصفي فقط، أو غلبة التصوير المجازي مع تخلل الوصف له، و كان الهدف من كل ذلك هو إبراز أهم تجليات وأبعاد الاغتراب في نصوص نهج البلاغة بصفة عامة.

و فيما يتصل بالمنهج المتبع في هذا البحث، فقد توسل صاحبه ما يمكن تسميته **بالمنهج التكاملي**؛ حيث اعتمد **المنهج التاريخي** حيث لا يغني غيره، كما استعان بالبحث **بالمنهج الاجتماعي** حين دعت الضرورة إلى ذلك، كما اعتمد على الوصف و التحليل أخذا من الأسلوبية بطرف، و من البنيوية بطرف، كما كان للاستقراء و الاستنباط حضورهما في البحث كلما كان الأمر ضروريا.

أما بالنسبة لأهم **المصادر و المراجع** التي كانت لي عوناً في كتابة هذه الرسالة، فيمكن تقسيمها إلى فئتين، فالفئة الأولى منها ما كان مختصاً بمصطلح الاغتراب، و الفئة الثانية هي ما كانت مختصة بنهج البلاغة و تاريخ الإمام علي رضي الله عنه، فعن **الفئة الأولى** نجد كتاب (الاغتراب) لريتشارد شاخنت أهم مرجع استقيت منه معلوماتي، و الكتاب غني في مادته، و محيط بمفهوم الاغتراب و مختلف تجلياته، و من أهميته قيل فيه، من لم يدرس شاخنت لا يحق له الحديث عن الاغتراب. و أما المرجع الثاني من هذه الفئة التي استفاد منها البحث فهو كتاب (الاغتراب عند إيريك فروم) لحسن

محمد حسن حماد، حيث جلى هذا الكتاب كثيرا من غوامض ما استغلق علي من موضوعات، يؤازره في ذلك كتاب (الاغتراب و الإبداع الفني) لمحمد عباس يوسف.

أما **الفئة الثانية** المختصة بنهج البلاغة و تاريخ صاحبها، فهي كثيرة، و قد اعتمدت من بين الشروح المختلفة للنهج ما حققه و وثقه صبري إبراهيم السيد تحت عنوان شرح نهج البلاغة للإمام علي، و قد قدم لهذا الكتاب الأستاذ الكبير عبد السلام هارون و يرجع اعتمادي على هذا الكتاب لوسطيته و اعتماده على التوثيق و التدقيق، و إبعاد ما فيه شك في نسبته إلى الإمام علي رضي الله عنه، و أما فيما يخص كتب التاريخ و الحديث التي أفدت منها فأذكر منها على الخصوص، البداية و النهاية لابن كثير، و الإمامة و السياسة لابن قتيبة و تاريخ الطبري، و تاريخ المسعودي - مروج الذهب، كما أفدت من كتاب خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، للإمام النسائي، و ذلك في ذكر مناقبه و فضائله، و حتى لا نهضم و نهدر جهود كل من اعتمدنا عليهم في كتابة هذا البحث و لو بكلمة واحدة فإننا نقدم لهم جزيل الشكر و نحي من كان منهم حيا و نترحم على من توفاه الله.

و في الأخير لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور **عبد القادر دامخي** على ما قدمه من جهد و توجيه و نصح حتى يتم هذا العمل و يخرج إلى الوجود فله التحية أولا و أخيرا.

وأخيرا إن أصبت فبتوفيق من الله، و إن خبت فذاك أنا.

الفصل الأول

الإمام علي ونهج البلاغة

المبحث الأول: مولد الإمام علي وسيرته

المبحث الثاني: الإمام علي ونهج البلاغة

المبحث الأول: مولد الإمام علي وسيرته

1. نسبه: هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، ولد رضي الله عنه في السنة الثانية والثلاثين من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو من أبوين هاشميين، ومن أشرف بطون قريش وأكرمها، وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ هما من أبوين شقيقين⁽¹⁾.

وقد تربى في بيت ابن عمه محمد بن عبد الله رسول الله وسبب ذلك أن فاقة أصابت أهل مكة فكادت أن تهلكهم، وكان أبو طالب كثير العيال، فقير الحال، فأراد العباس -أخوه- وكان موسرا أن يخفف عنه فعرض على محمد بن عبد الله (رسول الله) أن يساعده وذلك بأن يأخذ كل واحد منهما ولدا من أولاده فيضمه إليه ، فكان نصيب علي رضي الله عنه أن يكون في ولاية رسول الله صلى الله عليه وسلم⁽²⁾. فلما بعث عليه السلام كان علي دون البلوغ، وكان عمره إذاك عشرة سنين على أرجح الأقوال ، فدعاه رسول الله إلى الدين الجديد فأسلم، فكان أول الناس إسلاما بعد أم المؤمنين خديجة بنت خويلد.

وقد قيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث يوم الاثنين وصلى علي يوم الثلاثاء، وقد ثبت أنه لم يتدنس أبدا بعبادة الأوثان وأرجاس الجاهلية كلها⁽³⁾. ولما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، فداه علي بنفسه، ونام على فراشه، ليظن المحاصرون أن رسول الله عليه الصلاة والسلام لم يزل نائما فلا يتبعونه، ثم لحق به بعد ذلك بقليل.

وقد شهد مع رسول الله المشاهد كلها ابتداء من بدر وأحد، إلا غزوة تبوك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه على أهله، وقد أبلى رضي الله عنه في كل الغزوات بلاء حسنا، فكان ممن ثبت يوم أحد عند انهزام المسلمين، وقد أعطاه عليه الصلاة والسلام اللواء في مواطن كثيرة بيده الشريفة، وآخاه رسول الله صلى الله عليه

(1) ينظر: ابن كثير - البداية والنهاية - دار الكتب العلمية - بيروت، ط1-2005 - ج7 - ص: 215.

(2) المرجع نفسه - ص: 215.

(3) المرجع نفسه - ص: 215.

وسلم مرتين، مرة قبل الهجرة عندما آخى بين المسلمين وبعد الهجرة بعد أن آخى بين المهاجرين والأنصار. وقال له في كل واحدة منهما "أنت أخي في الدنيا والآخرة" وهو من العشرة المبشرين بالجنة، ومن كتاب الوحي، وزوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنته فاطمة رضي الله عنها، فأنجبت له الحسن والحسين، وهما سيدا شباب أهل الجنة، كما أنجبت له زينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى⁽¹⁾.

وكان يكنى بأبي الحسن، وكناه رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي تراب، وذلك أنه أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بيت فاطمة فلم يجد عليا في البيت فقال: أين ابن عمك؟ فقالت كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج فلم يقل عندي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلمت لإنسان أنظر أين هو؟ فجاء فقال: يا رسول الله هو في المسجد راقداً، فجاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مضطجع، قد سقط رداؤه عن شقه فأصابه تراب، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسحه ويقول: قم أبا تراب قم أبا تراب⁽²⁾ وكان رضي الله عنه يسعد بهذه الكنية ويفرح إذا دعي بها.

2. زوجاته:

تزوج علي رضي الله عنه بفاطمة سيدة نساء العالمين إلا مريم بنت عمران، وقد منعه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتزوج بأخرى ما دامت عنده معللاً ذلك بقوله: "يربني ما يربها ويؤذني ما يؤذيها، وقد التزم رضي الله عنه بذلك، ولم يضرها بزوجة حتى ماتت رحمها الله، بعد وفاة أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بستة أشهر"⁽³⁾.

وتزوج بعدها بنساء كثيرات منهن خولة بنت جعفر الحنفية، وليلي بنت مسعود بن خالد، وأم البنين بنت حزام بن خالد، أم ولد، أسماء بنت عميس الخثعمية، والصهباء وهي أم حبيب بنت ربيعة، وأميمة بنت أبي العاص بن الربيع، وأم سعيد بنت عروة بن

⁽¹⁾ ينظر: ابن سعد-الطبقات الكبرى- طبع مصورا عن كتاب طبع في مدينة ليدن 1322هـ- منشورات مؤسسة النصر- طهران- ج1- ص: 11-14.

⁽²⁾ ينظر: ابن عبد البر- الاستيعاب في معرفة الأصحاب- مطبوع على هامش الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني- دار صادر- ط1- 1328- ج3- ص: 54-55.

⁽³⁾ البداية والنهاية- مرجع سابق- ج7- ص: 217- وأنظر علي محمد الصلابي- أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب- دار الفجر- القاهرة- ط1- 2004- ج1- ص: 101.

مسعود، ومحيية بنت امرئ القيسي بن عدي وقد أنجب منهم أبناء وبنات كثيرين من أشهرهم محمد بن الحنفية، أو محمد الأكبر، ومنهم العباس، وجعفر، وعبد الله وعثمان، وعبيد الله، وأبو بكر، ومحمد الأصغر، ويحي وعمر ورقية، ومحمد الأوسط، وأم الحسن، ورملة الكبرى، وأم كلثوم الصغرى، وأم هاني وميمونة، وزينب الصغرى، ورملة الصغرى، وفاطمة وأمامة، وخديجة، وأم الكرام، وأم سلمة، وأم جعفر، وجمانة ونفيسة والذي أعقب من نسله، الحسن والحسين رضي الله عنهما، ومحمد الأكبر والعباس، وعمر⁽¹⁾.

3. صفته:

كان رضي الله عنه فوق الربعة أميل إلى القصر أسمر اللون، عريض اللحية أبيضها لا يخضبها، كثير شعر الصدر، أصلع الرأس إلا بقايا شعيرات، وكان ضخم عضلة الذراع، ضخم عضلة الساق، ضخم البطن، عظيم العينين، حسن الوجه، كثير التبسم، إذا مشى إلى الحرب هروول وهو ثابت الجنان، ما صارع أحدا إلا صرعه، فكان منصورا، دوما في مبارزاته وهو الذي قتل عمرو بن ود العامري يوم الخندق والذي يعرف بفارس الجزيرة العربية⁽²⁾ و إذا أمسك بذراع إنسان أمسك نفسه فلا يستطيع أن يتنفس.

4. لباسه:

كانت تمر بالإمام علي أزمان لا يجد من النقود ما يشتري به ثوبا له يستر عورته، ويؤدي فيه صلاته، فيدفعه ذلك إلى بيع سيفه الذي يقاتل به بدراهم قليلة ليشتري بها إزارا له رضي الله عنه. وروي أنه روي في رحبة الكوفة يعرض سيفه للبيع وهو يقول: من يشتري مني سيفي هذا؟ والله لقد جلوت به غير مرة عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو أن عندي ثمن إزار ما بعته⁽³⁾.

(1) ينظر: البداية والنهاية-ابن كثير-مرجع سابق-ج7-ص:366.

(2) المرجع نفسه-ج7-ص:216.

(3) ينظر: ابن الجوزي-صفة الصفوة-دار المعرفة-بيروت-ج1-ص:318.

وكان لا يملك في بعض الأحيان بخاصة في فصل الشتاء من الثياب ما يدفع به
البرد عن نفسه فيرى يرتجف من قلة كسائه وشدة البرد⁽¹⁾.

5. طعامه:

وكان طعامه رضي الله عنه خشنا، حريصا على ألا يدخل بطنه إلا طيبا ولا
شبهة فيه، وكان بعض الناس يعترضون على طعامه والناس يجدون أفضل منه فيقول
له أحدهم: يا أمير المؤمنين أتصنع هذا بالعراق وطعام العراق أكثر من ذلك؟ فيجيبه
قائلا: أما والله ما أفعل ذلك بخلا، ولكن ابتاع قدر ما يكفيني، وأكره أن أدخل بطني إلا
طيبا⁽²⁾.

لقد كان رضي الله عنه زاهدا في ملبسه كما كان زاهدا في مأكله، فقد قدم إليه
مرة طعام طيب فكف يده عنه ولم يأكله وقال: إنك طيب الريح حسن اللون، طيب
الطعم، ولكن أكره أن أعود نفسي ما لم تعتده⁽³⁾.

وروي أيضا أنه اشترى تمرا بدرهم وحمله في ملحفته، فقال له رجل: يا أمير
المؤمنين ألا نحمل عنك؟ فقال: أبو العيال أحق بحمله⁽⁴⁾.

وعن مجاهد رحمه الله قال: قال علي: جعت مرة وأنا بالمدينة جوعا شديدا
فخرجت أطلب العمل في عوالي المدينة، فإذا أنا بامرأة قد جمعت ترابا تريد بله،
فأتيتها، فقاطعتها كل ذنوب على تمر، فعددت ستة عشرة ذنوبا حتى مجلت يداي، ثم
جئت الماء، فأصبت منه، ثم أتيتها فعدت لي ست عشرة تمر، فأتيت النبي صلى الله
عليه وسلم فأخبرته فأكل معي منها⁽⁵⁾.

وكان رضي الله عنه متواضعا شديدا التواضع في غير ضعف، فكان يمشي في
الأسواق وحده وهو خليفة المسلمين يرشد الضال ويعين الضعيف، ويمر بالبائع والبقال
ويفتح عليه بالقرآن ويقرأ (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض

(1) ينظر: أبو نعيم الأصبهاني-حلية الأولياء - دار الكتاب العربي-بيروت-لبنان-ط3-1980 -ج1- ص:83.

(2) ينظر: حلية الأولياء - ص:81.

(3) المرجع نفسه -ص:81.

(4) ينظر: البداية والنهاية-ج8-ص:6.

(5) ينظر: صفة الصفوة-ج1-ص:320.

ولا فساد والعاقبة للمتقين⁽¹⁾ ويقول هذه الآية نزلت في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس⁽²⁾.

ومن ذلك ما حدث به ابن جرموز المرادي عن أبيه قال: رأيت علي بن أبي طالب رضي الله عنه يخرج إلى السوق يحمل درة ويأمر بتقوى الله وحسن البيع، ويقول: أوفوا الكيل والميزان، ولا تتفخروا اللحم⁽³⁾.

كما روى ابن كثير أن رجلا من أهل البصرة يكنى بأبي مطر دخل الكوفة ورأى الإمام علي يحمل درة مرتديا رداءا قصيرا ومتررا بإزار حتى أتى السوق وابن أبي معيط يسوق الإبل فقال علي: بيعوا ولا تحلفوا فإن اليمين تنفق السلعة وتمحق البركة، ثم أتى أصحاب التمر فإذا خادمة تبكي، فقال: ما يبكيك؟ فقالت: باعني هذا الرجل تمرا بدرهم، فردده مولاي، فأبى أن يقبله، فقال له علي: خذ تمرًا واعطها درهمها، فإنها ليس لها أمر، فرفض طلبه فقلت له: أتدري من هذا؟ فقال: لا، فقلت: هذا علي بن أبي طالب أمير المؤمنين، فأخذ التمر من الجارية وأعطاه درهمها ثم قال الرجل: أحب أن ترضى عني يا أمير المؤمنين، قال: ما أرضاني عنك إذا وفيت الناس حقوقهم، ثم مر مجتازا بأصحاب التمر، فقال: يا أصحاب التمر، أطعموا المساكين، يرب كسبكم، ثم مر مجتازا ومعه جمع من المسلمين حتى انتهى إلى أصحاب السمك، فقال: لا يباع في سوقنا طافي⁽⁴⁾.

ويروي ابن كثير أن عليا رضي الله عنه خرج فأتى رجلا من أصحاب الكرابيس فقال له: عندك قميص سنبلائي فقال: فأخرج إليه قميصا فلبسه، فإذا هو إلى نصف ساقه فنظر عن يمينه وعن شماله فقال: ما أرى إلا قدرا حسنا، بكم هذا؟ قال بأربعة دراهم يا أمير المؤمنين، قال فحلها من إزاره فدفعها إليه ثم انصرف⁽⁵⁾.

وقد يظن الظان أن الإمام علي قد صار إلى هذا الزهد والتواضع بعد أن تولى الخلافة فقط ليتأسى به الناس، وهذا من أغلط الظن: فقد كان رضي الله عنه منذ أن أسلم وهو

(1) القصص الآية 83.

(2) ينظر: البداية والنهاية - ج 7 - ص: 6.

(3) ينظر: الإمام أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة - دار ابن الجوزي - السعودية - ط 2 - 1999 - ج 2 - ص: 688.

(4) ينظر: البداية والنهاية - مرجع سابق - ج 8 - ص: 4.

(5) المرجع نفسه - ج 8 - ص: 4.

يتخلق بالخلق الإسلامي الأعلى حريصا على مكارم الأخلاق والمروءة والأدب والحلم والزهد القويم.

فقد أقطع عمر رضي الله عنه ينبع⁽¹⁾ علي ابن أبي طالب ثم اشترى أرضا إلى جانب قطعته فحفر فيها عينا فبينما هم يعملون فيها إذا انفجرت عليهم مثل عنق الجزور من الماء فأتى علي فبشر بذلك، فقال: بشروا الوارث ثم تصدق بها على الفقراء والمساكين وابن السبيل، وفي سبيل الله القريب والبعيد ليوم تبيض فيه وجوه وتسود وجوه.

وقد ذكر الحسن البصري رحمه الله وقد سئل عن علي رضي الله عنه، فقال: كان علي رضي الله عنه سهما صائبا من مرامي الله على عدوه، رباني هذه الأمة، وذا فضلها وذا سابقتها، وذا قرابتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يكن بالنومة عن أمر الله، ولا بالملومة في دين الله عز وجل، ولا بالسروقة لمال الله، أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض نضرة مونقة ذلك علي بن أبي طالب⁽²⁾.

6. حرصه على المال العام:

كان علي رضي الله عنه حريصا على أموال المسلمين حرصا شديدا لا يصرفها إلا في حقها، ويقتز على نفسه وأهله مع حقهم فيها، فقد روي أن قنبرا مولاه قال يا أمير المؤمنين إنك رجل لا تليق شيئا (أي لا تأخذ شيئا تنفقه على نفسك وعلى عيالك) وإن لأهل بيتك في هذا المال نصيبا، وقد خبأت لك خبيئة، قال وما هي؟ قال انطلق فانظر ما هي؟ قال: فأدخله بيتا فيه باسنة (آلات الصناعات) مملوءة آنية ذهب وفضة، فلما رآها علي قال: ثكلتك أمك! لقد أردت أن تدخل بيتي نارا عظيمة، ثم جعل يزنها ويعطي كل عريف حصته، ثم قال:

هذا جنائي وخياره فيه وكل جان يده إلى فيه

ولا تغريني وغري غيري، أراد رضي الله عنه بقوله هذا أنه لا يتلطح بشيء من فيئ المسلمين، بل وضعه مواضعه، وهو لا يسرف في إطعام ضيوفه بل يطعمهم

(1) ينبع: موضع بين مكة والمدينة سميت باسمها لكثرة ينابيعها.

(2) ينظر: البداية و النهاية-مرجع سابق- ج8- ص4.

من طعامه الخشن، وربما قتر عليهم لأنه من المال العام، وروى ابن كثير عن عبد الله بن رزين قال: دخلت على علي بن أبي طالب يوم الأضحى فقدم لنا خزيرة⁽¹⁾ فقلنا أصلحك الله لو أطعمتنا هذا البط؟ فإن خير الله كثير،

قال: يا ابن رزين، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان، قصعة يأكلها هو وأهله وقصعة يضعها بين الناس⁽²⁾. كما روي أن أحدا من أصحابه دخل عليه يوم شتاء وعليه قطيفة وهو يرتعد من البرد فقال له: يا أمير المؤمنين إن الله جعل لك ولأهل بيتك نصيبا في هذا المال وأنت ترتعد من البرد؟ فقال والله لا أرزأ من مالكم شيئا، وهذه القطيفة هي التي خرجت بها من بيتي⁽³⁾.

واستعمل رضي الله عنه رجلا اسمه علي بن عمرو بن سلمة واليا على أصبهان، فقدم معه مال وزقاق فيها عسل وسمن، فأرسلت أم كلثوم بنت علي إلى عمرو تطلب منه سمنًا وعسلًا فأرسل إليها ظرف عسل وظرف سمن فلما كان من الغد ذهب علي وأحضر المال والعسل ليقسمه بين الناس، فوجد زقين ناقصين بعد أن عد الزقاق فسأل عنهما، فكتمه وقال سأحضرها، فعزم عليه إلا ذكرها، فأخبره الخبر، فأرسل إلى أم كلثوم فأخذهما منها، فراهما قد نقصا، فأمر التجار بتقويم ما نقص منهما، فكان مقداره ثلاثة دراهم، فأرسل إليها فأخذها منها ثم قسم الجميع بين الناس⁽⁴⁾.

وجاءه مرة خازن بيت المال واسمه ابن التياح، فقال يا أمير المؤمنين امتلأ بيت مال المسلمين من صفراء وبيضاء، فقال: الله أكبر، فقام متوكئا على ابن التياح حتى قام على بيت مال المسلمين فقال:

(1) الخزيرة: لحم يقطع قطعاً صغيرة ويغلى في الماء فإذا نضج ذر عليه الدقيق.

(2) ينظر: البداية والنهاية-مرجع سابق-ج-8-ص:4.

(2) المرجع نفسه-ص:4.

(4) ينظر صفوة الصفوة -ج-2-ص:320.

هذا جنائي وخياره فيه: وكل جان يده إلى فيه وأمره أن ينادي في أهل الكوفة أن يردوا عليه، فأعطى جميع ما في بيت مال المسلمين وهو يقول: يا صفراء ويا بيضاء غيري غيري حتى ما بقي منه دينار ولا درهم، ثم أمر بنضحه وصلى فيه ركعتين⁽¹⁾. وكان رضي الله عنه يكنس بيت المال ويصلي فيه، يتخذة مسجدا رجاء أن يشهد له يوم القيامة.

7. علمه:

كان رضي الله عنه غزير العلم ذا عقل كبير وفهم عميق ودقيق شهد له بذلك كثير من علماء الأمة قديما وحديثا، فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه على جلاله قدره يقول: أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن، وكان ابن عباس يقول: إذا جاء الثبت عن علي لم نعدل به، وكان رضي الله عنه يقول: سلوني، سلوني، وسلوني عن كتاب الله تعالى، فوا الله ما من آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أم بنهار⁽²⁾ ومن فقهه رضي الله عنه وفهمه للقرآن الكريم أن الحمل عند المرأة أقله ستة أشهر، فلو أنجبت المرأة بعد ستة أشهر من زواجها لعد الولد شرعيا أخذا من قوله تعالى (وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا)⁽³⁾ ومن قوله تعالى: (وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ)⁽⁴⁾ فيكون الفرق مدة الحمل وهي ستة أشهر، إذ العامان أربعة وعشرون شهرا، وقضي بهذا لصالح امرأة اتهمها زوجها بالزنا فجاء بها إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يومئذ أمير المؤمنين فقال الرجل: إن هذه قد ولدت بعد ستة أشهر فأراد أن يقيم عليها الحد فقال علي مهلا يا أمير المؤمنين واستشهد بالآيتين الكريمتين، وعندها قال عمر: لولا علي لهلك عمر⁽⁵⁾.

(1) حلية الأولياء - ج1 - ص: 81.

(2) ينظر: الإصابة في تمييز الصحابة - ج2 - ص: 509.

(3) الأحقاف الآية: 15.

(4) لقمان الآية: 14.

(5) ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر - على هامش الإصابة في تمييز الصحابة - ج3 - ص: 39.

وقوة الفهم وسرعة الإدراك من المزايا التي فطر عليها رضي الله عنه واشتهر بها، والأمثلة التي تدل على ذلك كثيرة جدا نذكر منها، بالإضافة إلى ما سبق - ما رواه ابن جرير الطبري حيث قال: نادى رجل من الخوارج عليا رضي الله عنه وهو في صلاة الفجر فقال: (وَلَقَدْ أَوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (1).

فأجابه علي رضي الله عنه وهو في الصلاة (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ) (2) (3).

وقال رضي الله عنه: الزهد كله بين كلمتين من القرآن: قال سبحانه (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ) (4)، ومن لم ييأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ بالزهد.

8. فضائله رضي الله عنه:

للإمام علي رضي الله عنه فضائل كثيرة أهله لأن يتبوا منزلة كبيرة بين المسلمين الأوائل، فقد آخى رسول الله بينه وبين علي ولم يفعل ذلك مع أحد، وزوجه ريحانته فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين إلا مريم بنت عمران.

ولما نزلت الآية الكريمة (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) (5) دعا رسول الله عليا وفاطمة وحسنا وحسينا وقال "اللهم هؤلاء أهل بيتي" (6) وفي غزوة تبوك خلفه رسول الله على أهله فقال علي: أتخلفني مع النساء النساء والصبيان؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي" (7) وقد اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه عندما نزل مطلع سورة التوبة أن يحملها ويلحق الناس في موسم الحج

(1) الزمر الآية: 65.

(2) الروم الآية: 60.

(3) تفسير الطبري، ج-21 ص: 59.

(4) الحديد الآية: 23.

(5) الأحزاب الآية: 33.

(6) النسائي: خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - دار ابن حزم ط1 - سنة 2004 - ص: 12.

(7) المرجع نفسه - ص: 12.

ليبلغهم إياها، ويقرأها على مسامعهم، وكان أبو بكر رضي الله عنه أميراً للحج، وهو الذي اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكتب بنود اتفاقية الحديبية بينه وبين سهيل بن عمرو ممثل المشركين آنذاك وأشهده صلى الله عليه وسلم على الوثيقة⁽¹⁾.

وروى النسائي في خصائص أمير المؤمنين علي أن عبد الله الجدلي دخل على أم المؤمنين أم سلمة فقالت: أيسب رسول الله فيكم؟ فقال: سبحان الله - أو - معاذ الله - قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من سب علياً فقد سبني" [أحمد 323/6]⁽²⁾

وقد أورد النسائي أيضاً في خصائص أمير المؤمنين - علي - قوله صلى الله عليه وسلم يخاطب علياً "أنه لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق"⁽³⁾.

وهذه الأحاديث القليلة التي أوردناها من جم كثير لتبين منزلة الحق التي كان يجب على المسلمين في زمانه أن يعوها وأن يرعوها حق رعايتها، وأن ينظروا إلى صاحبها بما هو أهل له ولو أخذوا بذلك لما كانت تلك الفتن و الحروب والعداوات التي ما تزال تنخر جسم الأمة الإسلامية إلى اليوم والعجيب أن الناس لم يخالفوه فقط بل هناك من سبه وشتمه لمدة طويلة، ومنهم من رماه بالكفر، وسنقف إلى ذلك في حينه.

9. بلاغته وفصاحته:

يعتبر الإمام علي رضي الله عنه عند أغلب العارفين بأسرار اللغة العربية بأنه إمام الفصحاء وسيد البلغاء وإمام الخطباء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قيل في كلامه هو دون كلام الخالق، وفوق كلام المخلوقين، وقد سقط بعض الجبارين لسماع بعض كلامه، ومات بعض الناس تأثراً بوعظه⁽⁴⁾.

و قد أقر كثير من الناس أنهم تعلموا الكتابة والخطابة منه، من ذلك أن عبد الحميد الكاتب الذي عاش في العصر الأموي، قال: حفظت سبعين خطبة من خطب

(1) ينظر: أحمد بن حنبل - فضائل الصحابة - دار ابن الجوزي - السعودية - ط2 - 1999 - ج2 - ص: 591.

(2) خصائص أمير المؤمنين - ص: 59-60.

(3) المرجع نفسه - ص: 59-60.

(4) ينظر: محمد أبو الفضل وآخرون - سجع الحمام في حكم الإمام - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت - ط1 - 2004 - ص25.

الأصلع فغاضت ثم فاضت، وقال ابن نباتة المصري: حفظت من الخطابة كنزا لا يزيده الإنفاق إلا سعة وكثرة، حفظت مائة فصل من مواعظ علي بن أبي طالب⁽¹⁾. وأخبر المسعودي بأن: ما حفظه الناس عنه من خطب في سائر مقاماته أربعمئة خطبة و نيف وثمانون خطبة، جاء بها على البديهة وتداول الناس عنه ذلك قولاً وعملاً⁽²⁾. وكان كلامه رضي الله عنه عليه مسحة من العلم الإلهي، وفيه عبق من كلام النبوة، وقد برع أيما براعة في الإيجاز والإطناب، فسلم في الإيجاز من التقصير، وفي الإطالة من الإسهاب والتكثير، وتقدم الناس في هذا الأمر كما تقدم عليهم في سائر فضائله، وسنقف عند أهم ميزات خطبه ورسائله وحكمه في موطنها من هذا البحث إن شاء الله.

10. خلافته:

لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، بايع الناس أبا بكر الصديق وجعلوه إماماً للمسلمين، بايعه علي بعد فترة دامت ستة أشهر، وللناس أقوال مختلفة في ذلك، فقد روي أنه عندما بايع أبا بكر قال: لم يمنعني من المبايعة إلا خوفي من إغصاب فاطمة الزهراء لأنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني"⁽³⁾.

وهناك من يرى أنه رضي الله عنه كان يرى نفسه أولى الناس بالخلافة فلما صارت إلى أبي بكر لم يرد أن يثير فتنة بين المسلمين⁽⁴⁾. وكذلك كان مع عمر بن الخطاب فقد كان يرى أنه أحق بالخلافة منه إلا أنه بايعه، وكان عوناً له في خلافته كلها، وزوجه ابنته أم كلثوم الكبرى، وكثيراً ما كان

(1) المرجع نفسه - ص: 25.

(2) المرجع نفسه - ص: 25.

(3) رواه البخاري رقم: 4173. نقلاً عن علي محمد محمد الصلابي - أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - مرجع سابق - ج 1 - ص: 101.

(4) ينظر: محمد بن عفيفي الخضري - إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء - تحقيق د. محمد الاسكندراني - دار الكتاب العرب - بيروت 2005 - ص: 151.

عمر يعتمد عليه في الفتوى حتى قال فيه أقوالا كثيرة، منها لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو حسن، ولولا علي لهلك عمر، وقد مرت بنا فيما مضى.

ولما ولي عثمان رضي الله عنه بايعه كذلك حتى كان آخر خلافته، وقام عليه الثوار وشنعوا عليه توليته أقاربه الولايات والمناصب في الدولة دون غيرهم، وكان علي كثير النصح والإرشاد له إلى ما فيه خير الدين والبلاد والعباد، ولكن الأمور كانت معقدة وانفلتت الأمور ولم يفلح الإمام علي في رأب الصدع والتوفيق بين عثمان والثوار فقتل ثالث الخلفاء الراشدين رحمة الله عليه. وقد أقبل الناس عليه يطالبونه بقبوله تولي الخلافة فأبى ودافعهم عن نفسه حتى جاءه كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار وقالوا يا علي إن الناس أرادوك، ولا بد لهذه الأمة من خليفة يقوم بشؤونها وإلا انفلتت الأمور إلى الفوضى والجاهلية فقبل⁽¹⁾ الأمر على مضض، إذ كان يرى ما لا يرون لنفاذ بصيرته ودقة فهمه ووعيه بثقل المهمة، فليس من السهل أن يرأب الصدع بين من حاصر وقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه وبين من سيطالب بدمه من بني أمية، وبين من لا يرى هذا الرأي أو ذاك.

ولما ولي أمر المسلمين رأى أن يعزل ولاية عثمان رضي الله عنه لأنهم كانوا السبب في إثارة القلاقل على الخليفة المقتول لسوء سيرتهم في تدبير شؤون ولاياتهم، وقد أشار عليه ابن عباس باستبقاء معاوية على ولاية الشام حتى يأخذ منه البيعة ومن أهل الشام فأبى علي ذلك وأصر على عزله في من عزل⁽²⁾.

وهكذا بعث عثمان بن حنيف الأنصاري واليا على البصرة بدل عبد الله بن عامر والي عثمان، وولى على الكوفة عمار بن شهاب بدل أبي موسى الأشعري، وعلى اليمن عبيد الله بن عباس بدل يعلى بن منية، وعلى مصر قيس بن سعد بن عبادة بدل عبد الله بن سعد وعلى الشام سهل بن حنيف بدل معاوية بن أبي سفيان، وأمر كل واحد بالتوجه إلى عمله⁽³⁾.

(1) ينظر: البداية والنهاية-مرجع سابق- ج7- ص:218.

(2) ينظر: البداية والنهاية-مرجع سابق- ج7- ص:221.

(3) ينظر: محمد الخضري- إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء-ص:152.

فذهب كل عامل إلى ولايته، فأما عثمان بن حنيف فتوجه إلى البصرة فدخلها ولم يزعه أحد، ولم يعارضه عبد الله بن عامر وأما عمارة بن شهاب فقد لقيه طليحة بن خويلد الأسدي فقال له: ارجع فإن القوم لا يريدون بأمرهم بدلا، فرجع إلى علي، وأما عبيد الله بن عباس فلما قارب اليمن خرج منها يعلى بن منية وأخذ كثيرا من الأموال فذهب إلى مكة، فدخل عبيد الله اليمن دون معارضة من أحد، وأما قيس بن سعد بن عبادة فإنه لما وصل مصر افترق عليه أهلها إلى ثلاث فرق، وفرقة دخلت في الجماعة وفرقة اعتزلت بخربتا وقالوا لن نكون مع علي إلا إن قتل قتلة عثمان، وفرقة قالوا نحن مع علي إلا إن قاد من إخواننا، فكتب قيس إلى علي بذلك⁽¹⁾.

وأما سهيل بن حنيف فانطلق حتى إذا أتى تبوك لقيه رجال من أهل الشام فردوه، فانصرف راجعا إلى المدينة المنورة، فكتب علي رضي الله عنه عدة رسائل إلى معاوية فلم يرد عليها، وبعد مضي ثلاثة أشهر على مقتل عثمان رضي الله عنه، أرسل معاوية رسالة مع رجل من عبس مكتوب فيها من معاوية إلى علي، فعلم علي أن معاوية لن يبايع وقال للرسول: ويحك ما وراءك؟ فقال: جئت من عند قوم كلهم يريد القود من قتلة عثمان، وتركت سبعين ألف شيخ يبكون تحت قميص عثمان.

وكان النعمان بن بشير الأنصاري قد ذهب به إليه مع أصابع نائلة بنت الفرافصة زوجته التي قطع المتمردون أصابعها وقتلوا زوجها- فقال علي: اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان⁽²⁾.

ولما سمع علي هذا الأمر عزم على قتال أهل الشام حتى يدخلوا فيما دخل فيه الناس، وأعلن التعبئة في المدينة وكتب ولاته على مصر وأنصاره بالكوفة والبصرة، وخطب الناس وحثهم على التجهز ولما تم الأمر، خرج من المدينة واستخلف عليها قثم بن العباس، وقد نهاه ابنه الحسن عن القتال وقال له: يا أبت دع عنك هذا فإن فيه سفك دماء المسلمين ووقوع الاختلاف، فأبى رضي الله عنه إلا المضي قدما فيما عزم عليه، فدفع الراية إلى ابنه محمد بن الحنفية، وجعل ابن عباس على اليمينة وعمر بن سلمة على

(1) المرجع نفسه - ص: 152.

(2) ينظر: البداية والنهاية-مرجع سابق- ج7- ص: 221.

الميسرة وجعل على مقدمته أبا ليلي عمرو بن الجراح ابن أخي أبي عبيدة، وبينما هو كذلك إذ جاءه خبر خروج طلحة والزبير عليه وتوجههما مع عائشة أم المؤمنين إلى البصرة مطالبين بدم عثمان⁽¹⁾، ولما بلغه ذلك توجه نحو البصرة ليوقف الفتنة وقد كان من أمر الزبير وطلحة ما نوره ونفصل فيه القول إن شاء الله.

لقد بايع الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله عليا فيمن بايع، وبعد مدة قصيرة طلبا منه أن يقيم القصاص على قتلة عثمان، فاستمهلها حتى يهدأ الناس لأن الثائرين ما زالت لهم شوكة قوية في المدينة، وهم يملكون المدينة في الحقيقة ولا يملكها أهلها، ومن الحكمة تأخير هذا الأمر حتى تأتي بيعة الأقاليم وتقوى شوكة الخلافة عندها يمكن إقامة الحدود على قتلة عثمان.

ولكن طلحة والزبير كان لهما رأي آخر وهو التعجيل بإقامة القصاص فلما أبى الإمام علي ذلك للأسباب السالفة الذكر استأذناه في العمرة فأذن لهما، وقد نهى بعض أصحابه عن الإذن لهما لأن غايتهم ليست العمرة وإنما الخروج عليه، فقال رضي الله عنه : ما كنت أخذا أحدا بذنب لم يرتكبه بعد، ولما وصلا إلى مكة انضم إليهما يعلي بن منية عامل عثمان على اليمن وقد لحق بمكة ومعه ستمائة بعير، وستمائة ألف درهم، كما اجتمع إليهما عامل عثمان رحمه الله على البصرة، عبيد الله بن عامر واجتمع عليهم خلق كثير، وكانت السيدة عائشة أم المؤمنين قد أدت العمرة فلما قفلت راجعة إلى المدينة سمعت بمقتل عثمان فرجعت إلى مكة والتقت بالزبير وطلحة فأعلمها أنهما يطالبان بدم عثمان، فأقرتهما على ذلك وقالت لقد قتل عثمان مظلوما، وخطبت في الناس تحثهم على المطالبة بدم عثمان، وذكرت أن هؤلاء الخارجين قد استحلوا البلد الحرام والشهر الحرام والدم الحرام، ولم يراقبوا جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد سفكوا الدماء وأخذوا الأموال، فاستجاب الناس لها. وبعد مناقشات كثيرة اتفق الجميع على المسير إلى البصرة للتقوي من هناك بالخيال والرجال والبدء من هناك بقتلة

(1) المرجع نفسه - ج7 - ص: 221-222.

عثمان رضي الله عنه، وقد جهزهم يعلي بن منية وعبد الله بن عامر، عاملا عثمان على اليمن والبصرة قبل أن يعزلهما علي، ثم ساروا جميعا يريدون البصرة⁽¹⁾.

ولما ترامت إلى مسامع الإمام علي هذه الأحداث نادى بالنفير العام وحاول استنهاض الناس لقطع الطريق على هؤلاء الخارجين إلى البصرة قبل أن تقع الكارثة، ولكن أهل المدينة تتأقلوا لما سمعوا بالأمر وبخاصة أن أم المؤمنين عائشة من بين من توجه إلى البصرة، ولم يقم مع الإمام علي إلا سبعمائة رجل أو يزيد العدد قليلا على اختلاف الروايات- فقام معهم وجد في السير حتى يقطع عليهم الطريق، ولكنه عندما بلغ (ذي قار) أنه أخبار مفادها أن طلحة والزبير قد وصلا البصرة، فعلم أن الأمر سيكون خطيرا فبعث إلى أهل الكوفة يستنهمهم للالتحاق به وبعد إرساله عدة وفود استطاع استمالتهم وخرج معه اثنا عشر ألفا رجل منهم وسار بهم إلى البصرة، ولكن قبل أن يصلها بدأت الفتنة فوثب جيش طلحة والزبير على من شارك من أهل البصرة في الشغب على عثمان ومن شارك منهم في قتله، فقتلوا ستمائة رجل منهم، فقام لهم ستة آلاف رجل من أهل البصرة لحماية أحد المطلوبين بدم عثمان، وهو حرقوص بن زهير السعدي، كما وثبوا على عامل علي رضي الله عنه عثمان بن حنيف فضربوه وبنفوا شعر رأسه ولحيته، وحواجبه، وأرادوا قتله ثم تركوه، واستولوا على بيت المال ووزعوا ما بها من مال على من والاهم، ولما وصل رضي الله عنه وقد قضى الأمر، بعث القعقاع بن عمرو رسولا إلى أم المؤمنين وطلحة والزبير فبدأ بأمر المؤمنين وسألها ما الذي أقدمك البصرة يا أمة؟ فقالت: الإصلاح بين الناس والقود من قتلة عثمان، ثم سأل طلحة والزبير فكان جوابهما الإصلاح والقود من قتلة الخليفة المظلوم؟ فقال لهم القعقاع: لقد استعجلتم الأمر، وها أنتم قتلتم ستمائة فقام لكم ستة آلاف، إضافة إلى الذين اعتزلوا الطرفين، فقالوا ما الرأي عندك؟ فقال: الرأي عندي أن تدخلوا فيما دخل الناس فيه، تباعوا عليا، وعندما يستقيم له الأمر سيقم الحد على قتلة عثمان وأنا بذلك كفيل فوافقوا على هذا الرأي، ورجع القعقاع إلى أمير المؤمنين فأخبره الخبر فسر سرورا عظيما بذلك لأنه يرى أن حفظ دماء المسلمين هي أولى أولوياته، ولكن خفافيش الظلام

(1) ينظر: البداية والنهاية-مرجع سابق- ج7- ص: 222-223.

وأعداء الإسلام رأوا غير ذلك ففي الليل والناس نيام قامت مجموعة من الفرسان فأغارت على معسكر طلحة والزبير فقتلوا منهم عددا من الرجال، وفي ذات الوقت قامت مجموعة أخرى فهاجمت معسكر الإمام علي ونفذت الجريمة نفسها فقام الطرفان إلى السلاح واستعدوا للقتال وتصافوا وحاول الإمام علي إنشاء القوم عن القتال فما استطاع إلى ذلك سبيلا، لأن كل فريق يتهم الآخر بالغدر والخيانة، فخرج الإمام علي بين الصفوف ونادى الزبير وطلحة فقال لهما: أبرزتما عرس رسول الله صلى الله عليه وسلم وخبئتما عرسكما لتقاتلا بها؟ ! ثم قال للزبير أتذكر يوم كذا عندما رأيتني مقبلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك لي، فسألك رسول الله "أتحبه يا زبير" فقلت: نعم فقال لك: "أما إنك لتقاتلنه وأنت له ظالم" فقال الزبير والله ما ذكرتها إلا الآن، ثم ذهب واعتزل الحرب وتأخر طلحة إلى الصفوف الأخيرة فجاءه سهم مجهول فأصابه في ركبته وهو على جواده فنادى إلى عباد الله إلى عباد الله فأدركه غلامه فحمله إلى بيت من بيوت البصرة، فمات هناك وقيل بل وجد مقتولا في ساحة المعركة ووجهه ملطخ بالدماء والتراب، وأما الزبير فसार من ساعته مفارقا الناس فتبعه رجل من بني تميم من قوم الأحنف بن قيس واسمه عمرو بن جرموز، فوجده نائما فقتله وجاء بسيفه إلى الإمام علي فقال له ابشر بالنار.

ولما خلا جيش أم المؤمنين من القادة الذين يسمع لهم الناس بدأ سفهاء القوم برشق جيش الإمام علي بالسهام وهو ينهاتهم عن ذلك، فقتلوا رجلا من أصحابه، وثانيا وثالثا، وهو في كل مرة ينهاتهم حتى ضجر بعض جنده فقالوا له إن القوم يقتلون أصحابنا وأنت تكفنا عنهم، وعندها وقعت الواقعة الكبرى فتقاتل الناس قتالا شديدا وأم المؤمنين على الجمل والناس يحيطون بها ويأخذون بزمام جملها وكلما قتل رجل قام آخر حتى قتل أمام الجمل المئات من الناس حتى صاح الإمام علي أقتلوا هذا الجمل فإنه شيطان ! فحمل رجال شجعان من جيشه على الجمل فعقروه، وأخذوا الهودج ووضعوه على الأرض بسلام ونجت أم المؤمنين وكان هودجها الملتف بالدروع مثل القنفذ من كثرة السهام التي أصابته، وعندما سقط الجمل انهزم جيش البصرة ، فنادى الإمام علي ألا يتبع منهزم وأن لا يجهز على جريح وأن لا يقتل أسير، وأن لا تنهب أموال الناس،

وأن لا يؤخذ إلا السلاح، الذي عليه ختم السلطان ونادى في المنهزمين أن من دخل بيته فهو آمن ومن ألقى سلاحه فهو آمن، فكف الناس عن كل ما أمرهم به أمير المؤمنين علي حتى قيل إنه كان يمر الرجل على ما يمكن غنمه من المال والمتاع فلا يلتفت إليه ثم أمر محمد بن أبي بكر أن يحدث أخته أم المؤمنين عائشة فسلم عليها وسلمت عليه وحمدت الله على سلامته وذهب بها إلى بيت في البصرة أعد لها خصيصة لترتاح فيه وبعد أيام جهزها الإمام علي وأرسل معها أربعين امرأة في لباس الرجال وشيعها هو وابناه الحسن والحسين وذهبت إلى مكة فأقامت هناك إلى موسم الحج فأدت مناسك الحج ثم رجعت إلى المدينة المنورة⁽¹⁾.

لقد كان الإمام علي رضي الله عنه في هذا الموقف العصيب علما من أعلام الشجاعة والمروءة والحكمة والحلم، والعدل والتخلق بأخلاق الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فلم يقاتل الناس حتى أعذر إليهم ، ولما انهزموا عاملهم برفق كما فعل عليه الصلاة والسلام مع أهل مكة عام الفتح، فمن ألقى سلاحه فهو آمن ومن دخل بيته فهو آمن، ومن انحاز إليه فهو آمن ذلك كان الرجل، ولكن بعض من كان في جيشه من الجهلة قالوا له يا أمير المؤمنين كيف يجوز لنا قتالهم ولا يجوز لنا أخذ أموالهم وسبي ذراريهم، فقال لهم: إنهم ليسوا كفارا وإنما هم إخواننا بغوا علينا، فلما أدبناهم وثابوا إلى رشدهم ليس لنا عليهم من سبيل، فلم يقتنع بعضهم بهذا الكلام وأعادوا سؤالهم كيف تحل لنا دماؤهم ولا تحل لنا أموالهم؟ فقال الإمام رضي الله عنه في ثقة هل تساهمون على أمكم عائشة؟!

فانقطع نفسهم وبهتوا، لأنهم إن قالوا نعم كفروا؟ وهكذا بين الإمام علي أن هؤلاء القوم مؤمنون ولكنهم أخطأوا الطريق، فلا يجوز لأحد أن يعاملهم معاملة الكفار والمنايذين لأهل الإسلام⁽²⁾.

لما أنهى أمر أهل البصرة خطب أهلها فأنبهم على مؤازرة أهل البغي، وحذرهم من مزلق الفتنة وأمرهم بتجديد البيعة هم وأصحاب الجمل ممن كان مع طلحة والزبير

(1) ينظر: البداية والنهاية-مرجع سابق- ج7- ص: 225-237.

(2) ينظر: البداية والنهاية-مرجع سابق- ج7- ص: 236-237.

من غير أهل البصرة فبايعوه، ثم قفل راجعا إلى الكوفة ، وأول ما بدأ به بيت مال المسلمين فوزع ما فيه من مال على فقراء المسلمين وذوي الحاجات منهم، حتى لم يبق فيه درهم ولا دينار، ثم أمر بكنسه ورشه بالماء ثم صلى فيه ركعتين لله، وكأني به يشير إلى أن الدنيا ذاهبة مثل دينارها ودرهمها، ولا يبقى إلا العمل الصالح وعموده الصلاة ثم عزم على المسير إلى معاوية ،في الشام فأشار عليه بعض أصحابه أن يتأني ويبعث رسولا آخر يدعو إلى الدخول في الطاعة كما فعل غيره فبعث إليه جرير بن عبد الله ومعه رسالة يدعو فيه إلى إثارة العافية ويذكره بكثرة أقاويله في قتلة عثمان عثمان رضي الله عنه،ويطلب منه الدخول في الطاعة ،ثم ليحكم إليه قتلة عثمان، فيحمله وإياهم على كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة نبيه صلى الله علي وسلم، فقدم جرير بن عبد الله حتى قدم الشام ونزل بمعاوية وبلغه الرسالة وحاوره، فأبى إلا تسليم قتلة عثمان قبل أي شيء آخر، فإن فعل دخل في ما دخل فيه الناس! فعلم جرير عندها أن معاوية ماض فيما عزم عليه من العصيان فرجع إلى علي وأخبره الخبر ، فأمر علي أصحابه للتجهز استعدادا للسير إلى الشام لحمل معاوية على ما يحب أو على ما يكره، فخرج رضي الله عنه من الكوفة في مائة وعشرين ألف جندي، وخرج معاوية في أهل الشام بجيش يربو على تسعين ألف جندي، فالتقى الفريقان في مكان يسمى صفين بالقرب من الفرات، وكان هناك مكان واحد يستطيع الإنسان أن يستقي منه الماء فاحتله عشرة آلاف جندي من جيش الشام ومنعوا جيش علي من الماء، وكأني بهم أرادوا أن يفعلوا كما فعل المسلمون يوم بدر حين احتلوا أماكن المياه وحرموا بذلك جيش قريش من الشرب حتى أجهدوا فشكى الناس ذلك إلى أمير المؤمنين فراسل معاوية وأمره أن يكف جيشه عن احتلال مكان استقاء الناس الماء، فأبى معاوية ذلك ، فبقى القوم على ذلك الأمر يوما وليلة حتى أجهد كثير من الناس من شدة العطش وكاد الضعاف منهم أن يموتوا، فجاء الناس إلى علي مرة أخرى يخاطبونه في الأمر، فطلب منه مالك بن الحارث الأشر، أحد قادة جيشه أن يأذن له في دفع جيش معاوية عن موقع الماء، فأذن له فقام مع فرقة من جيشه فكنسوا جيش معاوية كنسا واحتلوا موقع الماء، وأرسل إلى الإمام علي يستشير هل يمنع الماء عن أهل الشام كما فعلوا أم لا؟ فأمره أن يسمح لهم

بالاستقاء على أن يجعل رواقاً من جيشه يمر أصحاب معاوية منه فيأخذوا حاجتهم من الماء ثم يعودوا من حيث أتوا، الله در الإمام علي، العالم الرباني، فأهل الشام عنده مسلمون مؤمنون ولكنهم بغوا عليه، وهو لا يمنعهم الماء كما منعوا أصحابه، إنه جاء لغير ما جاؤوا إليه، إنه جاء رجاء أن يهديهم الله فينخرطوا فيما انخرط فيه الناس حتى تصان الأمة مما يكاد لها، فإن أبوا ذلك فإن آخر الدواء الكي، وبعد يومين من التقاء الناس، بعث الأمام علي ثلاثة من أصحابه، وهم بشير بن عمرو الأنصاري، وسعيد بن قيس الهمذاني، وشبث بن ربعي التميمي، وقال لهم: اتتوا هذا الرجل فادعوه إلى الله والطاعة والجماعة، فتوجهوا إليه ولما استقبلهم معاوية تكلم بشير بن عمرو فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة، وإنك راجع إلى الآخرة، وإن الله محاسبك بعملك ومجازيك عليه، وإنني أنشدك الله ألا تفرق جماعة هذه الأمة وألا تسفك دماءها بينها، فقال معاوية هلا أوصيت بذلك صاحبك؟ فقال بشير ليس مثلك، إن صاحبك أحق البرية بهذا الأمر في الفضل والدين والشجاعة والسابقة في الإسلام، والقربة من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال فمادا يقول؟ قال يأمر بنقوى الله، وإن تجيب ابن عمك إلى ما يدعو إليه من الحق فإنه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة أمر، فقال معاوية ونترك دم عثمان؟ لا والله، لا أفعل ذلك أبداً فقام إليه شبث بن ربعي وأغلظ له القول، فغضب معاوية فصرفهم وقال لهم: ليس لكم عندي والله إلا السيف.

ولما صمم معاوية على القتال متعللاً بطلب دم عثمان رحمه الله نشبت الحرب بينهم، وأمر علي أمراء الحرب وقادة ألويته أن تتقدم للحرب، وكذلك فعل معاوية، طيلة شهر ذي الحجة وربما تقاتل الناس في اليوم مرتين وعند دخول شهر المحرم سنة 37هـ جنح الطرفان للهدنة.

ولم ييأس الإمام علي فظل يرسل الرسل من ذوي المكانة العالية فيلتقون بأشراف أهل الشام فيتناقشون في أمر هذه الأمة حذراً من هلاكها إذا وقعت الحرب، واستمروا كذلك حتى انسلخ شهر المحرم من السنة 37 هجرية.

فأرسل علي أربعة من أصحابه مرة أخرى وهم عدي بن حاتم، ويزيد بن قيس الأرحبي وشبث بن ربعي وزياد بن حفصة حتى أتوا معاوية، فتكلم عدي وبعد أن حمد

الله وأثنى عليه قال: إنا أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع به الله كلمتنا، ونحقق دماءنا ونصلح ذات البين، فإن ابن عمك أحسن الأمة سابقة وأحسنها في الإسلام أثرا، وقد اجتمع حوله الناس واجمعوا عليه، ولم يبق أحد غيرك ومن معك، فاحذر يا معاوية لا يصيبك وأصحابك ما أصاب أصحاب الجمل، فقال معاوية: كأنك جئت مهددا ولم تأت مصلحا، هيهات يا عدي والله إني لأبن حرب، وإنك والله من المجلبين على عثمان، وإنك من قتلته، وإني لأرجو أن تكون ممن يقتله الله به، فقال: من مع عدي جنناك فيما يصلحنا وإياك، فدع ما لا ينفع واجبنا إلى ما يعم نفعه، فقال شبت بن ربعي: أيسرك أن تقتل عمار بن ياسر؟ فقال: وما يمنعني من ذلك، لو تمكنت من ابن سمية لقتلته بمولى عثمان، فقال شبت: والله الذي لا إله إلا غيره لا تصل إليه حتى تتدر إلهام عن الكواهل وتضيق الأرض والفضاء عليك، فقال معاوية: لو كان كذلك كانت عليك أضيق وتفرقوا دون نتيجة تذكر⁽¹⁾.

لقد استيقن علي أن أهل الشام لن يؤولوا إلى رشدهم أبدا بعد ما كان من إرسال الرسل إليهم وإفهامهم باستحالة إقامة الحدود على قتلة عثمان في الحال، فأمر بعض جنوده أن يعلوا الأماكن المرتفعة وأن يعلنوا لأهل الشام بأنه عازم على قتالهم غدا وهو الأول من صفرا المصادف ليوم الثلاثاء، ومما أمر به رضي الله عنه أن ينادي به قوله: يا أهل الشام قد استأنيتكم لتراعى الحق وتتيبوا إليه، فلم تنتهوا عن طغيانكم ولم تحيىوا إلى الحق وإني نبذت إليكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين، ثم أوصي أصحابه فقال "لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم، فأنتم بحمد الله على حجة وترككم إياهم حجة أخرى فإذا هزمتهم، فلا تقتلوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثلوا بقتيل، وإذا وصلتكم إلى رجال القوم فلا تهتكوا سترًا، ولا تأخذوا شيئا من أموالهم، ولا تهيجوا النساء بأذى، وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم فإنهن ضعاف القوى والأنفس والعقول"⁽²⁾.

(1) ينظر: البداية والنهاية-مرجع سابق- ج7- ص: 247-249.

(2) نهج البلاغة-تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - بور سعيد-الجزائر د.ط- 1989 ص: 199.

وهكذا بدأ القتال مرة أخرى، فخرجت فرقة من أهل الشام ومثلها من أهل العراق واقتتلوا طوال النهار، وتوالى الأمور طوال الأسبوع، وفي اليوم الثامن من صفر سنة 37هـ خطب الإمام علي في أصحابه قائلاً "الحمد لله الذي لا يبرم ما نقضه ، وما أبرم لا ينقضه الناقضون، ولو شاء الله ما اختلف اثنان من خلقه، واختلفت الأمة في شيء ، ولا جدد المفضول ذا الفضل فضله، وقد ساقطنا وهؤلاء الأقدار، فنحن بمرأى من ربنا ومسمع، فلو شاء عجل الفتنة وكان منه التغيير حتى يكذب الظالم ويعلم الحق أين مصيره، ولكن جعل الدنيا دار الأعمال والآخرة دار القرار ، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، ألا وإنكم لاقوا القوم غداً، فأطيلوا الليلة القيام، وأكثروا من تلاوة القرآن، واسألوا الله، النصر والصبر، وألقوهم بالجد والحزم وكونوا صادقين"(1).

وكان ذلك يوم الأربعاء بعد العصر، فلما أصبح عباً جيشه الميمنة والميسرة والقلب، وجعل ربيعة العراق تواجه ربيعة الشام ومضر العراق تواجه مضر الشام وأزد العراق تواجه أزد الشام وهكذا ، وأمر كل قبيلة أن تكفيه أمر أختها في جيش الشام، وكذلك فعل معاوية، فتقاتل الناس قتالاً شديداً لا يفر أحد من أحد، ولا يغلب أحد أحداً ثم تحاجزوا في المساء وأصبح علي فصلى الصبح، وباكراً القتال واستقبل أهل الشام واشتد القتال بين الفريقين، وحمل عبد الله بن بديل الخزاعي وهو قائد ميمنة جيش علي على ميسرة جيش معاوية فأزاحها عن مكانها، فلما رآها معاوية أمر الأبطال من جيشه أن يتقدموا لمساعدة حبيب بن مسلمة قائد ميسرته المنهزمة، فتقدموا وقاتلوا قتالاً شديداً حتى انهزمت ميمنة أهل العراق ولم يبق مع ابن بديل إلا ثلاثمائة رجل، ثم انكشف أهل العراق ولم يثبت منهم إلا أهل مكة وقائدهم سهل بن حنيف الأنصاري، كما ثبتت ربيعة، واقترب جيش الشام من الإمام علي ، وأصبحت السهام تمر فوق رأسه وعن يمينه وعن يساره وهو يمشي الهوينى لا يعبأ بهم حتى وصل إلى ميسرة جيشه، فنادى بأعلى صوته حاثاً إياهم على الثبات وأرسل الأشتر النخعي في إثر المنهزمين ليردهم، فمضى كالبرق الخاطف على فرسه، حتى استقبل المنهزمين، فجعل يؤنبهم

(1) البداية والنهاية-مرجع سابق-ج7-ص:252.

ويوبخهم ويحرض القبائل والشجعان على الكرة، فعادت طوائف منهم، واستمرت طوائف أخرى في الانهزام، فلم يزل بهم حتى اجتمع معه جمع عظيم من الناس، ثم تقدم حتى أرجع كل المنهزمين وسار حتى أتى الميمنة التي ثبت فيها عبد الله بن بديل في ثلاثمائة من أصحابه فسألوا عن أمير المؤمنين، فأخبروا أنه حي، فالتفوا حوله، وأرادا بن بديل أن يحمل على جيش الشام فأمره الأشتر بالتأني فرفض وتقدم مع من معه وهو يقاتل حتى اقترب من معاوية فخرجت إليه طائفة من جيش معاوية فقاتلته حتى قتل وقتل معه كثير من أصحابه وانهزم الباقون، وأكثرهم قد أصيب بجروح، ثم حمل الأشتر النخعي بمن رجع من المنهزمين وشدوا شدة رجل واحد على جيش معاوية وكان - معاوية - محاطا بخمسة صفوف كلهم عاهدوه على الموت فاخترق الأشتر أربعة صفوف منها وكاد أن يصل إلى معاوية، وتراجع أهل الشام لتنظيم صفوفهم، وقدم علي فوبخ المنهزمين من جيشه، وحررض الناس على القتال وثبتهم ودارت الحرب فاقتلوه قتالا شديدا وتبارز الشجعان، فقتل خلق كثير من الأعيان والقادة من الطرفين؛ وممن قتل في هذا اليوم عبيد الله بن عمر بن الخطاب من الشاميين وعمار بن ياسر من العراقيين، وهو الذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم أنه تقتله الفئة الباغية، وبأن بذلك أن عليا محق ومعاوية باغ، وهذا من دلائل النبوة، وقد قال رحمه الله قبل أن يقتل: أيها الناس اقصدوا بنا إلى هؤلاء الذين يبتغون دم عثمان ويزعمون أنه قتل مظلوما، والله ما قصدهم الأخذ بدمه، ولا الأخذ بثأره ولكن القوم ذاقوا الدنيا واستحلوها، واستمروا الآخرة فقلوها... فسيروا بنا إلى عدونا، واذكروا الله ذكرا كثيرا، ثم تقدم فلقية عمرو بن العاص وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، فلامها وأنبهما ووعظهما، وتقدم وصحبه فقاتل حتى قتل، قتله رجل يقال له جوي السكسكي، وجز رأسه رجل آخر اسمه أبو الغادية الفزاري، وقد روى الرواة أنه قبل أن يخرج إلى حتفه، قال ائتوني بشربة لبن فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي: "آخر شربة تشربها من الدنيا تشربها قبل أن تقتل"⁽¹⁾.

(1) البداية والنهاية-مرجع سابق - ج7-ص:257.

وهكذا صح هذا الحديث كما صح حديث الباغية حيث قال صلى الله عليه وسلم
لعمار يوم بناء المسجد "ويحك يا ابن سمية تقتلك الفئة الباغية"⁽¹⁾.

ولما بلغ علي مقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه قال لربيعة وهمذان: أنتم
درعي ورمحي فانتدب له نحو من إثني عشر ألف وتقدمهم وهو راكب بغلته فحمل
وحملوا معه حملة رجل واحد فلم يبق لأهل الشام صف إلا انتقض وقتلوا كل من
انتهوا إليه حتى بلغوا معاوية وعلي يقول:

أضربهم ولا أرى معاوية الجاحظ العين عظيم الحاوية

ثم دعا علي معاوية إلى المبارزة، فقال له عمرو بن العاص، لقد أنصفك الرجل
فقال معاوية ثكلتك أمك يا عمرو!! هل رأيت رجلا خرج إليه وعاد سالما، ولكنك
طمعت فيها بعدي، ثم قدم علي ابنه محمد بن الحنفية في جماعة كبيرة من الناس فتقاتل
مع أهل الشام قتالا لم ير مثله، ثم تقدم علي في جماعة أخرى فحمل بها على القوم
وتصارع الأقران واشتد القتل في الطرفين، وطارت أكف ومعاصم، ورؤوس كثيرة عن
كواهلها، رحمهم الله وأدركتهم صلاة العشائين (المغرب والعشاء) فصلوا إيماء،
واستمر القتال في هذه الليلة كلها وهي من أعظم الليالي شرا على المسلمين، وتسمى
هذه الليلة بليلة الهرير، وكانت ليلة الجمعة تكسرت فيها الرماح والسيوف ونفدت النبال،
حتى اضطر الناس إلى الاقتتال بالأيدي والحجارة، وحث التراب في الأوجه، وكان
الشخصان يتعاركان حتى يأخذ منهما التعب مأخذه ويسقطان على الأرض لا يستطيعان
الحراك، فإذا استرجعا أنفاسهما قاما إلى بعضهما البعض، واستمر القتال كذلك حتى
صلاة الصبح فصلاها الناس إيماء، وهم يتقاتلون حتى تضاحى النهار وتوجه النصر
لأهل العراق على أهل الشام، وذلك أن الأشتر النخعي صارت إليه إمرة الميمنة بعد
مقتل ابن بديل فحمل بمن فيها على أهل الشام وتبعه علي، فانتقضت غالب صفوف
معاوية، وكاد جيشه ينهزم، وعند ذلك رفع أهل الشام المصاحف على أسنة الرماح،

⁽¹⁾ البداية والنهاية-مرجع سابق- ج7- ص:257.

وقالوا كتاب الله بيننا وبينكم، قد فني الناس فمن لشغور الشام، ومن لشغور العراق ومن لجهاد المشركين والكفار⁽¹⁾.

وقد أشار كثير من المؤرخين أن الذي أشار بهذا هو عمرو بن العاص لما رأى بوادر انهزام أهل الشام قد بدأت فأراد أن يوقف المعركة فقال لمعاوية: إني قد رأيت أمرا لا يزيدنا هذه الساعة إلا اجتماعا، ولا يزيدهم إلا فرقة! أرى أن نرفع المصاحف وندعوهم إليها، فإن أجابوا كلهم إلى ذلك برد القتال، وإن اختلفوا فيما بينهم، فذاك الذي نريد، فلما رفعت المصاحف، انقسم جيش العراق، فطالب أكثرهم بوقف الاقتتال، وعلى رأسهم الأشعث بن قيس الكندي رضي الله عنه، ولكن الإمام علي رفض هذا الأمر، وخاطب أصحابه قائلا: "عباد الله امضوا إلى حاكم وصدقكم وقتال عدوكم، فإن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، أنا أعرف بهم منكم، صحبتهم أطفالا، وصحبتهم رجالا، فكانوا شر أطفال، وشر رجال، ويحكم والله، إنهم ما رفعوها إنهم يقرؤونها ولا يعملون بما فيها، وما رفعوها إلا خديعة ودهاء ومكيدة"⁽²⁾.

فأبوا عليه ذلك وقالوا له : كيف تدعي إلى كتاب الله فتأبى قبول ذلك، فقال لهم: إنما أقاتلهم من أجله، فإنهم قد عصوا الله فيما أمرهم به، وتركوا عهده ونبذوه وراء ظهورهم وأعرضوا عن كتابه، فقال له مسعر بن فدكي التميمي وزيد بن حسين الطائي في جماعة معهما من القراء ثم صاروا بعد ذلك من الخوارج لئن لم تفعل وتوقف الحرب لندفعنك إلى القوم ليقتلوك، أو نفعل بك ما فعلناه بابن عفان إنه غلبنا أن يعمل بكتاب الله فقتلناه، والله لتفعلنها أولنفعلنها بك!! فقال لهم: احفظوا عني نهبي إياكم واحفظوا مقاتلكم لي، أما أنا فرأيي أن تقاتلوا، وإن عصيتم أمري فافعلوا ما بدا لكم ، فقالوا له: ابعت إلى الأشر ليكيف عن القتال وليرجع فورا فبعث علي رسولا إلى الأشر ليرجع وينتهي عن القتال، فقال الأشر: ليس هذه الساعة يكون هذا الأمر، فدعوني أكمل المعركة فقد أحسست بالنصر والفتح، فرجع الرسول وأخبر عليا بمقالة الأشر

(1) ينظر: البداية والنهاية - مرجع سابق - ج7 - ص: 261.

(2) البداية والنهاية - مرجع سابق - ج7 - ص: 262.

فعلا صوت القراء وقالوا لعلي: لقد بعثت إليه ليوصل القتال، فقال لهم ويحكم هل ساررته عندما حدثته لقد كلمته وأنتم تسمعون، ثم التفت إلى يزيد بن هانئ الذي أرسله إلى الأشتر وقال له أنت الأشتر وقل له أن يكف عن القتال فإن الفتنة قد وقعت، فقال الأشتر للرسول: إن الأمر لا يعدو صبر ساعة ثم ينتهي فقال له الرسول أترضى أن يقتل أمير المؤمنين حتى تستكمل هذا الأمر، فعندها كف عن القتال وأقبل وهو يتململ حتى جاء إلى الإمام علي والقراء حوله فقال لهم أمهلوني عدو فرس فقط فإني أحسست بالفتح، فقالوا له إذن ندخل في خطيئتك، فقال لهم إنما قاتلناهم من أجل حكم القرآن، فأبوا فلما رأوا الهزيمة رفعوا المصاحف مكيدة فاسمعوا وأطيعوا تفلحوا فأبوا عليه فسبهم وسبوه، وضربوا وجه فرسه بالسياط، وقد رغب أغلب أهل العراق في وقف الحرب ورغب أهل الشام بكاملهم إلى المصالحة والمصالحة مدة لعل الناس يتفقون حتى تحقن دماء المسلمين، وقد قتل في هذه الحرب ما يربو عن سبعين ألف قتيل خمسة وأربعون من أهل الشام، وخمسة وعشرون من أهل العراق⁽¹⁾.

التحكيم وخروج الخوارج:

لما توقف القتال بين الفريقين وتوادم الناس، قاموا بدفن الموتى من الطرفين فكانوا يجعلون خمسين جثة في قبر واحد كبير، لكثرة القتلى من الطرفين، ثم بدأت الرسل بين الجانبين فهذا يغدوا وهذا يروح فأرسل علي رضي الله عنه رسولا إلى معاوية يطلب منه توضيح ما أراد، وكان الرسول هو الأشعث بن قيس، فأتى معاوية وسأله لأي شيء رفعت المصاحف فأجابه معاوية بقوله: لنرجع نحن وأنتم إلى كتاب الله وما أمر الله به عز وجل؛ تبعثون منكم رجلا ترضونه، ونبعث منا رجلا ثم نأخذ عليهما أن يعملوا بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه، فقال الأشعث هذا الحق، فأنصرف إلى علي فأخبره بالذي قاله معاوية، فقال الناس فإننا قد رضينا وقبلنا⁽²⁾.

فأختار معاوية عمرو بن العاص ممثلا له، وأراد علي أن يختار عبد الله بن عباس فأبى القراء عليه ذلك، فقال لهم ليكن الأشتر فقالوا له: وهل سعر الحرب وأشعل

(1) ينظر: البداية والنهاية-مرجع سابق- ج7-ص: 262-263.

(2) ينظر: ابن جرير الطبري- تاريخ الرسل والملوك- دار الفكر بيروت- ط1- 1987- ج3- ص: 103.

الأرض إلا الأشر، وأصروا على أبي موسى الأشعري، وحاول جاهدا أن يثيبهم عن ذلك لعلمه بدهاء عمرو بن العاص، وأن أبا موسى الأشعري ليس له ندا في ذلك، وقال لهم عصيتُموني في أول هذا الأمر فلا تعصوني في آخره، دعوني أن أرميهم بآبن عباس، فقالوا لا نريد بأبي موسى الأشعري بديلا، فلما يئس منهم قال لهم افعَلوا ما أردتم؟، فذهبوا إلى الحجاز واحضروا أبا موسى الأشعري، وكان معتزلا الفئتين- فأخبروه بوقف الحرب فحمد الله وأخبروه بأنهم قد اختاروه حكما فقال إنا لله وإنا إليه راجعون، ثم أحضروه إلى علي رضي الله عنه، وحضر عمرو بن العاص وكتبوا بينهم كتابا هذه صورته كما رواه ابن كثير "بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما قاضى عليه علي أمير المؤمنين ، فقال عمرو بن العاص: اكتب اسمه واسم أبيه: هو أميركم وليس بأميرنا، فقال الأحنف بن قيس: لا تكتب إلا أمير المؤمنين، فقال علي: أمح أمير المؤمنين، وكتب هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب ثم استشهد علي بقصة الحديبية حين امتنع أهل مكة عن هذا ما تقاضى عليه محمد رسول الله فامتنع المشركون عن ذلك وقالوا: اكتب هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله، فكتب الكاتب: هذا ما قاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى علي على أهل العراق ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين وقاضى معاوية على أهل الشام، ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين، إنا ننزل عند حكم الله وكتابه ونحي ما أحيا الله، ونميت ما أمات الله، فما وجد الحكمان في كتاب الله - وهما أبو موسى الأشعري وعمرو بن العاص عملا به، وما لم يجدا في كتاب الله فالسنة العادلة الجامعة غير المفارقة"⁽¹⁾.

ثم أخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجنود ومن أهل العراق والشام العهود والمواثيق التي تؤمن حياتهما وحياة أهلهما، وأن يأخذوا بما يحكمان به عند اجتماعهما، وأعلنا أن موعد التحكيم شهر رمضان ومكان التحكيم دومة الجندل على أن يحضر

(1) البداية والنهاية-مرجع سابق - ج7، ص:265-266.

علي في أربعمائة من أصحابه وأن يحضر معاوية في أربعمائة من أصحابه، وقد كتب ذلك يوم الأربعاء لثلاث عشرة خلت من صفر سنة 37هـ⁽¹⁾.

ورجع أمير المؤمنين إلى الكوفة وجيشه في شقاق وخلاف، ففريق يرى أن الرضى بالتحكيم حق، وفريق يراه باطلا ولما وصل علي الكوفة اعتزله جماعة ممن رأوا التحكيم ضلالا وانحازوا إلى قرية قريبة من الكوفة تسمى حروراء، فنزلوا بها في اثني عشر ألف، وأمروا على القتال شبت بن ربعي، وعلى الصلاة عبد الله بن الكوايشكري، والأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فبعث إليهم علي عبد الله بن عباس وأوصاه أن لا يحدثهم حتى يلحق به، ولكن ابن عباس استعجل فلما وصل إليهم حادثهم ومما قاله لهم: ماذا نقمت من أمر التحكيم وقد أمر الله به بين الزوجين، وكذلك أمر بالتحكيم في من قتل الصيد وهو محرم، فقالوا له: ليس أمر الزوجين والصيد كدعاء المسلمين، وقدحوا في عدالة عمرو بن العاص، وقالوا قد حكمتكم الرجال في أمر الله، وقد أمضى الله حكمه في معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يرجعوا، وجعلتم بينكم المودعة في الكتب وقد قطعها الله بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت سورة براءة، وبينما هم في تحاورهم مع ابن عباس إذ خرج علي رضي الله عنه ونزل في فسطاط يزيد بن قيس وهو منهم، فصلى عنده ركعتين وولاه اصبهان والري، ثم خرج إليهم وهم مع ابن عباس، فقال من زعيمكم؟ فقالوا: ابن الكواء، فقال: ما هذا الخروج؟ قالوا: لحكومتكم يوم صفين. قال: قد اشترطت عليهم أن يحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن، فإن حكما بالقرآن فلا خوف علينا، وإن خالفا القرآن فنحن من حكمهما براء، فقالوا: خبرنا أتراه عدلا أن يحكم الرجال في الدماء؟ فقال: إنما لم نحكم الرجال، وإنما حكمنا القرآن؛ وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق، وإنما يتكلم به الرجال، فقالوا: فلم جعلت بينك وبينهم أجلا؟ فقال: ليعلم الجاهل ويثبت العالم، ولعل الله يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة، فرجعوا إلى رأيهم، فقال: ادخلوا مصركم رحمكم الله، فدخلوا عن آخرهم⁽²⁾.

(1) المرجع نفسه - ص: 266.

(2) ينظر: البداية والنهاية - مرجع سابق - ج 7، 268 - إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء - ص: 166-167.

التحكيم:

ولما انقضى الوقت المتفق عليه بعث علي أبا موسى الأشعري في أربعمئة من أصحابه يقودهم شريح بن هانئ الحارثي وابن عباس يؤمهم في الصلاة، وبعث معاوية عمرو بن العاص في أربعمئة من أصحابه يقودهم شرحبيل بن السمط، فتوافى القوم عند دومة الجندل - وهي نصف المسافة بين الكوفة والشام - فلما اجتمع الحكمان تحاورا في أمر هذه الأمة والسبيل الذي يمكنها من الخروج من تلك المحنة فتحاورا وتجاوزا، فقال أبو موسى الأشعري الأمر عندي أن نخلع الرجلين وأن ندع الأمر شورى بين المسلمين، فقال له عمرو: لماذا لا نخلع علي ونولي معاوية فهو ولي عثمان وله الحق بالمطالبة بدمه، فقال له أبو موسى: اتق الله يا عمرو ما لهذا اجتمعنا! فنحن نريد أن نخرج الأمة من هذه الفتنة وأنت تريد إثارتها مرة أخرى، وإن كان ولا بد من تولية أحد فليكن عبد الله ابن عمر بن الخطاب، فقال عمرو: ولماذا لا نجعلها لابني عبد الله فهو لا يقل علما وتقوى وزهدا عن ابن عمر، فقال أبو موسى: هو كذلك ولكنك غمسته في الفتنة، فلما استئيس عمرو من استدراج أبي موسى إلى رأيه، وافقه على إقالة علي ومعاوية وترك الأمر شورى بين المسلمين، فخرجوا إلى الناس وقدم عمرو بن العاص أبا موسى الأشعري للحديث احتراماً له - كما يزعم بعضهم - فبعد أن حمد الله وأثنى عليه قال: لقد اجتمع رأيي ورأي ابن العاص على خلع هذين الرجلين وترك الأمر شورى بين المسلمين، فأنا أخلع عليا ومعاوية معا. ثم تقدم عمرو بن العاص وقال: لقد سمعتم ما قاله أبو موسى، فهو قد خلع صاحبه وأنا أخلعه كما خلعه وأثبت صاحبي لأنه أولى الناس بعثمان وهو ولي أمره، فصاح أبو موسى الأشعري خدعتني قبحك الله وسبه ورد عليه عمرو فسبه، وتفرق القوم، فمضى عمرو بن العاص مع أصحابه حتى دخل دمشق وسلم على معاوية بالخلافة وبايعه ومن معه، وأما أبو موسى الأشعري فقد استحي أن يقابل الإمام علي فاتجه إلى مكة هاربا بنفسه، ورجع شريح بن هانئ وابن عباس ومن معهما إلى الكوفة وهم يحملون الخطب الجلل⁽¹⁾.

(1) ينظر: البداية والنهاية - مرجع سابق - ج 7 - 272 - إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء - ص: 169-170.

ولما بلغ أمير المؤمنين خبر الحكمين قام خطيباً في أهل العراق حيث قال:
"الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح، والحدث الجليل، وأشهد أن لا إله إلا الله لا
شريك له، أما بعد: فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة، وتعقب
الندامة وقد كنت أمرتكم في هذه الحكومة أمري ونخلت لكم مخزون رأيي، لو كان
يطاع لقصير أمر!! فأبيتم علي إباء المخالفين، الجفافة، والمنابذين العصاة، حتى ارتاب
الناصر بنصحه، وضم الزند بقدحه، فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح الا ضحى الغد"⁽¹⁾

ثم عزم رضي الله عنه على تعبئة الناس والسير بهم إلى الشام لإنزال معاوية
ومن معه على حكم الله، بعد أن بين لهما أن حكم الحكمين باطل لأنهما حكما بالهوى
ولم يتبعوا سبيل المتقين، فبينما هو كذلك، وقد أعد ثمانية وستين ألف جندي للسير بهم
نحو معاوية، إذ جاءه خروج الخوارج بالنهر وإن و صارت لهم شوكة كبيرة
وتعرضوا للناس بالقتل والأذى، فخاف الناس على أهاليهم إن هم ذهبوا إلى الشام
وتركوا هؤلاء الناس وراءهم أن يعيشوا في الأرض فساداً، فطلبوا من الإمام علي أن
يبدأ بهم قبل التوجه إلى معاوية⁽²⁾.

و كان من أمر الخوارج أنهم لما رجعوا في المرة الأولى ندموا ونصحوا
بعضهم بعضاً بالخروج من الكوفة واعتزال علي ومن شايعه، وكان على رأس هؤلاء
عبد الله بن وهب الراسمي وزهير بن حرقوص السعدي، ويزيد بن حصن الطائي،
وشريح بن أبي أوفى العبسي وغيرهم، وقد خرجوا فرادى من الكوفة حتى لا يتقطن
لهم الناس، وراسلوا من علي رأيهم من أهل البصرة ليؤازروهم فاجتمع ملؤهم بالنهروان
،وانضم إليهم خلق كثير بعد التحكيم الذي لم يكن في صالح علي رضي الله عنه،
واعتبروا التحكيم كفراً وعدوا كل من رضي به كافراً، ولما سمع بخروجهم وتجمعهم
هناك راسلهم وأخبرهم بأنه عقد العزم على أن يخرج إلى الشام ودعاهم إلى الانضمام
إليه ليقاتلوا عدوهم المشترك، فأجابوه بكتاب (رسالة) قالوا فيه أما بعد فإنك لم تغضب

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد-مصدر سابق- ص:120.

(2) ينظر: البداية والنهاية-مرجع سابق- ج7- ص:275.

لربك، وإنما غضبت لنفسك، فإن شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك!! وإلا فقد نابذناك على سواء "إن الله لا يحب الخائنين" [الأنفال/58] فلما قرأ كتابهم يؤس منهم، وعزم على الخروج إلى الشام كما ذكرنا أنفاً، فخرج إلى النخيلة وعسكر هناك ليستكمل تعبئة جيشه، فجاءته أخبارهم المشينة التي تناقض تماماً ما يدعونه من ورع وتقوى، فقد لقوا عبد الله ابن خباب بن الارت مع زوجته، فسألوه عن التحكيم فقال علي أعلم الناس وقد رضي به فماذا أقول أنا؟ فقتلوه ، وبقروا بطن زوجته، وكلما لاقوا إنساناً مسلماً سألوه عن التحكيم فإن رضي به قتلوه وإن لم يرض به طلبوا منه الانضمام إليهم، فقتلوا ناساً كثيرين من المسلمين وأهل الذمة، فعزم رضي الله عنه أن يستأصل هذا الورم قبل أن يبرح الكوفة، فاتجه بجيشه إليهم، فخرج إليهم قيس بن سعد بن عبادة فوعظهم واستعظم ما أتوه من جرم في حق المسلمين، فلم يسمعوا له، ثم خرج إليهم أبو أيوب الأنصاري فوعظهم وحذرهم من الفتنة والفرقة والتعنت فلم يسمعوا له هو الآخر، فتقدم أمير المؤمنين علي فخطبهم وبين لهم خطأهم ونصحهم وطلب منهم الانضمام إليه والسير إلى عدوهم المشترك، فأبوا عليه وتنادوا بينهم تهيأوا للقاء الله عز وجل، الرواح الرواح إلى الجنة- وكانوا قد استعدوا للمعركة فنصب لهم الإمام علي راية مع أبي أيوب الأنصاري وقال لهم من التحق بهذه الراية فهو آمن، ومن خرج ورجع إلى أهله فهو آمن، فخرج بعضهم نحو راية أبي أيوب الأنصاري ، وعددهم ألف رجل، ومضى خمسمائة منهم إلى خارج النهروان، واعتزلوا القتال فبقي منهم حوالي أربعة آلاف رجل، فزحفوا على جيش علي والتقى الجمعان فهلكوا جميعاً- الخوارج- ولم ينج منهم إلا أربعمئة جريح سلموا إلى أهاليهم، وقسم ما وجد في معسكرهم من سلاح وخيل، وأما أموالهم وإماؤهم وعبيدهم فقد ردت إلى أهاليهم⁽¹⁾.

ولما أراد أمير المؤمنين السير إلى الشام طلب منه جيشه العودة إلى الكوفة حتى يتزودوا بالنبال والرماح لأن معظم النبال نفذت وكثير من الرماح تقصفت حين اقتتلوا

(1) ينظر: ابن جرير الطبري- تاريخ الرسل والملوك -مرجع سابق- ج2-ص:129. وينظر أيضا : البداية والنهاية- مرجع سابق- ج 7 - ص 276-277.

مع الخوارج، فأذن لهم بالرجوع والنزول بالنخيلة قرب الكوفة وأمرهم بعدم الإكثار من دخول الكوفة، حتى لا يستطيعوا المقام - حتى يجهزهم ويضيف إليهم ما استطاع من الرجال، ولكن القوم خالفوه، وأصبحوا يتسللون إلى الكوفة الواحد تلو الآخر، حتى أصبح معسكره خاليا من الجند، فدخل الكوفة وخطبهم في المسجد وأنبهم على تأخرهم عليه، فما ازدادوا إلا تفرقا وخذلانا، فعلم أن عزائمهم قد فلتت، وسئموا القتال فعصوا أمره بالمخالفة، وبدأ سلطانه يسير القهقري، ولم يزل بهم حاثا لهم على السير إلى الشام، فكان كمن ينفخ في الرماد، على الرغم مما آتاه الله من البلاغة والفصاحة، وبدأ أن نجم أهل العراق بدأ في الأفول، وكثرت عليه الخوارج بحجتهم التي اتخذوها شعارا لهم، وهي أنه حكم الرجال في دين الله ولا حكم إلا الله⁽¹⁾.

فمن الذين خرجوا عليه الجماعة التي عادت ولجأت إلى راية أبي أيوب الأنصاري، ومن شايعهم بعد ذلك ممن كان على الحياد، فتجمعوا وتأسفوا على خذلانهم لأصحابهم يوم النهروان، فقام فيهم رجل يقال له المستورد أحد كبرائهم وخطبهم حاثا لهم على قتال علي، فخرجوا إلى النخيلة فأرسل إليهم عبد الله بن عباس لمناصحتهم فأبوا الرجوع فخرج إليهم علي رضي الله عنه فأبادهم جميعا، ولم ينج منهم إلا خمسة أفراد منهم المستورد، وابن جوين الطائي وابن شريك الأشجعي⁽²⁾.

ثم توالى خروج الخوارج عليه، فخرج عليه رجل يقال له الحارث بن راشد الناجي، إذ قدم من البصرة إلى الكوفة مع جماعة ممن على رأيه حتى أتى الكوفة، فوقف على الإمام علي وقال له: إنك قاتلت أهل النهروان في كونهم أنكروا عليك قصة التحكيم، وتزعم أنك أعطيت أهل الشام عهدك ومواثيقك، وأنت لست بناقضها، وهذان الحكمان قد اتفقا على خلعتك، ثم اختلفا في ولاية معاوية، فولاه عمرو وامتنع أبو موسى من ذلك، فأنت مخلوع باتفاقهما، وأنا قد خلعتك، وخلعت معاوية معك، فتبعه خلق كثير من بني ناجية - قومه - فأرسل الإمام علي في أثرهم معقل بن قيس الرماحي فقتلهم، ثم خرج عليه من أهل البصرة جماعة على رأسهم الأشرس بن عوف الشيباني،

(1) المرجع نفسه - ج2 - ص: 124.

(2) ينظر: ابن جرير الطبري - تاريخ الرسل والملوك - مرجع سابق - ج2 - ص: 124.

فقتل هو وأصحابه، ثم خرج عليه الأشهب بن بشر البجلي من أهل الكوفة فقتل هو وأصحابه ثم خرج عليه سعيد بن نغد التميمي من أهل الكوفة فقتل هو وأصحابه⁽¹⁾. وهكذا تألبت الأمور على أمير المؤمنين رضي الله عنه؛ فالخوارج من جهة وخذلان أصحابه من جهة ثانية، ثم نشاط أهل الشام من جهة ثالثة، ففي سنة 38هـ بعث معاوية عمرو بن العاص إلى مصر وبها محمد بن أبي بكر واليا عليها من قبل الإمام علي، فاستردها عمرو منه، وقتل محمد بن أبي بكر الصديق، وأحرق في جوف حمار، فحزن لذلك علي رضي الله عنه حزنا شديدا لأنه كان ربيبه ومن أخلص الناس إليه، ومن قبله مات الأشتر وهو في طريقه إلى مصر قبل مقتل محمد بن أبي بكر؛ قتل مسموما بالقرب من السويس وهو بالتعبير العصري القائد العام لقوات الإمام علي، فحزن عليه أيضا حزنا شديدا، وقبل موت الأشتر مات عمار بن ياسر بصفين، وهو من هو عند الإمام علي وعند المسلمين، إنه أشهر من نار على علم وفيه ورد قوله صلى الله عليه وسلم: **"تقتلك الفئة الباغية"**. وقد قال معاوية عندما بلغه موت الأشتر كان لعلي يمينان قطعت إحداها يوم صفين - يريد عمار بن ياسر - وقطعت الثانية اليوم - يريد الأشتر -⁽²⁾.

ومما قاله الإمام علي لما بلغه موت مالك الأشتر النخعي، وهو يقلب كفيه حزنا عليه، **"مالك وممالك!! والله لو كان جبلا لكان فندا ولو كان حجرا لكان صلدا، لا يرتقيه الحافر، ولا يوفي عليه الطائر"**⁽³⁾ فمالك عند الإمام علي مثل الجبل العظيم سامق لا يرتقيه الحافر ولا يعلوه الطائر وهي كناية عن عظمة الرجل من كل الجوانب.

واستمرت جيوش معاوية في شن الغارات على ما يبدي الإمام علي، فكان يستنهض أصحابه للقتال ويقرعهم ويوبخهم عن تقاعسهم عن حقهم وجد هؤلاء في باطلهم، فما يزيدهم قوله لهم إلا همودا وإخلادا إلى الأرض حتى جأ بالدعاء إلى الله

(1) ينظر: البداية والنهاية-مرجع سابق- ج7- ص: 296-297.

(2) ينظر: محمد رضا- علي رابع الخلفاء الراشدين- دار الكتاب الحديث- القاهرة- ص: 160.

(3) نهج البلاغة - صبري إبراهيم السيد-مرجع سابق- ص: 292.

أن يخلصه منهم وأن يخلصهم منه، فكان رضي الله عنه يكثر من قوله ما يحبس أشقاها؟ أي ماذا ينتظر؟. ثم يقول : والله لتخضبن هذه ويشير إلى لحيته من هذه ويشير إلى هامته ، فقال رجل من أصحابه يقال له عبد الله بن سبع: والله يا أمير المؤمنين لو أن رجلا فعل ذلك لأبدنا عترته فقال أناشدكم الله أن يقتل غير قاتلي، قالوا يا أمير المؤمنين ألا تستخلف؟ فقال: لا ولكن أترككم كما ترككم رسول الله ، قالوا: فما تقول لربك إذا وفدت عليه وقد تركتنا هملا؟ قال: أقول: لهم استخلفتني فيهم ما بدا لك، ثم قبضتني وتركتك فيهم فإن شئت أصلحتهم وإن شئت أفسدتهم⁽¹⁾.

ومن دلائل النبوة الصادقة ما ورد في مقتله رضي الله عنه؛ فقد ذكر النسائي في كتابه خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ما رواه عمار بن ياسر حيث قال: "كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة- من بطن ينبع- فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بها شهرا، فصالح فيها بني مدلج وحلفاءهم من ضمرة، فقال لي علي رضي الله عنه: هل لك يا أبا اليقظان أن تأتي- نفر من بني مدلج يعملون في عين لهم- فتتظر كيف يعملون؟ قال: قلت: إن شئت فاجأناهم فنظرنا إلى أعمالهم ساعة، ففعلنا، ثم غشنا النوم، فانطلقت أنا وعلي حتى اضطجعنا في ظل صور من النخيل، وفي دفعاء من التراب، فمنا فوالله ما أهبنا إلا رسول الله يحركنا برجله، وقد تربنا من تلك الدفعاء التي نمنا فيها، فيومئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه "مالك أبا تراب؟" (لما يرى عليه من التراب) ثم قال: "ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين؟ قلنا بلى يا رسول الله قال: "أحيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك على هذه" ووضع يده على قرنه- "حتى يبيل منها هذه وأخذ بلحيته⁽²⁾.

11. صفة مصرعه رضي الله عنه:

روى كثير من أصحاب السير والتاريخ خبر استشهاد الإمام علي رضي الله عنه، وقد أشار أغلب هؤلاء الكتاب إلى أن ثلاثة من الخوارج و هم عبد الرحمن بن

(1) ينظر: البداية والنهاية-مصدر سابق- ج 7- ص: 310-311.

(2) النسائي: خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب-ص: 93-94.

ملجم الحميري، والبرك بن عبد الله التميمي، وعمرو بن بكر التميمي، اجتمعوا فتذاكروا إخوانهم من الخوارج الذين قتلوا يوم النهروان فترحموا عليهم، وقالوا: ماذا نصنع بالبقاء بعدهم؟ كانوا لا يخافون في الله لومة لائم، فلو شربنا أنفسنا فأتينا أئمة الضلال فقتلناهم فأرحنا منهم البلاد، وأخذنا منهم ثأر إخواننا؟ فقال ابن ملجم أما أنا فأكفيكم علي بن أبي طالب، وقال البكر بن عبد الله التميمي وأنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر: وأنا أكفيكم عمرو ابن العاص، فتعاهدوا وتواثقوا على ذلك وأوصى بعضهم بعضا بعدم النكوص عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه، فأخذوا أسيافهم فسموها وتواعدوا لتنفيذ هذا الأمر لسبع عشرة من رمضان، فأما البرك فذهب إلى معاوية وانتظره حتى إذا خرج لصلاة الصبح ضربه بالسيف في أليته ولم يمت فقبض عليه وأمر معاوية بقتله فقتل، وأما عمرو بن بكر فذهب إلى عمرو بن العاص ولحسن حظه لم يخرج إلى الصلاة في ذلك اليوم لمرضه، فكان يصلي بالناس خارجة بن حذافة التميمي فضربه الخارجي فقتله ظنا منه أنه عمرو بن العاص وقبض عليه فقتل، أما عبد الرحمن بن ملجم فقصد الكوفة، وانتظر أمير المؤمنين حتى خرج إلى الصلاة وهو ينادي الناس الصلاة الصلاة فضربه على قرنه بسيفه المسموم وهو يصيح الحكم لله لا لك يا علي ولا لأصحابك! فقال علي لا يفوتكم الرجل، فشد عليه الناس من كل جهة وأخذوه وقدم جعدة بن هبيرة يصلي بالناس الصبح، ثم قال رضي الله عنه: النفس بالنفس إن هلك فافقتلوه كما قتلني، وإن بقيت رأيت فيه رأيي يا بني عبد المطلب لا ألفينكم تخوضون دماء المسلمين، تقولون قتل أمير المؤمنين ألا لا يقتل إلا قاتلي، انظر يا حسن إن أنا مت من ضربتي هذه فاضربه ضربة بضربة، ولا تمثل بالرجل، ودخل جندب بن عبد الله فقال: يا أمير المؤمنين إن فقدناك -ولا نفقدك- فنبايع الحسن، فقال: ما أمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر⁽¹⁾.

ولما مثل ابن ملجم أمام أمير المؤمنين قال له: "أي عدو الله ألم أحسن إليك؟ قال: بلى، قال: فما حملك على هذا؟ قال: شحذته أربعين صباحا، وسألت الله أن يقتل به، شر خلقه، فقال له علي: ما أراك إلا مقتولا به ولا أراك إلا من شر خلق الله، ولما

(1) ينظر: البداية والنهاية - مرجع سابق - ج 7 - ص: 313-314.

احتضر علي جعل يكثر من قول لا إله إلا الله لا يتلفظ بغيرها، وقد قيل إن آخر ما تكلم به " (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) [الزلزلة/7-8].

وقد أوصى ولديه الحسن والحسين بتقوى الله والصلاة والزكاة وكظم الغيظ وصلة الرحم والحلم عن الجاهل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتفقه في الدين، والتثبت في الأمر، والتعاهد للقرآن وحسن الجوار واجتناب الفواحش، ووصاهما بأخييهما محمد بن الحنفية، ووصاه بما وصاهما به، وأن يعظمهما، ولا يقطع أمرهما دونهما وكتب ذلك كله في كتاب وصيته، رضي الله عنه وأرضاه، وقد غسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر، وصلى عليه الحسن فكبر عليه تسع تكبيرات، ودفن بالكوفة في أشهر الأقوال⁽¹⁾.

(1) المرجع نفسه - ج7 - ص: 314-315.

المبحث الثاني: الإمام علي ونهج البلاغة:

إن الكتاب الذي نحن بصدد دراسته، هو كتاب نهج البلاغة الذي جمعه الشريف الرضى (ت 406 هـ) من كلام أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب؛ وهو كتاب يجمع خطب ورسائل ووصايا وحكم، وقد قال المؤرخ المسعودي: "والذي حفظ الناس من خطبه في سائر مقاماته أربعمئة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردها على البديهة، وتداول الناس ذلك عنه قولاً وعملاً"⁽¹⁾ وقد وقف الناس من هذا الكتاب مواقف متباينة؛ فمنهم من عد ما ورد فيه منسوباً إلى الإمام علي صحيحاً كله، ومنهم من نفى نسبته إليه، وأوعزه إلى بعض الشيعة، ومنهم من وقف في الأمر موقف الوسط؛ فأقر بنسبة الكتاب إلى الإمام علي إلا أنه شكك في بعض فصوله.

ولكن قبل أن نعرض لهذه الآراء، يجدر بنا أن نزيل شبهة أخرى، وهي أن الكتاب جمعه الشريف المرتضى أخو الشريف الرضى المتوفي سنة 436 هـ، وقد ذهب إلى ذلك كل من ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان⁽²⁾، والذهبي في كتابه ميزان الاعتدال⁽³⁾، وابن حجر العسقلاني في كتابه لسان الميزان⁽⁴⁾، وابن عماد الحنبلي في كتابه شذرات الذهب في أخبار من ذهب⁽⁵⁾ ونجد من المحدثين من حذا حذو هؤلاء المؤرخين والكتاب مثل جرجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية.⁽⁶⁾

ومن الدراسات التي تناولت هذا الموضوع بالبحث والتمحيص ما قام به الأستاذ "امتياز علي عرشي"، حيث قام بكتابة بحث عن الكتاب أسماه (إسناد نهج البلاغة)، أثبت فيه أن جامع نهج البلاغة هو الشريف الرضى، لا المرتضى⁽⁷⁾ وقد توقف هذا الباحث عند بعض معاصري الشريف الرضى، والشريف المرتضى من أمثال العلامة النجاشي المتوفي سنة 450 هـ، صاحب كتاب (كتاب الرجال) حيث تحدث عن

(1) ينظر: المسعودي - مروج الذهب - دار الأندلس بيروت لبنان ط 5 1983 ج 2 - ص: 419.

(2) ينظر: ابن خلكان - وفيات الأعيان تحقيق محيي الدين عبد الحميد - النهضة العربية د. ط 1949 ج 3 - ص: 416.

(3) ينظر: الذهبي - ميزان الاعتدال - تحقيق محمد علي البجاوي - عيسى الحلبي القاهرة ط 1 1963 ج 3 - ص: 124.

(4) ينظر: ابن حجر العسقلاني لسان الميزان - مؤسسة الأعلمي بيروت ط 2 1971 ج 4 - ص: 223.

(5) ينظر: ابن عماد الحنبلي شذرات الذهب في أخبار من ذهب - مكتبة المقدسي القاهرة 1350 هـ ج 3 257.

(6) ينظر: جرجي زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية مطبعة الهلال 1936 د ط ج 1 - ص: 181.

(7) ينظر: مجلة ثقافة الهند عدد ديسمبر 1957 نقلاً عن نهج البلاغة تحقيق صبري إبراهيم السيد - ص: 14.

الأخوين الرضى والمرضى، وعن مؤلفاتهما، وذهب إلى أن مؤلف أو جامع نهج البلاغة هو الشريف الرضى (تـ 406) ويذكر الباحث شواهد على أن الرضى هو صاحب هذا العمل بما ورد في مقدمة كتاب نهج البلاغة، حيث يقول صاحبه " فإني كنت في عنفوان السن، وغضاضة الغصن ابتدأت بتأليف كتاب في خصائص الأئمة، عليهم السلام، يشتمل على محاسن أخبارهم، وجواهر كلامهم، حداني عليه غرض ذكرته في صدر الكتاب، وجعلته إمام الكلام، وفرغت من الخصائص التي تخص أمير المؤمنين عليا عليه السلام، وكنت قد بوبت ما خرج من ذلك أبوابا، وفصلته فصولا فجاء في آخرها فصل يتضمن محاسن ما نقل عنه عليه السلام من الكلام القصير في الحكم و الأمثال و الآداب دون الطويلة، والكتب المبسوبة، فاستحسن جماعة من الأصدقاء والإخوان ما اشتمل عليه الفصل المقدم ذكره، معجبين ببدائه، ومتعجبين من مواضعه، وسألوني عند ذلك أن أبدأ بتأليف كتاب يحتوي على مختار كلام مولانا أمير المؤمنين عليه السلام، في جميع فنونه ومتشعبات غصونه من خطب وكتب ومواظ و آداب"⁽¹⁾ ويتضح من كلامه هذا أن جامع نهج البلاغة، جمعه بعد تأليف كتابه (خصائص الأئمة) ويعضده ما قال الجامع في شرحه للخطبة العشرين " وقد نبهنا في كتاب الخصائص على عظم قدرها وشرف جوهرها"⁽²⁾ ولما كان مؤلف كتاب الخصائص هو الشريف الرضى، فإن جامع نهج البلاغة هو كذلك.

ويورد النجاشي دليلا آخر على أن مؤلف نهج البلاغة هو السيد الرضى أبو الحسن رضى الله عنه؛ وهذا الدليل يتمثل في كتاب آخر ألفه الرضى في تفسير القرآن الكريم، تحت عنوان " حقائق التنزيل" وقد اندثر هذا الكتاب إلا مجلدا واحدا طبع في النجف سنة 1355 هـ - 1927م، وقد ورد في الصفحة 167 من هذا التفسير " من أراد أن يعلم برهان ما أشرنا إليه من ذلك، فلينعم النظر في كتابنا الذي ألفناه ووسمناه بنهج البلاغة، وجعلناه يشتمل على مختار جميع الواقع إلينا من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، في جميع الأنحاء، والأغراض، والأجناس والأنواع من خطب وكتب ومواظ

(1) نهج البلاغة-شرح محمد عبده-دار الكتاب العربي بيروت، لبنان دط 2005-مقدمة الشريف الرضى ص:13-

وحكم، وبوبناه أبواباً ثلاثة ليستعمل على هذه الأقسام مميزة مفصلة⁽¹⁾ ولا جدال في أن الكلام المذكور يشير صراحة إلى نهج البلاغة الذي نحن بصدد البحث فيه.

والدليل الثالث الذي يورده النجاشي هو ما ورد في كتاب " مجازات الآثار النبوية " لمؤلفه الشريف الرضى، حيث نجد في نسخته المطبوعة ما نصه يبين ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام في كلام له " تخففوا تلحقوا " وقد ذكرنا ذلك في كتابنا الموسوم بنهج البلاغة، الذي أوردنا فيه مختار كلامه⁽²⁾ ونجد في صفحة أخرى ما نصه ومثل ذلك قول أمير المؤمنين علي عليه السلام: " من يعط باليد القصيرة يعطي باليد الطويلة "⁽³⁾

أما الدليل الرابع فإننا نجد في بعض نسخ نهج البلاغة أن الشرح يبدأ باسم الرضى، ونجد تارة بعد تارة قوله " قال الرضى، أو قال الرضى أبو الحسن، وجميع النسخ خالية من ذكر المرتضى، فلو كان هو المؤلف فما الداعي لعدم ذكر اسمه، وذكر الرضى بدلاً منه؟

و قد اجمع شراح نهج البلاغة، والذين يفوق عددهم الأربعين شارحاً بالعربية والفارسية على أن الكتاب من تأليف الشريف الرضى⁽⁴⁾

ونعود الآن إلى الشكوك التي أثّرت حوله من حيث المادة التي حواها أهي من كلام أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب أم هي لغيره؟ وأول من يلقانا بهذا التشكيك هو ابن خلكان حيث يقول : " وقد قيل إنه ليس من كلام علي، وإنما الذي جمعه ونسبه إليه هو الذي وضعه "⁽⁵⁾ وعلى كل هذا كلام فيه نظر، ثم تبعه الذهبي المتوفي سنة 748 وقال : " ومن طالع كتابه (يعني نهج البلاغة) جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه "⁽⁶⁾

(1) المصدر نفسه - ص: 17.

(2) ينظر: الشريف الرضى - المجازات النبوية - ص: 22 نقلاً عن نعت البلاغة صبري إبراهيم السيد - ص: 17.

(3) المرجع نفسه - ص: 17.

(4) نهج البلاغة تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 18.

(5) ابن خلكان وفيات الأعيان ج 3 - ص: 416.

(6) الذهبي ميزان الاعتدال ج 3 - ص: 124.

والملاحظ أن من ينكر نسبة نهج البلاغة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قد ركزوا على نقطتين أساسيتين، فالنقطة الأولى هي ما ورد في بعض فصول نهج البلاغة من الحط من بعض الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان، ومعاوية وعمر بن العاص وغيرهم رضي الله عنهم، وأما النقطة الثانية فتعود إلى صياغة نصوص البلاغة ذاتها، وما لحقها من زخرف لفظي كالسجع مما لم يكن في عصر الإمام علي، حسب رأي هؤلاء المعترضين فعن النقطة الأولى يتحدث صبري إبراهيم السيد عند تحقيق وتوثيق نصوص نهج البلاغة أن من أنكر نسبة نهج البلاغة إلى علي رضي الله عنه من القدماء والمحدثين مستنديين إلى ما فيه من التعريض بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يصح أن يصدر عن الإمام علي من مثل سباب معاوية وطلحة والزبير وعمر بن العاص، حيث يورد قول ابن حجر العسقلاني "ففيه السب الصراح والحط من السيدين أبي بكر وعمر رضي الله عنهم"⁽¹⁾ ثم يذكر - صبري إبراهيم السيد - أن في نهج البلاغة موقفين مختلفين: موقفا يتجلى فيه النبل وكرم الخلق، وموقفا فيه كثير من العصبية الشديدة، ويستشهد عن الموقف الأول - موقف النبل - بقوله لأصحابه لما سمعهم يسبون ويشتمون أهل الشام: "إني أكره لكم أن تكونوا سبا بين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقتلتهم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله ويرعوي عن الغي والعدوان من لهج به"⁽²⁾ ثم يورد قولاً آخر من النهج فيه حدة وشدة يخاطب به الأشعث بن قيس "ما يدريك ما علي مما لي؟ عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين حائك بن حائك منافق ابن كافر والله قد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى"⁽³⁾ وقال لرجل يوماً "يا ابن اللعين الأبتري، والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع..."⁽⁴⁾ ثم يورد صبري إبراهيم السيد من أقوال القدماء المشككة أو التي تنفي نسبة نهج البلاغة للإمام علي ما قالوه عن الخطبة

(1) ابن حجر العسقلاني - لسان الميزان ج 4 ص: 223.

(2) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 20-21.

(3) المصدر نفسه - ص: 21.

(4) المصدر نفسه - ص: 21.

المعروفة بالشقشقية التي تتناول الخلفاء السابقين له بما لا يليق به وبهم، وتجاوفي ما كان يعرف عنه من توقيير لهم؛ وهي مملوءة بحقد دفين لا يمكن أن يصدر عن صدر شرحه الله للإيمان، وملاءة بالحكمة والبيان، ويكفي في تفنيد ذلك رثاؤه - علي - لأبي بكر وهو باك مسترجع. (1)

ولقد كان علي إلى جانب أبي بكر الصديق في حروب الردة وكان من أشد المخلصين له؛ بحيث وكل إليه أبو بكر رضي الله عنه فرقة الأنقاب مع الزبير وابن مسعود وهي الفرقة التي كانت مهمتها حراسة الطرق المفتوحة الموصلة إلى العاصمة ضد غارات المرتدين، كما كان علي إلى جانب الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وصاهره عمر فتزوج ابنته أم كلثوم بنت فاطمة الزهراء، وكان لعثمان الخليفة الثالث رضي الله عنه نعم المناصر والمدافع، في الوقت الذي باعده البعيد والقريب، وثار عليه أمصار الدولة، ولامته عائشة أم المؤمنين ولكن عليا لم يخذله ولم يعن عليه، بل صدقه إذ كذبه الناس، ودافع عنه إذ تركه معاوية نفسه (2)، ثم يورد سببا لهذا الوضع، إذ يرى أن غلاة الشيعة وحبهم الزائد له أعمى بصيرتهم عن حق السلف الصالح، فقالوا فيهم ما لا يقبله العقل، ولا يؤيده تاريخ واعتقدوا أن مكانة الإمام علي لا ترتفع إلا بالخط من قيم هؤلاء خطأ لا يقبله منصف، ولا يرضى به على نفسه (3) ويختتم هذه النقطة بالإشارة إلى أن الرضى استهواه أن يجمع آثار جده فجمع كل ما قاله، وما عزاه إليه الرواة، دون أن يعنى بتمييز الصحيح من الزائف، وإن كنا نكبر الرضى أن يقوم على هذا العمل الشنيع، فيفتري على جده الأكاذيب مع ماله في نفسه من المكانة السنية فيأتي بالعقوق في صورة البر. (4)

وأما النقطة الثانية التي من أجلها شكك المشككون في نسبة الكتاب للأمير المؤمنين علي بن أبي طالب؛ ما يشيع في الكتاب من السجع والتتميق وآثار الصنعة مما لم يعهده عصره ولا عرفه، وإنما ذلك شيء طرأ على العربية بعد العصر الجاهلي

(1) ينظر: علي الجندي - صور البديع ج 1 ص 69 نقلا عن نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مرجع سابق - ص: 21.

(2) ينظر: عبد الحميد بخيت عصر الخلفاء الراشدين - ص: 49-50 نقلا عن المصدر نفسه 22.

(3) ينظر: نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 22.

(4) ينظر: علي الجندي صور البديع ج 1/69 نقلا عن نهج البلاغة صبري إبراهيم السيد - مرجع سابق - ص: 23.

وصدر الإسلام، وافتتن به أدباء العصر العباسي، وقد جاء الشريف الرضي بعد ذلك على ما ألفوه، فصنف الكتاب على نهجهم وطريقتهم⁽¹⁾ وكان الشريف الرضي وجد مادة صاغ منها كتابه، وهي مادة بنيت على السجع، وفي ذلك ما يدل على كذب نسبتها إلى الإمام علي، إذ ليس من الطبيعي أن يسجع علي في خطابه بينما ينهى الرسول الكريم عن السجع، ويتحاماها أبو بكر وعمر وعثمان في خطابهم والحق أن الخلفاء لم يسجعوا ولكنهم اعتمدوا على فنون أخرى من الصقل والتجويد⁽²⁾ كما أن في هذا الكتاب من دقة الوصف، وإحكام الفكرة وبلوغ النهاية في التدقيق كما نراه في وصف الخفاش والطاووس والنملة والجرادة، وكل ذلك لم يلتفت إليه علماء الصدر الأول ولا أدباؤه، وشعراؤه، وإنما عرفه العرب بعد تعريب العرب كتب اليونان والفرس الأدبية والحكمية⁽³⁾

وإذا انتقلنا إلى الجانب الآخر؛ إلى من يقول بصحة نسبة كل ما ورد في نهج البلاغة جملة وتفصيلا إلى الإمام علي فإننا نقف عند الهادي كاشف الغطاء الذي أجاب عن كل هذه الشكوك بطريقته الخاصة يؤازره في ذلك مذهبه، وما يؤمن به من أحقية الإمام علي وأولويته بالخلافة لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أوصى له بها وسنقف عنده ونورد رده على النقطتين السالفتين، نسبة النهج إلى الإمام علي، وقضية الصياغة والزخرف اللفظي.

فأما عن النقطة الأولى فيقول في كتابه (مدارك نهج البلاغة ودفع الشبهات عنه) فبعد أن تعرض إلى من ينكر نسبة نهج البلاغة إلى الإمام علي، أكد على أن " من أنكر نسبة هذا الكتاب إليه حسدا وعنادا، فهو كمن أنكر أكبر معجزة لهذا الدين، وجدد أعظم آية من آيات رب العالمين، وما ذاك إلا لعمى في قلبه وسوء في رأيه، وقلة معرفة بشأن الإمام وعدم إحاطته بذاته القدسية"⁽⁴⁾ وقد بنى هذا الموقف على أساس أن الإمام علي رضي الله عنه سليل بيت النبوة لم يتخرج إلا من معهد الرسالة،

(1) ينظر: نهج البلاغة - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد المقدمة - ص: (د).

(2) ينظر: شوقي ضيف الفن ومذاهبه في النثر العباسي - ص: 22.

(3) ينظر: نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 23.

(4) ينظر: الهادي كاشف الغطاء - مدارك نهج البلاغة ودفع الشبهات عنه - دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ط 3 1983 - ص: 190.

ولم يترب إلا في حجرها، ولم يرتضع إلا من صفاء درها، فهو يرد ذلك البحر المستمد من العلوم الإلهية والمعارف الربانية، ويأخذ من ذلك البحر الزاخر بالحكم والآداب الحقيقية، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أستاذ الفرد، ومدرسه الوحيد، وهو مربيه ومؤدبه ومتفقه ومهذب⁽¹⁾ ومعنى هذا أن الإمام علي لاقى عناية خاصة قد خصته به الأقدار وهيئاته لأن يكون على ما كان من شجاعة وكرم وفصاحة وبلاغة مما لم يقدر لغيره بالقدر نفسه، لأمر أراده الله، فخصه بأشياء كثيرة تفوق فيها عن أقرانه وأصحابه، قد تكون من العلوم الدنيوية.

ثم يورد موقف الشيعة، وأهل السنة من كتاب نهج البلاغة؛ فيقرر أن كل الشيعة على اختلاف فرقهم وعلمائهم، متفقون متسالمون، على أن ما في نهج البلاغة هو من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) اعتمادا على رواية الشريف الرضى ودرايته ووثاقته، والجميع على اختلاف القرون والعصور، لم يرتابوا في أمره ولا اعتراهم شك في شأنه، ولا أن فيه وضعا أوبه تدليس، حتى أصبح الأمر عندهم من البديهيات وأن من ينكر نسبته إلى الإمام علي كمن ينكر الضروريات، ثم يثني بموقف علماء السنة فيرى أن عامة علماء أهل السنة والجماعة ومؤرخيهم - إن لم يكن أكثرهم - يوافقون على صحة تلك النسبة، ولا يبدون أدنى خلاف في ذلك، والمخالف من متقدميهم في نسبة بعضه إليه قليل نادر، ثم يشير إلى أن التشكيك والخلاف جاء من المتأخرين منهم، وهذه الفئة تسعى لنقض الحقائق الراهنة، فأخذوا يتشبهون بنفي ذلك بكل وسيلة ويتوصلون إليه بكل ذريعة.

ثم يردف قائلا إن اعتقادنا في نهج البلاغة أن جميع ما ورد فيه من الخطب والرسائل والوصايا والحكم والآداب حاله كحال ما يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أهل بيته في جوامع الأخبار الصحيحة، وفي الكتب الدينية المعتمدة، وإن منها ما هو قطعي الصدور ومنه ما يدخله ما يدخل أقسام الأحاديث المعروفة⁽²⁾. ومعنى

(1) المرجع نفسه - ص: 190-191.

(2) ينظر: الهادي كاشف الغطاء - مدارك نهج البلاغة ودفع الشبهات عنه - ص: 191.

هذا أن في الكتاب ما هو قطعي بمعنى أنه صحيح، ومنه ما دخله ما دخل أقسام الحديث من الصحيح والحسن الصحيح، والحسن والضعيف والموضوع هذا فهما.

ولكنه يعود فيقول إن مؤلف النهج (الشريف الرضى) فوق الشبهات واعتقادنا فيه أنه منزّه عن كل ما يشين الرواة ويقدح في عدالتهم، وهو لم ينشئ شيئاً من نفسه وأدخله في النهج، كما أنه لم يدخل فيه شيئاً يعلم أنه لغير أمير المؤمنين، فهو لم يكن كحاطب ليل، إذ لا يروي شيئاً إلا بعد التثبت، ولا ينقله إلا عمن يعتمد عليه من الرواة وأهل السير والتاريخ، فجميع ما في النهج هو من كلام مولانا أمير المؤمنين على رواية الثقة العدل، ولا دخل فيه ولا وضع⁽¹⁾، ونرى أن في هذا الكلام ما ينقض ويتعارض مع الرأي السالف، فالشريف الرضى رحمه الله رجل ثقة وهو من آل البيت ولا يمكن أن يكذب أو أن ينسب لأمر المؤمنين ما ليس له، ولكنه استقى هذا الكتاب من كتب كثيرة ومن أناس كثيرين، وإذا طبقنا على الكتاب ما يطبق على رواية الحديث فإننا سنجد فيه الصحيح، والحسن، والضعيف والموضوع، وليس في هذا ما يقدح في الشريف الرضى، فهو قد وجد كلاماً منسوباً إلى جده فنقله ومهما كان تمحيصه له، فلا بد أن يفوت عليه بعض ما وضع ونسب إلى الإمام علي، وهذا ما يقره المنطق العقلي، فإذا كان الناس قد كذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضعوا أحاديث على لسانه ونسبوا إليه زوراً وبهتاناً، أفلا يمكن أن يحدث هذا مع الإمام علي فينسب إليه من الكلام ما هو لغيره على لسان محبيه أو مبغضيه، إن المنطق لا يجافي في اعتقادي ما أذهب إليه في هذه النقطة.

وأما عن النقطة الثانية الموجبة للشك في نهج البلاغة، والمتمثلة في الصنعة اللفظية كالسجع وتوليد الألفاظ فيرد عليها بما مؤداه أما وفرة الأسجاع فهي ممنوعة وعلى فرض ذلك، فهي غير موجبة لمباينة أسلوب الصدر الأول ولا هي بقادحة في فصاحة الكلام إذا جاء عفواً من غير تكلف، ولا تعسف، وأما عدم قدحها في الفصاحة والبلاغة فهو أمر لا شك فيه، وقد عد السجع والازدواج من محسنات الكلام، وقد ورد السجع في كلام العرب، وفي الخطب قبل الإسلام، وقد ورد كثيراً في القرآن الكريم، وإن منع

(1) المرجع نفسه - ص: 191.

بعضهم من تسميته سجعا احتراما لكلام الله وورد في كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وكلام صحابته ما لا يخفى على الخبير. (1)

إن الوقوف عند ظاهرة السجع للتشكيك في نسبة الكتاب إلى الإمام علي حجة واهية لأن المنهي عنه من السجع هو المتكلف الذي يكون على حساب المعنى، وقد ورد في القرآن الكريم بوفرة وسماء علماء البلاغة بالفواصل تنزيها لكلام الله أن يكون شبيها بكلام المخلوق، ويمكن الرجوع مثلا إلى سورة طه، وسورة الشمس، وسورة الضحى وغيرها كما نجد السجع غير المردول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم مما ورد في صحيح البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب : " لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم" (2) والحديث مسجوع كما نرى، والسجع هنا غير متكلف لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يلتجئ إلى الله في هذا الحديث بصفاته المثلى وأسمائه الحسنى؛ ومن صفاته انه عظيم حليم، ورب العرش الكريم ورب العرش العظيم، ومنه أيضا قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه ابن السني عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أصابه هم أو حزن فليدع بهذه الكلمات، يقول: " اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك في قبضتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن نور صدري، وربيع قلبي، وجلاء حزني، وذهاب همي" (3)

ومن ذلك أيضا ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ الحسن والحسين " أعيذكما بكلمات الله

(1) ينظر: الهادي كاشف الغطاء - مدارك نهج البلاغة ودفع الشبهات عنه - ص: 206.

(2) النووي - الأذكار النبوية - دار صبح بيروت لبنان ط1 2006 - ص131.

(3) النووي - الأذكار النبوية - دار صبح بيروت لبنان ط1، 2006 - ص: 133.

التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة، ويقول : إن أباكما كان يعوذ بهما إسماعيل وإسحاق صلى الله عليهم أجمعين وسلم" (1)

وهكذا نرى أن السجع قد ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ملحقا بالمعنى، أي ورد عفو خاطر ووافق اللفظ المعنى في كل جملة مسجوعة دون إرادته والقصد إليه، بركوب طرق التعسف، وإذن فالمذموم من السجع هو ما كان صاحبه يقدم اللفظ على المعنى ويتكلفه حتى يقع له ما يريد من الأسجاع على حساب المعاني التي هي مناط المعرفة والقصد منها.

وقد استكثر بعض الناس ما ورد من كلام لأمير المؤمنين في نهج البلاغة، مما لم يرد لمثله من الخلفاء السابقين، أبي بكر، وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين (2) وهذا كلام مجاف للصواب فيما اعتقد؛ فالناس ليسوا سواء في موهبة الكلام؛ كالخطابة والكتابة، وغيرها فالموهبة أساس كل شيء، فلا عجب أن يتفرد الإمام علي على أقرانه في فن القول وعلى معاصريه وغير معاصريه، وإذا كان ما وصلنا من كلامه في نهج البلاغة الذي جعله الشريف الرضي لا يتجاوز 239 خطبة فقط (3) فإن المسعودي كما أشرنا سابقا قد ذكر أن من كلامه المتداول بين الناس قولاً وعملاً يزيد عن أربعمئة ونيف وثمانين خطبة أنشأها على البديهة، ولكن هذا كلام عام، ولا بد أن نقدم من الأدلة ما يكفي لإثبات أن ما وصلنا - فيما أعتقد - أقل بكثير مما قاله حقاً، لأن فترته التي قضاها في الخلافة، وهي ما يقارب الخمس سنوات كانت كلها سنوات للفتنة بين المسلمين، فمن خروج طلحة والزبير عليه وما استتبعه من وقائع الجمل، ثم مواقع صفين مع معاوية، ثم حروبه مع الخوارج، ثم تقاعس جيشه في الخروج إلى قتال أهل الشام بعد قصة التحكيم كل هذا وغيره كان يستنطق الحجر فكيف لا يستنطق الإمام علي، وهو صاحب الشأن الأول في هذه الوقائع، إذ كان أميراً للمؤمنين، وعلى عاتقه كانت تقع المسؤولية في كل ما كان يجري من مناوئيه، وقد ألجأ ذلك إلى كثرة خطبه ورسائله كثرة لا تنافي الواقع المعيشي، بل كانت متساوقة معه، فهو يستنفر الناس في

(1) المرجع نفسه- ص: 133.

(2) ينظر: نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق- ص: 67.

(3) الهادي كاشف الغطاء- مدارك نهج البلاغة- ص: 142.

المدينة وفي الكوفة لمنع طلحة والزبير من إثارة القلاقل في البصرة، وفي البصرة خاطب طلحة والزبير وحاورهما، كما حاور أهل البصرة قبل وقعه الجمل وبعدها، وحاور قواده وخاطب جيشه قبل وأثناء التوجه إلى الشام كما حرص على القتال أثناء وقائع صفين و خاطب وفود معاوية قبل صفين وبعد رفع المصاحف، كما جادل أصحابه الذين حملوه على قبول التحكيم عنوة، على الرغم من رفضه وما صاحب ذلك من أقوال كثيرة، ثم رجع إلى الكوفة وجيشه في انقسام، وخرج عليه الخوارج فحاورهم فرجعوا إلى معسكره، ثم خرجوا مرة أخرى بعد أن تم التحكيم؛ فخرج إليهم وخاطبهم وحاورهم، فرجع من رجع وبقي من بقي فقاتلهم بعد أن أعذر إليهم، ثم خرج عليه آخرون فخاطبهم وجادلهم، ثم استنفر جيشه للعودة إلى حرب أهل الشام فعصوه وكرر خطابهم حتى ملهم وملوه، ثم شن أهل الشام الغارات على أطراف العراق، وافتتحوا مصر وقتلوا واليه عليها محمد بن أبي بكر و قد حث قومه على رد الغارات على أطراف العراق، كما دعاهم إلى نصره محمد بن أبي بكر قبل أن يقتل كل هذه الحوادث المؤلمة ما كانت لتمر مرور الكرام على رجل مثل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صاحب النفس الحساسة الشاعر بالمسؤولية الكبرى التي يتحملها أمام الله وأمام الناس فانطقه الحق بالحق في كل المواطن، وكان يمكن أن يخطب مرة أو مرتين في اليوم الواحد، نتيجة هذه الأمور الفادحة التي لا تتحملها إلا النفوس العظيمة- أضف إلى ذلك أنه كان يمر بالأسواق- كما ذكرنا فيما سلف- فيذكر التجار في مختلف مواقعهم؛ إذ كان يمر بأصحاب التمر فيعظهم، ويمر بالقصارين، والبزازين، وبائعي السمك، وبائعي المواشي، وغيرهم من التجار، ويخاطبهم ويوجههم إلى ما فيه خيرهم، ويؤلبهم على سوء أفعالهم ويحذرهم من الغش والاحتيال، لما في ذلك من الضرر بالأمة وإغضاب الرب سبحانه وتعالى، وإلى جانب هذا كانت خطبه في كل جمعة، وفي الأعياد، وفي ما كان يرد عليه من أسئلة من الناس فيجيب بأساليب تخلع الأبواب، وإذن فما وصلنا من كلامه رضي الله عنه نزر قليل في ما أذهب إذا قورن بهذه الأحداث الجسام التي لم تحدث إلا في خلافته وبين المسلمين أنفسهم.

أما قدرته على صياغة الكلام فهي موهبة من الله تعالى، وليس كل من يحس ويشعر بالمسؤولية يستطيع أن يقول، و الواقع يصدق ذلك، والعبارة قلة في كل زمان، وقلة في كل الفنون، وفي كل العلوم فعندنا علي واحد في فصاحته وبلاغته وشجاعته، ولنا حجاج واحد في قسوته ودمويته، ولنا خالد واحد في قيادته، ولنا اينشتاين واحد في زمانه، ولنا نوستراداموس واحد في نبوءاته، وهكذا في كل مجالات الحياة وفي تاريخ البشرية، عبر أزماتها المختلفة، فلا يمكن أن نجد شخصين متماثلين في كل شيء ولو جمعت بينهما العبقريّة، أو الدهاء أو السياسة وهذه من البديهيات التي لا تحتاج إلى برهان.

وإذا أتينا إلى نهج البلاغة فإننا نجد المعجبين به قسم، يروقه من الكتاب ما يحمل من أفكار ومعان، وقسم يروقه سبكه وصياغته، فأما القسم الأول فيسهب في شرح آراء الإمام علي في الدين وسياسة الرعية والإرشاد وغيرها، وهي في الحقيقة موضوعات تتحدث عن نفسها ولا تحتاج إلى من يترجمها لغيره، ومن الذين حذوا هذا الحذو على سبيل المثال لا الحصر : مرتضى المطهري في كتابه الموسوم بـ (في رحاب علي) والشيخ علي عزيز الإبراهيم في كتابه المعنون بـ الإمام علي في ملاحم نهج البلاغة)، فالكتاب الأول أخذ موضوعات كتابه من نصوص نهج البلاغة من مثل باب مباحث التوحيد وما وراء الطبيعة، نظام العبادات، نظام الحكم والإرادة، أهل البيت.... إلخ وهي أمور سهلة المأخذ من نهج البلاغة بلا واسطة، وأما الكاتب الثاني فلا يختلف عن الأول؛ بحيث كان يعتمد إلى خطبة معينة تتناول موضوعا معيناً أو شخصا معيناً، فيضع لذلك عنوانا لمقاله، كان يقول : قال في عمر بن العاص، ويورد ما وصف به علي عمرو بن العاص من صفات، أو يقول : قال في الأشعث بن قيس، ويورد ما قاله الإمام في الأشعث بن قيس، وهكذا وأغلب ما وقفت عليها من دراسات كان هذا منهجها، ولكنني لم أجد من درس أساليب الإمام علي حين تعبيره وأين مكن تأثيره، أو ما الوسائل اللغوية والبلاغية التي توسلها لإبلاغ أفكاره، أو محاولة إقناع خصومه، أو إحداث تغيير في سلوك سامعيه، وأكثر ما نجده في هذا الباب هو عبارة عن وصف ممل، يوصف به كل كلام جيد، من مثل قول أحدهم " وهذه البلاغة السحرية والروعة

الدفاقة في جمال الأسلوب وقوة السبك - وغزارة المادة" ⁽¹⁾ وهو كلام يمكن أن يطلق على أي نص لأي كاتب، لأننا نريد أين مكن هذا السحر، وما الذي جعل هذا الكلام على جانب كبير من السحر، إن هذا الكلام يذكرني، بما كنا ندرسه في الإعدادي والثانوي، فما من نص نتناوله بالدراسة إلا قيل فيه؛ الأفكار واضحة متسلسلة، والعاطفة صادقة، والكلمات سهلة واضحة، فإذا جئنا إلى نص آخر، أفرغنا عليه الصفات نفسها. ونجد كاتباً آخر ينحو النحو نفسه، فلا يستطيع أن يبين مكن بلاغة نصوص نهج البلاغة فيلجأ إلى الوصف المعهود، فيقول ضمن ما يقول " انظر إلى الفصاحة كيف تعطي هذا الرجل قيادها، وتملكه زمامها، وأعجب لهذه الألفاظ المنصوبة يتلو بعضها بعضاً، كيف تواتيه وتطويعه سلسلة سهلة تتدفق من غير تعسف ولا تكلف..." ⁽²⁾

ومن كلام الشريف الرضي قوله في تقرّض نهج البلاغة حيث يقول " كان أمير المؤمنين عليه السلام مشرع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها، ومنه ظهر مكنونها، وعنه أخذت قوانينها، وعلى أمثلته هذا كل قائل خطيب، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ، ومع ذلك فقد سبق وقصروا، وقد تقدم وتأخروا، لأن كلامه عليه السلام عليه مسحة من العلم الإلهي وفيه عبقة من الكلام النبوي" ⁽³⁾ نقول كلامه هو كذلك ولكن كيف اكتسب هذه الخاصية أو هذه الخصائص، وإذن فعموم كلام الناس جاء في وصف كلامه لا في تحليله، وهو الشيء الذي نبحت عنه حتى نعرف أسباب هذا الإطراء لكلامه بغض النظر عما يحمله من معاني سامية وأفكار إسلامية جامعة، إن ما نههدف إليه هو الوقوف على الأدوات اللغوية والبلاغية في إيجاد مثل هذه النصوص التي انبهر بها الناس في جانبها المعنوي والبنائي.

وحتى بالنسبة للمعاني والأفكار وقف الناس حيالها موقف الناقلين الشارحين، دون التعمق في ذلك وتوضيح العلاقة الجدلية بين الأحداث وبين مواقف الإمام علي

⁽¹⁾ علي عزيز الابراهيم - الإمام علي في ملاحم نهج البلاغة، الدار الإسلامية لبنان ط1 1996، مقدمة علي اسبر ص: 21.

⁽²⁾ ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة - تحقيق محمد أبي الفضل - عيسى الحلبي ط1 - ج16 - ص: 147.

⁽³⁾ المصدر نفسه - ج1 - ص: 45.

وانعكاس ذلك في كلامه ولذلك وجدنا شحا جما في هذه الجوانب مما قد يؤثر سلبا في طريقة تناولنا للموضوع، لأن الإنسان الفرد لا يستطيع بمفرده ودون أن يتكئ على تجارب سابقة تكون له عوناً في استكناه عالم الإمام علي؛ الوجداني في نصوصه ولكن سنحاول قدر ما يسمح به الفكر أن نلج هذا الموضوع - موضوع الاغتراب، عند الإمام علي بما نزعمه من أفكار وأدوات وإن قلت.

وقبل ذلك يجد ربي أن أشير إلى أنني سأعتمد على نهج البلاغة الذي حققه ووثقه صبري إبراهيم السيد، والذي قدم له الأستاذ الكبير عبد السلام هارون رحمه الله، واعتمادي على هذا الكتاب يرجع إلى وسطيته؛ فهو لم ينف كل ما ورد في نهج البلاغة عن صاحبه الإمام علي، كما انه لم يسلم بكل ما جاء فيه منسوباً إليه وقد اعتمد في توثيق الكتب والرسائل والوصايا والحكم على الكتب التي وجدت قبل وجود الشريف الرضى، جامع نهج البلاغة، كما أشار إلى إضافة بعض الفقرات إلى بعض الخطب مما ليس من كلام علي كما أشار إلى بعض الأحاديث النبوية، والتي نسبت إلى الإمام علي إما سهواً وإما خطأ، وهو كتاب جدير بالاعتماد عليه، ولكن صاحبه لم يكن دوماً وفياً لمنهجه مع الأسف، إذ يورد في بعض الأحيان نصوصاً للإمام علي فيها تبكيت لبعض عماله وولاته، فلا يذكر المحقق ذلك الشخص باسمه على عادته في باقي الخطب والرسائل، وإنما يقول مثلاً: وهذه رسالة بعث بها إلى بعض عماله، ولا يذكر هذا العامل أو الوالي مما يضطرنا إلى الرجوع إلى المصدر القديم الذي أخذت منه الرسالة أو الخطبة حتى نعرف صاحبها وعلى الرغم من ذلك فهو عندي الأفضل من بين كثير من شراح ومحققي كتاب نهج البلاغة.

الفصل الثاني

مفهوم الاغتراب

المبحث الأول: عند الغربيين

المبحث الثاني: عند العرب قبل الإسلام

المبحث الثالث: عند المسلمين

المبحث الأول: مفهوم الاغتراب عند الغربيين

إن ظاهرة الاغتراب ظاهرة موهلة في القدم! قدم الإنسان في الوجود، بيد أن المصطلح المعبر بدقة عن هذه الظاهرة الإنسانية الصميمة جاء متأخراً كثيراً.

ويرى أغلب الدارسين لمفهوم ظاهرة الاغتراب أن الفيلسوف الألماني هيجل Hegel (1770-1831) هو الذي أشار إليها وتعرض لدراستها دراسة معمقة، مفصلاً القول فيها حيث طرح الاصطلاح وأكد عليه، وميز بين مستويات الاغتراب وأنواعه وأسبابه وعلاجه، ثم توالى الدراسات بعد ذلك عن هذه الظاهرة عند الفلاسفة وعلماء الاجتماع وعلماء النفس، وتشعبت عندها النظرة إلى هذه الظاهرة ما أسبابها؟ وما مظاهرها، وهل هي نعمة أم نقمة؟ وما علاجها، وكيف يتم درؤها؟ إلى غير ذلك من جوانب الظاهرة التي سنقف عند أهم عناصرها من خلال هذا البحث إن شاء الله وإذا كان هيجل أبو الاغتراب تنظيراً وتأصيلاً وقصدياً، فإن الناس من بعده اختلفوا وانتقدوه وعارضوه في كثير من الأفكار، من أمثال الماركسيين، والوجوديين والنفسانيين⁽¹⁾

ولئن كان هيجل هو أبو الاغتراب كما أشير سابقاً، فإن جان جاك روسو الفرنسي كان أول من استخدم تعبير الاغتراب في ثقافة الغرب، فقد رأى في تولي بعض النواب تمثيل الشعب أكذوبة كبيرة لأنه بهذه الطريقة لا يمكن للشعب أن يمارس سيادته بنفسه، ويبدأ بالانعزال داخل وطنه ويشعر بالغربة⁽²⁾، ولكن قبل أن نمضي في الحديث عن الاغتراب ومصادره وأنواعه، واختلاف العلماء والفلاسفة في تعريفه وتفسيره، يجدر بنا أن نحدد مفهومه.

(1) ينظر: عبد اللطيف محمد خليفة- الاغتراب وأنواعه- دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة د.ط- 2005- ص: 5-7.

(2) ينظر: د. نبيل راغب موسوعة الفكر الأدبي- دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة- د.ط- 2002- ص: 56.

مفهوم الاغتراب

إن مصطلح الاغتراب في اللغة الفرنسية **ALIENATION** وفي اللغة الانجليزية **Aliénation** مشتق من الاسم اللاتيني **ALIENATIO** المشتق بدوره من الفعل **ALINARE** بمعنى تحويل ملكية شيء ما إلى شخص آخر، أو هو الانتزاع والإزالة، وهذا الفعل مشتق من فعل آخر هو **ALIENUS** بمعنى ينتمي إلى شخص آخر أو يتعلق به، وهذا الفعل الأخير مستمد من لفظ **ALIUS** بمعنى الآخر⁽¹⁾ وقديما قبل هيجل استخدم الاغتراب للدلالة على ثلاث معان:

1. فالاستخدام الأول (بمعنى نقل الملكية): وهذا الاستعمال لمصطلح

الاغتراب المتعلق بالملكية الذي يعبر عنه الفعل **ALIENARE** يعني نقل ملكية شيء ما إلى شخص آخر وهذا يعني جعل شيء ما منتميا إلى شخص آخر ومع ذلك فإنه ينطبق فقط إذا كان هذا النقل يتم بتصرف من قبل المالك، ويغدو مناسباً في الحالات التي يعترف فيها رسمياً بالحيازة الجديدة.⁽²⁾

2. الاستخدام الثاني (بمعنى الاضطراب العقلي): يعود أحد استخدامات

مصطلح الاغتراب - تقليدياً - في مجال الطب بمعنى الاضطراب العقلي فقط، فكلمة **ALIENATO** الانجليزية في العصر الوسيط تطلق على حالة فقدان الوعي وشلل أو قصور القوى العقلية أو الحواس لدى الإنسان، كما يبدو ذلك في حالات الصرع، أو فيما يقع نتيجة لصدمة قاسية، وكان يقال عن شخص ما أنه مغترب عن العقل والفهم، أو أنه اغترب، ونأى عن العقل⁽³⁾

(1) ينظر: ريتشارد شاخت - الاغتراب - ترجمة كامل يوسف حسين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت لبنان ط1 1980 - ص: 63.

(2) المرجع نفسه - ص: 63-64.

(3) المرجع نفسه - ص: 64.

3. الاستخدام الثالث (التقليدي): لمصطلح الاغتراب بمعنى الغربة أو فقدان

العلاقات الحميمة والودية بين البشر، لأن الفعل اللاتيني **ALIENARE** يفيد معنى التسبب في فتور علاقة ودية مع إنسان آخر، أو حدوث انفصال أو جعل شخص ما مكروها، ويستخدم المعجم الانجليزي في العصر الوسيط مصطلح الاغتراب بهذا المعنى أيضا، أي الاغتراب في العلاقات بين البشر، وأيضا استخدم في علم اللاهوت بهذا المعنى من مثل قولهم (الغربة عن الله) أو الاغتراب والمفارقة بين الله والإنسان والاضطراب بهذا المفهوم (الغربة بين البشر) هو أقرب المعاني الثلاثة إلى الاستخدامات المعاصرة لهذا المصطلح⁽¹⁾

إن الاستخدامات المعاصرة لمصطلح الاغتراب تكاد تتفق على أن الاغتراب هو التباعد أو التنافر، أو عدم الحميمة مع الآخر أو الانفصال عن شيء ما، وهذا الانفصال عادة ما يكون انفصالا عن الذات أو عن المجتمع، حيث يميز علماء النفس بين نوعين من الاغتراب، الاغتراب عن النفس أو عن الذات، والاضطراب عن المجتمع.

1. **فالاضطراب عن الذات:** يعني انفصال الفرد عن ذاته الحقيقية التي يحس بها، ويصطنع ذاتا أخرى زائفة، وذلك بفعل تأثير المجتمع وضغوطاته المتمثلة في الأعراف والتقاليد والنظم، وتتناقضات هذا المجتمع، وهذا يؤدي إلى طمس الذات الحقيقية، أي الذات كما يحس بها وكما يريد لها أن تكون⁽²⁾

2. **الاضطراب عن المجتمع:** وهو أن يرفض الفرد صراحة كل أو بعض أو جل قيم المجتمع وأعرافه وتقاليده، وقد يقوم بإبراز سلبياته وتناقضاته وينأى بنفسه عن إقامة صلات اجتماعية أو علاقات ودية مع الآخرين⁽³⁾

(1) ينظر: ريتشارد شاخنت - الاغتراب - مرجع سابق - ص: 65-67.

(2) ينظر: د. محمد عباس يوسف - الاغتراب والإبداع الفني - دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة

د. ط. 2004 - ص: 22.

(3) المرجع نفسه - ص: 22.

وتتفق معظم الدراسات المعاصرة حول الاغتراب على أنه ذو أبعاد متنوعة تتمثل في العجز، العزلة، اللامعيارية، فقدان المعنى أو المغزى، معتمدين في ذلك على تصنيفات ميلفين سيمان **M. Seeman** الشهيرة، وهي تصنيفات ذات أبعاد سيكوسوسيولوجية (نفسية، اجتماعية) ⁽¹⁾ وسنيسط القول في هذه الأبعاد بما يوضح معانيها ويجليها للقارئ

أ. **العجز أو فقدان السيطرة Powerlessness**: ويعتبر من أكثر المظاهر رواجاً في الدراسات التي تعنى بمعالجة هذه الظاهرة، ومجمل هذه الدراسات متأثرة بأراء ومناقشات كارل ماركس عن الاغتراب في المجتمعات الصناعية خاصة، ويشير هذا العنصر إلى إحساس الفرد بالعجز والفشل إزاء تحقيق ما يصبو إليه، وشعوره بالإحباط الناتج عن وجود فجوة كبيرة بين ما يتوقعه من نتائج، وما يتمناه حقيقة ⁽²⁾ وسنقف عند هذا المظهر في حينه خلال هذه الدراسة.

ب. **اللامعيارية، أو انعدام المعايير Normlessness** : ويرجع الفضل في دراسة هذا الجانب من الاغتراب إلى جهود العالم والباحث الفرنسي المشهور دوركايم **Durkheim** عن موضوع: الأنومي **Anomie**، والمراد أن تشتت المعايير أو انهيارها يسبب الاغتراب، حيث يفشل الأفراد بسبب الافتقار إلى المعايير التي تضبط سلوكهم، أو عدم استطاعتهم على الاندماج في القيم الجديدة للمجتمع، أو شعورهم بضياح المعايير التي كانت تحظى لديهم بالاحترام والتقدير ⁽³⁾ وتعتبر هذه النقطة من أهم ما يلقانا خلال هذا البحث.

(1) ينظر: نبيل اسكندر - الاغتراب وأزمة الإنسان المعاصر، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية مصر د. ط 1988 - ص: 205.

(2) ينظر: قيس النوري - الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً - مجلة عالم الفكر المجلد العاشر 1979 - ص: 15.

(3) المرجع نفسه - ص: 16-17.

ج. **العزلة الاجتماعية Social Isolation** : ويراد بها عزلة الإنسان عن المجتمع وثقافته العامة أو عدم الشعور بالانتماء إليه والتكيف معه، وبالتالي عدم مشاركته إياه في تبني الأهداف التي يصبو إليها ذلك المجتمع، وغالبا ما يأتي هذا المعنى في وصف حالة المفكر أو المثقف الذي لا يشعر بالاندماج النفسي والفكري مع ثقافة المجتمع السائد في عصره⁽¹⁾

د. **فقدان المعنى أو انعدام المغزى Meaninglessness** : ويراد بهذا المصطلح شعور الفرد بعدم وجود معنى أو قيمة لحياته، أو شعوره بعدم وجود مغزى حقيقي للأشياء التي تحدث أمامه أو للأعمال والممارسات التي يقوم بها، ولا يكون راضيا عنها، أو للقناعات التي تحدث أمامه من طرف مجتمعه والتي لا يرتضيها مثل التحيز العرقي أو اللغوي⁽²⁾ أي أن المعنى الحقيقي سواء لما له صلة بالفرد، أو ما يصدر عن المجتمع هو الذي يصوغ هذا المظهر، أو الجانب من الاغتراب.

هـ. **الاغتراب عن النفس: SELFALIENTION** : ويتضمن هذا العنصر شعور الفرد بالانفصال عن ذاته، وعدم الانتماء إليها، وتعد دراسات إيريك فروم I.Fromm من أكثر الدراسات التي تناولت هذا الجانب من الاغتراب حيث تناول موضوع اغتراب الذات من جانب تكوين الشخصية، فهو يرى أن الاغتراب هنا يمثل نمطا معيناً من التجربة يرى الإنسان فيها نفسه كما لو كانت غريبة عنه، وقد تبدو الظاهرة مدرجة ضمن التكوين النفسي للشخصية منذ الصغر، أو نتيجة مرور مجتمع المدينة بظروف الاستهلاك المادي غير العقلاني أو افتقاد المغزى لما يؤديه الفرد من سلوك⁽³⁾ وعلى الرغم من إنكار فروم لفكرة الطبيعة الجوهرية للإنسان، إلا أن إقراره

(1) ينظر: قيس النوري- الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً -مرجع سابق -ص: 17-18.

(2) المرجع نفسه- ص: 16-17.

(3) المرجع نفسه- ص: 18-19.

بالذات الأصلية والذات الزائفة قد جعله ينزلق إلى معالجة اغتراب الذات على انه أقرب إلى الانفصال عن طبيعة مثالية للإنسان⁽¹⁾

إن الذات الأصلية في مفهوم فروم هي الذات الفريدة غير القابلة للتكرار، ويتسم صاحبها بأنه شخص مفكر، قادر على الحب والإحساس، ومبدع لما يقوم به من أعمال، وعلى هذا الأساس فإن الذات الأصلية تتميز بعدة ميزات هي التفرد، العقل، والحب والإبداع⁽²⁾

وعلى هذا فإنه يمكن لنا القول بأن ما يميز الإنسان إنما هو العقل، فبالعقل يكون التفرد، والإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يستطيع أن يقول (أنا) ويكون مدركاً إدراكاً تاماً لنفسه بكونه وحدة مستقلة ومتميزة عن الآخرين، بينما الحيوان جزء من الطبيعة لا يستطيع أن يتجاوزها في حين نجد أن الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على الإحساس بمعنى الهوية لتمتعه بالعقل والخيال⁽³⁾

ويرى بعض الدارسين - بالرجوع إلى أنماط الاغتراب السالفة الذكر - أن الاغتراب ينبغي ألا يزيد عن ثلاثة أبعاد هي: تحديد المعنى، والهدف، والقيمة، فالمغترب يشعر بأن حياته فارغة من المعنى، وفقدان المعنى يستلزم فقدان الهدف، ومعنى ذلك أنه عاجز عن تحقيق قيمه الخاصة وفرضها على الواقع الذي يعيشه⁽⁴⁾

ويمكننا أن نبسط القول قليلاً في العنصر الثالث (التناقض القيمي) لما له من ظلال تغطي مساحات كثيرة من مظاهر الاغتراب، فإلى التناقض القيمي يعود (فقدان المعنى) و (فقدان الهدف) لأن فقدان القيمة أو تناقضها يلغي المعنى والهدف معاً.

إن القيمة تتجلى في كل ما هو جدير بعناية الفرد، وتقديره، والقيم ذات طابع روحي أخلاقي، تمثل في مجملها ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان، وهذه

(1) ينظر: رينشارد شاخ - الاغتراب - مرجع سابق - ص: 191.

(2) ينظر: د. حسن محمد حسن حماد - الاغتراب عند إيريك فروم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت - ط 1 1995 - ص: 68.

(3) المرجع نفسه - ص: 68.

(4) ينظر: د. محمد عباس - الاغتراب والإبداع الفني، مرجع سابق - ص: 26.

القيم عندما يحتضنها الفرد تمثل بالنسبة إليه تفضيلات تملئ عليه اختيارات معينة أو اتجاهها معيناً، من بين توجهات كثيرة ممكنة، هذا التوجه يراه الفرد جديراً بتوظيف طاقاته وقدراته المعرفية والوجدانية والسلوكية، والمغترب ليس مفتقراً إلى القيم، بل له كثير منها، ومن أجلها يعاني، لكنها تتناقض قيم المجتمع، كما أنه عاجز عن تحقيقها إما في سلوكه الشخصي أو في الواقع الذي يعيشه، ويرى كثير من الباحثين وعلى رأسهم روكتش **Rokeach** أن الاغتراب ينشأ لدى الفرد نتيجة التناقض أو التعارض بين بنائه القيمي الخاص، والبناء القيمي للمجتمع، وكلما زادت درجة التناقض بين ما يدركه الفرد على أنها قيم هامة بالنسبة له وما يدركه على أنها قيم الغير، أي قيم الآخرين زاد ذلك من إحساسه بالاغتراب **Alienation** (1)

وينسحب الفرد المغترب من المجتمع لأن قيمه الذاتية الأصلية بطابعها الروحي الأخلاقي الذي يكون في غير توافق مع قيم المجتمع وعاجز عن مواجهة ذلك المجتمع بقيمه المادية المتهافئة والردئية، إن التناقض القيمي هو شعور الفرد بأن قيمه الخاصة تتناقض قيم المجتمع وأنه محدود عن إجراء أي تغيير إيجابي في حياته، وفي محيطه الاجتماعي الذي يعيش فيه، وكذلك عجزه عن القيام بإنجازات حقيقية تعبر عما يعتقد من القيم الأساسية، إضافة إلى ما يلاحظه في الناس من افتقاد واضح لقيم الحق والخير والصدق والعدل واحترام الذات والكرامة (2)

ولكن قد يتساءل المرء عن قيم الفرد، وقيم المجتمع التي جاءت مبهمة في قول روكتش **Rokeach** ، وما هي مرجعية الفرد في ذلك؟ وما مرجعية المجتمع، أو مرجعيات المجتمع؟ أهى مرجعيات قانونية (عقد اجتماعي) أم هي قيم ماركسية شمولية؟ أم هي قيم وجودية أو قيم وجوديات لأن كل إنسان هو مشروع عند سارتر وأمثاله، ولا شك أن قيم كل فرد ستكون مختلفة إلى حد بعيد

(1) ينظر: د. محمد عباس - الاغتراب والإبداع الفني - مرجع سابق - ص: 27-28.

(2) المرجع نفسه - ص: 27-28.

عن قيم الآخرين أو الآخر، وقد تكون مرجعية الفرد دينية، والديانات كثيرة، ومعنى ذلك أن القيم ستكون هنا أكثر تناقضا وأدعى إلى الانفصال والاعتراب ثم هل هناك جوهر إنساني واحد؟ أم أن لكل فرد جوهره الفرد؟ ثم ما الجوهر أصلا؟ ألا يمكن للجوهر أن يكون عقلا جوهريا عند الإنسان (الفرد) أم أن هناك عقول كثيرة ومختلفة؟ ثم ما علاقة العقل المنشأ بالعقل المنشئ؟

إن هذه التساؤلات تفتح في اعتقادي قي ذهن الفرد تفكيراً عميقاً ليتسنى له فهم حقيقة ما جرى ويجري حول مفهوم الاعتراب وتجلياته وكيفية قهره وهي تطرح - التساؤلات - استحالة التوافق عند كل من تعرض للاعتراب بالدراسة والبحث، لأن المنطلقات الفكرية متباينة أصلاً عند كثير من هؤلاء الدارسين، وقد نجد هذا التباين عند أفراد المدرسة الواحدة ولتأكيد اختلافهم في كل ما طرح من أسئلة يجدر بنا أن نقف عند كل من له تأثير جلي في هذا الموضوع ولتأكيد مقولة كاوفمان " ليس الاعتراب مرضاً كما أنه ليس نعمة، إنه ملمح رئيسي للوجود الإنساني " (1)

ومن هنا يكون الانطلاق في محاولة تقريبية في إضفاء سمة الإنسانية على الاعتراب وأنواعه وتجلياته وكيفية قهره، ولكن ليس بطريقة أو نظرية أحادية، لأن من شأن ذلك أن يلغي آراء كثير من الدارسين .

- إن الاعتراب واجه الإنسان في القديم، وفي العصر الوسيط وفي المجتمع المعاصر، ولا شك أن المنطق العلمي الصحيح يقتضي أن يكون تعريف الاعتراب وتجلياته خاضعة لثقافة وحضارة كل عصر، وكل مرحلة تاريخية إضافة إلى الاتجاهات المختلفة في العصر الواحد من فيلسوف إلى آخر ومن عالم اجتماع إلى آخر ومن مدرسة نفسية إلى أخرى وهكذا فقد نجد ما يعتبر مثلاً في هذا العصر سبباً في الاعتراب هو أصل من أصول صحة المجتمع والفرد في عصر آخر وما يبدو استسلاماً وخنوعاً هنا، يعتبر ضرورياً لانسجام الفرد مع المجتمع هناك وهكذا دواليك ولكي نقف على هذه الإشارات والدلائل

(1) ينظر: ريتشارد شاخت - الاعتراب - مرجع سابق - ص: 6.

نعود من حيث بدأنا، ولكن هذه المرة من أجل تأصيل مفهومنا للاغتراب باعتباره ملمح إنساني لا يخلو منه زمن أو ثقافة.

بدأ الاغتراب كمفهوم فلسفي مع هيجل **Higel** وقد ظهر هذا المصطلح أول ما ظهر في كتابه (ظاهريات العقل الكلي) أو كما يسميه البعض — (فينومينولوجيا العقل) وهو كتاب تناول فيه الظواهر التي يمكن وصفها بأنها تجليات للعقل الكلي البشري المستمد من العقل الإلهي المطلق، تناولها بدراسة منهجية دقيقة، وقد حاول أن يرصد في هذا الكتاب تطور العقل الكلي البشري (الثقافة) منذ بداية تفاعل العقل مع الوجود مبرزا من خلال ذلك كل المنجزات البشرية الممتدة من الماضي إلى الحاضر، أي حتى العصر الذي عاش فيه (1770-1793) ولم يول اهتماما كبيرا بالسباق الزمني اهتمامه بالتطور المنطقي في نمو التاريخ الإنساني، مؤكدا على إيضاح المراحل المختلفة التي يتوجب على الفرد أن يمر بها حتى يصل إلى مستوى التطور العقلي الذي وصل إليه العقل الكلي في هذه المراحل التاريخية، واستنتج أن العالم الذي نعيش فيه ما هو إلا إبداع الإنسان، بمعنى أن البنية الاجتماعية التي تتمثل في المؤسسات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي استمرت عبر قرون من النشاط الإنساني ما هي إلا نتاج للروح الإنسانية، وهو شيء عقلي بصفة أساسية⁽¹⁾

طبيعة الإنسان:

يصر هيجل على أن طبيعة الإنسان لا تمثل فقط فرديته وخصوصيته فقط، بل ويؤكد أن المفهوم السليم لطبيعة الإنسان أن تتضمن العقل، لأن العقل يتضمن تجاوز الخصوصية بحيث تكون حركة الفكر على مستوى كلي أو عام، فالكلية- حسب رأيه- هي جوهر الإنسان، وهي مغزاه وتحققه، وللوعي أهميته هنا لأن به يتمكن الفرد من توافقه مع ما هو كلي وإذا أراد الفرد أن يدرك طبيعته الجوهرية، عليه أن يحقق توافقه مع البنية الاجتماعية التي تعتبر أمرا ضروريا

(1) ينظر: ريتشارد شاخت- الاغتراب- مرجع سابق- ص: 92-94.

بالنسبة للإنسان، لذلك نراه يقول إنه في النظام الأخلاقي، أي النظام الاجتماعي يحقق الأفراد بصفة فعلية جوهرهم الخاص أو كليتهم الداخلية.⁽¹⁾

أما عن مفهوم الاغتراب عند هيجل على وجه التحديد في (ظاهريات العقل الكلي): فهو ذو طبيعة مزدوجة، حيث يستخدم مصطلحين مختلفين:

الأول: وهو **Entfremdung** وهو الاغتراب بمعنى الانفصال أو الانقسام وعدم التعرف على الذات أو التناظر بين الفرد والبنية الاجتماعية، وهو معنى سلبي.

الثاني: وهو **Enteausstrung** وهو الاغتراب بمعنى التخرج والتموضع وهو اغتراب ضروري وإيجابي، ويمكن تسميته التخلي أو التسليم⁽²⁾

إن الاغتراب بالنسبة لهيجل هو وضع ينشأ نتيجة ما يطرأ من تغير في مفهوم شخص معين عن ذاته وهو لا يستدعي ذلك عمدا وإنما يجد نفسه فجأة وقد أحاط بساحته كأن يفقد حريته مثلا، أما التخلي - الوجه الآخر للاغتراب - فهو يتضمن تنازلا واعيا أو تسليما وذلك بقصد ضمان تحقيق غاية مرغوب فيها أي الوحدة مع البنية الاجتماعية⁽³⁾

أما على مستوى الآخر أي الإنسان الفرد فإن هيجل قد ميز بين أشكال عديدة للاغتراب من أهمها: الاغتراب عن المجتمع أو البنية الاجتماعية، والاغتراب عن الذات، والاغتراب عن الوجود.

أ. فقدان الوحدة مع البنية الاجتماعية: يرى هيجل أنه ليس من الضروري أن ينشأ عبر مسار حياة الفرد وعي بذاته، فهذا النوع من الذات الواعية بذاتها نسبية، وهي ظاهرة حديثة نسبيا، وهي ليست بالظاهرة الشاملة في يومنا هذا، وقد كان ولا يزال من المألوف للناس أن يفكروا في أنفسهم بدءا من الأدوار التي يقومون بها والجماعات التي يعيشون بين ظهرانيها، وهذا الأمر ليس متعمدا بل يقع تلقائيا، لأن علاقتهم بالبنية الاجتماعية هي علاقة وحدة كاملة،

(1) المرجع نفسه - ص: 75 - 76 .

(2) ينظر: ريتشارد شاخنت - الاغتراب - مرجع سابق - ص: 98

(3) المرجع نفسه - ص: 96-97.

ولكن قد يحدث أحيانا أن تقع صراعات في البنية الاجتماعية فتسفر عن إرجاع الإنسان إلى ذاته بعيدا عن الوحدة والكلية، فيكف عن التطابق مع البنية الاجتماعية، فيسعى إلى أن تتطابق ذاته مع شخصه وسماته هو، ويعد هيجل هذا تطورا مرغوبا فيه من حيث أنه يحدد ظهور بعد للفردية المتميزة والوجود المستقل، وهو سلوك ضروري إذا ما أريد به تحقيق الطبيعة الجوهرية للإنسان بصورة فردية، إن هذا الوضع هو حقيقة الذات التي لا يعثر عليها في العالم الأخلاقي⁽¹⁾ وعند انتفاء الوحدة الأصلية مع المجتمع، وحتى يتم تحقيق تلك الوحدة الجديدة تبقى علاقة الفرد بالمجتمع علاقة تنافر واغتراب، وقد يصل الفرد في اكتشافه لذاته وتميزه إلى اعتبار الآخرين الذين كان متحدا معهم فيما سلف شيئا آخر بصورة كاملة وينشأ بسبب ذلك عنده عدم تطابق معهم لقد أدرك أن البنية الاجتماعية شيئا غريبا عنه⁽²⁾

ب1. الاغتراب عن الذات (من خلال طبيعة الإنسان الجوهرية): إن الاغتراب عن الذات الجوهرية (الوحدة والكلية) عند هيجل نتيجة طبيعية عندما ينسلخ الفرد عن البنية الاجتماعية، وهذا يعني أن الاغتراب عن الذات هو المصاحب للاغتراب عن البنية الاجتماعية، إذ حينما يحس المرء أن البنية الاجتماعية بالنسبة إليه شيء آخر ينشأ في وعيه عدم تطابق بين ذاته والبنية وعندئذ يغرب نفسه عن طبيعته الجوهرية، ويصل إلى أقصى درجات التنافر مع ذاته، ذلك لأن طبيعة الإنسان الجوهرية هي الوحدة والكلية، والكلية لا تتحقق إلا مع البنية الاجتماعية ويرى هيجل أن توقف الفرد عن أن يكون في وحدة مع البنية الاجتماعية يفقده كليته، وعندما يحدث ذلك، لا يكون الفرد ممتلكا لجوهره وإنما يغرب ذاته عن طبيعته الجوهرية، بمعنى أنه يصبح مغتربا عن ذاته.

ب2. الاغتراب عن الذات (بمعنى التوضع): يرى هيجل هنا أن البنية الاجتماعية ليست من خلق العقل فحسب ولكنها تموضع لذلك العقل وينبني على

(1) المراد بالعالم الأخلاقي اتحاد لذات مع الكلية الاجتماعية شاخت: 98.

(2) ينظر: ريتشارد شاخت - الاغتراب - مرجع سابق - ص: 98-99.

هذا أنه حينما تغترب البنية عن الفرد فإنها تصبح عقلا متموضعا مغتربا عنه، ويذهب هيجل إلى أبعد من ذلك حينما يقرر أنه عندما تغترب البنية الاجتماعية عن الفرد، فإن ذات الفرد الحقيقية متموضعة هي التي تغترب عنه، ومعنى ذلك أن الذي يقف طرفا في هذه العلاقة مع البنية الاجتماعية (مغتربا) عن ذاته هو الفرد الذي لا يدرك أن ما يبدو وأنه يحدث خارجه كنشاط موجه ضده من فعله هو نفسه، وبمعنى آخر فإن الفرد لا ينجح في إدراك أن البنية الاجتماعية التي تبدو له غريبة ليست في الحقيقة كذلك ولكنها من خلقه وقد تموضعت. (1)

ج. الاغتراب عن الوجود المستقل: أن يغترب الإنسان عن الوجود المستقل معناه أن يفقد استقلالية الذات والاعتماد على الآخرين من أجل الحصول على الوسائل التي من خلالها يعتمد في تأكيد استقلاله وتنمية فرديته، ولذلك يرغب كثير من الناس في الحصول على الثروة والممتلكات باعتبارها السبيل إلى تحقيق الاستقلالية والحرية، ولكن عندما يحصل المرء على تلك الثروة ويتخذها هدفا له، فإنها تكون سببا في اغترابه وفقدانه الوجود المستقل، وهذا ما جعل كثير من الناس يرفضون مادية العصر الحديث. (2)

قهر الاغتراب عند هيجل:

يقرر هيجل أن قهر الاغتراب عن البنية الاجتماعية، وما يستتبعه من اغتراب عن الذات من خلال التخلي أو التسليم، أي التخلي أو التضحية بالفردية والخصوصية واستعادة الوحدة مع البنية الاجتماعية، وهذا يحدث تلقائيا في نظر هيجل لأن الفرد عندما يعي قيمة البنية الاجتماعية فإن التخلي عن الفردية يغدو عنده ضروريا لضمان الكلية والوحدة مع البنية الاجتماعية لأن الكلية شيء أساسي بالنسبة للإنسان، ولا يعدم الفرد دافعا قويا إلى تحقيق هذه الوحدة، إن هو تنازل عن الأنانية والخصوصية الفجة وتحقيق مثل هذه الوحدة لا يواجه صعوبات أو مشكلات خطيرة حينما يتعلق بالجانب الثقافي في البنية الاجتماعية

(1) المرجع نفسه - ص: 102-103.

(2) ينظر: ريتشارد شاخت - الاغتراب - مرجع سابق - ص: 117.

أو مؤسساتها، لأن تلك المؤسسات إذا فهمت على حقيقتها الصحيحة والصحية، فإنها لا تكون شيئاً غريباً بالنسبة للذات والعقل لأن العقل يتمثل في هذه المؤسسات كما يتمثل في جوهره، وعندما يدرك ذلك يغدو حراً، لأن الفهم الصحيح لمؤسسات المجتمع يلغي من نفسه ما يعتبر بالآخر. (1)

أما قهر الاغتراب الناتج عن (الوجود المستقل) فيمكن ببساطة في نظر هيجل وذلك بأن يستشعر الفرد خطأ ما كان يعتقد صحياً والذي جعله يعتمد على الآخرين، وذلك من خلال رفض هذه الطريقة في التفكير - أي الاهتمام بالثروة مما يلجئه إلى الآخرين - والاعتماد على طريقة أكثر استقلالية، كالتيكثير في أهداف وقيم أسمى وأنفع له وللبنية الاجتماعية العامة. (2)

والحقيقة أن هيجل بالغ فيما يبدو في إعلاء شأن البنية الاجتماعية ومؤسساتها، لأن هذه البنية قد تضطر الفرد إلى أن يتخذ موقفاً رافضاً لها، عندما تكون الأسباب الدافعة إلى ذلك قوية، حيث لا تترك له مجالاً لتحقيق الكلية معها، وذلك كأن تحابي هذه المؤسسات جماعات من المجتمع على حساب أخرى وعلى حساب أفراد آخرين مما يعزز توجهها صلباً يابى الاندماج مرة أخرى.

الاغتراب الديني عند فيورباخ Fieurbach

ويرى فيورباخ من خلال نقده للدين في كتابه (جواهر المسيحية) أن الدين هو نتاج إنساني محض، فالإنسان - في نظره - دفعه الخوف في مواجهة الأخطار الطبيعية التي تحدق به من كل جانب إلى خلق قوة وهمية تفوق الطبيعة، وتتجاوزها، ثم منح هذه القوة صفات الكمال، ومن هنا نشأت الألوهية، باعتبارها ماهية الإنسان المغتربة، أي أن إله الإنسان ما هو إلا

(1) المرجع نفسه - ص: 117-118.

(2) ينظر: ريتشارد شاخت - الاغتراب - مرجع سابق - ص: 118.

الجوهر المتأله للإنسان⁽¹⁾ ويرى أن التحرر لا يجب أن يتم بترسيخ الإنسان في تجربته الدينية، بل بحمله على إنكار كل دين لأن عقل الإنسان باعتباره طاقة هائلة تجعل من الإنسان سيدا للعالم يضمحل أمامه السراب الديني الخداع، وكما يرى هيجل فإن العقل يتحرر عندما يعي اغترابه **SON ALIENATION** في المادة، فإن فيورباخ يرى في الله اغترابا ضروريا يؤمن للإنسان الوصول إلى الوعي والتحرر من ضياعه المطلق فالملكوت الأزلي عنده يبدأ عندما يتحول ملكوت السماء إلى جمهورية أرضية بمعنى أن ملكوت الإنسان ليس في العالم الآخر، بل هو في عالم آخر، هو عالم متطور يكون على الأرض⁽²⁾.

فالدين في نظر فيورباخ أصبح يشكل عائقا ماديا ومعنويا في طريق تقدم الإنسان غير أن يبقى الإطار الجوهري للعقل البشري، وهذا ما حدا بماركس إلى اعتبار الدين بأنه أفيون الشعوب⁽³⁾.

الاغتراب عند ماركس MARX: بدأ ماركس في كتاباته عن الاغتراب بانتقاد هيجل، حيث اعترض من حيث المبدأ على النظر إلى الإنسان باعتباره عقلا فقط، أو وعيا بالذات فحسب، فأنماط الاغتراب التي يقدمها هيجل ما هي إلا أشكالاً مختلفة للوعي، والوعي بالذات، وهذا من وجهة نظره - ماركس - من أكبر الأخطاء، فالإنسان الحقيقي هو الذي يقف على قدميه بثبات على الأرض ويستوعب ويعزز قوى الطبيعة⁽⁴⁾

وقد قام ماركس بالسير على طريق هيجل ولكن بطريقة معكوسة، فقد قام بنقل مفهوم الاغتراب من الإطار المجرد إلى الواقع الحسي المتعين، والانتقال بهذه الطريقة، أي من المجرد إلى الواقع الحسي المتعين يعود إلى الاختلاف بين الرجلين حول مسألة الطبيعة الجوهرية للإنسان، إذ يرى ماركس، على خلاف هيجل أن العمل والحياة المنتجة هي التي تميز الإنسان كنوع في الطبيعة، زيادة على أنه يحيا حياة اجتماعية، أي أنه

(1) ينظر د. فيصل عباس - الاغتراب - الإنسان والوعي الشقي دار المنهل اللبناني - ط1 2008 - ص : 198.

(2) ينظر: د. سالم بيطار - اغتراب الإنسان وحرية - المؤسسة الحديثة للكتاب طرابلس لبنان د. ط- 2001 - ص: 61.

(3) ينظر: د. سالم بيطار - اغتراب الإنسان وحرية - مرجع سابق - ص: 61-62.

(4) ينظر: د. محمد عباس يوسف، الاغتراب و الإبداع الفني - ص : 45.

موجود في صحبة الآخرين، والحياة الحسية ما هي إلا إشباع لحاجات الإنسان المختلفة، كالعمل والنشاط وإخضاع الحواس بالإضافة إلى النشاط الإنتاجي بما يتفق مع بعد الفردية، أي تميز الشخصية وتحقيق للذات.⁽¹⁾

وبذلك ندرك أن السمات الأساسية لدى الإنسان من منظور ماركس - تتجلى في: السمات الفردية والاجتماعية والحسية أما بالنسبة لهيجل فقد تمثلت - كما رأينا سابقا - في العقل والفردية والكلية.

ويعتبر ماركس أن الإنتاج هو النشاط الأكثر لصوقا ومباشرا للفردية، فمن خلال إنتاج الموضوعات، يعيد الفرد إنتاج ذاته بالمعنى الحقيقي، وينبئ ماركس إلى أن هذه العملية، أي عملية الإنتاج هي عملية تخارج، لأن الأشياء التي ينتجها الفرد (هي تموضع ذاته) وهذا التموضع هو الذي يؤكد حقيقته، ويحقق فرديته⁽²⁾

ويمكن أن نلاحظ أربعة أنماط هامة للاغتراب عند ماركس وهي - اغتراب الناتج - اغتراب العمل - الاغتراب عن الآخرين - الاغتراب عن الذات.

1. اغتراب الناتج: يرى ماركس أن الناتج - ناتج العمل - يصبح مغتربا عندما يرتبط العامل بنتاج عمله كموضوع غريب عنه، ولا يوصف الناتج بأنه كذلك، إلا إذا، وجد هذا الناتج بصورة مستقلة خارج ذات المنتج أي خارج سيطرته، ويستعمل في توصيف هذا النوع من الاغتراب مصطلح (التخارج) أي وجود الناتج كشيء غريب ومفارق خارج سيطرة المنتج، وبذلك يضع ماركس تمييزا واضحا بين التخارج والتموضع، إذ يخص التخارج بنظرة سلبية باعتباره أمرا مرفوضا، بينما يخص التموضع - أي تموضع ذات الفرد وتحقيقه لذاته فيما ينتج بنظرة إيجابية باعتباره أمرا مرغوبا فيه، وهذا الناتج يبدو غريبا بالنسبة للعامل، أي لمنتجه ليس فقط لكونه خارج سيطرته ولكن بسبب شيء آخر له أيضا سلطة تغريب الإنتاج، ويتمثل ذلك في القانون، هذه القوة غير الإنسانية التي تحكم رأس المال والسوق وبالتالي فإن ناتج عمله تحكمه هذه القوانين، ولا تحكمه إرادته،

(1) المرجع نفسه - ص : 46.

(2) ينظر: د. محمد عباس يوسف، الاغتراب و الإبداع الفني - مرجع سابق - ص: 46.

وهكذا يكتسب الناتج سمة الغربة والعداء التي يمكن أن توصف بها هذه القوة غير الإنسانية التي تحكمه، والناتج هنا كما يرى ماركس يعكس صورة السوق أكثر مما يعكس صورة العامل الذي أنتجه. (1)

2. **اغتراب العمل:** يطلق ماركس مصطلح الاغتراب لا على ناتج العمل فحسب بل على العمل نفسه وذلك عندما لا يعكس هذا العمل اهتمامات العامل وشخصيته، ويرى ماركس أن العمل يغترب حينما يرتبط الإنسان بنشاطه باعتباره شيئاً غريباً عنه، لأنه يرتبط بنشاطه هنا باعتباره نشاطاً مقيداً، إذ يتم في خدمة وتحت سيطرة وقهر إنسان آخر، ومعنى ذلك أن الفرد (العامل) لا يشعر بالألفة في العمل الذي يقوم به بل قد يتحاشى هذا العمل كما لو كان طاعوناً لأنه ليس تعبيراً عن شخصيته فعمل الفرد لا

يكون عمله حقاً، إلا عندما يكون نشاطاً عفويّاً يحدده ويوجهه العامل ذاته ويعكس اهتماماته المادية أو الجمالية، ويبرز شخصيته والاضطراب هنا لا يتضمن طرفين فحسب، العامل والعمل - حسب رأي ماركس - وإنما ينضاف إليهما طرف ثالث هو الآخر، ذلك الذي تكون له السيطرة الفعلية على مجمل العملية، من حيث تحديد العمل وتوجيهه، وبذلك يصبح العمل هنا، عملاً مغترباً باعتباره عملاً عبدياً. (2)

3. **الاضطراب عن الآخرين:** يرى ماركس أن اضطراب العامل وناتجه في الواقع الاقتصادي، وفي واقع الحياة أمر يستتبعه اضطراب ثالث لأن العامل الذي ينتج شيئاً ليس من اهتمامه، وينتجه لشخص آخر، يصبح معه كشيء من الأشياء، وبعبارة أخرى هو عبارة عن واسطة بين عدة أشياء لا أهمية له إلا كونه حلقة في سلسلة من الحلقات التي تؤدي عملاً للغير، وهنا يشعر بالتشويش، وهو الاضطراب بعينه، والأفراد في مثل هذه الحالة يحسون بعدم إجابيتهم أمام أنفسهم، لأن إجابيتهم تتجاوز كونهم وسائل لغايات شخصية لأناس آخرين، وهنا تنشأ

(1) ينظر: ريتشارد شاخنت - الاضطراب - مرجع سابق - ص: 141-145.

(2) ينظر: ريتشارد شاخنت - الاضطراب - مرجع سابق - ص: 149-150.

العداوة بين أفراد المجتمع المدني- كما يرى ماركس- لأن المجتمع المدني هو مجال خصب لحرب الجميع ضد الجميع، أي أنه عبارة عن عالم من الأفراد المتنافرين الذين يعادي بعضهم بعضا، لأن كل فرد من هؤلاء يصبح منكفئا على نفسه أنانيا مشغولا بمصالحه الخاصة ومتصرفا حسب نزواته الخاصة، وفي مثل هذه الحالة يرى الفرد في الآخرين حاجزا أمام تحقيق ذاته وبالتالي فالآخرون هم الاغتراب أو هم الذين يتسببون في اغتراب الفرد، فيرى المجتمع مغتربا عنه.⁽¹⁾

4. اغتراب الذات عند ماركس: يلحظ ماركس أن اغتراب الذات يكمن في حالتين، تتضمن كل منهما فكرة الانفصال، ويشير مصطلح الذات في الحالة الأولى إلى شيء ما هو جزء من الشخصية، بينما يشير في الحالة الثانية إلى طبيعة الإنسان الجوهرية⁽²⁾

أ. الاغتراب عن الذات- بالمعنى الأول- استخدم ماركس هنا تعبير اغتراب الذات ليحدد على نحو أكثر عمقا اغتراب العمل، وليحدد بصورة عرضية اغتراب الناتج، ومراد ماركس من هذا الكلام هو التركيز على أن عمل الإنسان هو حياته، وإن إنتاجه هو حياته أيضا في شكل متموضع، وأنه إذا اغترب عنه فإن ذاته تغترب عنه كذلك، لأنه عندما يحس الفرد في علاقته بنشاطه كشيء غريب عنه ولا ينتمي إليه تصبح طاقته الشخصية الجسدية والروحية وحياته الشخصية غريبة عنه، إن الحياة هي نشاط، وحينما تخضع طاقة الشخصية الروحية والعضوية على نحو ما تتجلى في نشاطه وعمله لتوجيه آخر فإن حياته ذاتها لا تعود حياته، ومن ثم فإنه يغدو مغتربا عن ذاته⁽³⁾

(1) المرجع نفسه- ص: 152-153.

(2) ينظر: د. محمد عباس الاغتراب والإبداع الفني- مرجع سابق- ص: 48.

(3) ينظر: ريتشارد شاخ- الاغتراب- مرجع سابق- ص: 158-159.

ب. **الاغتراب عن الذات** - بالمعنى الثاني - يشير الاغتراب بمعناه الثاني عند ماركس إلى انفصال الفرد عن ذاته الإنسانية الحقّة وطبيعته الجوهرية، والشخصية الإنسانية الحقّة تتسم بسمات الفردية والتمتع بالحساسية المهيبة والاجتماعية، والاغتراب الذي يحل محل الذات الجوهرية يستبدل تلك السمات بسمات أخرى هي: الإنتاج، والحياة الحسية والحياة الاجتماعية⁽¹⁾

I. **المجال الأول (الفردية - الإنتاج):** إن العامل في المجتمع الرأسمالي ينتج فحسب ولا يكف عن الإنتاج، وبذلك ينزل إلى مستوى الحيوان لأنه ينتج حسب الحاجة العضوية المباشرة، وعندما لا ينتج وهو متحرر من مثل هذه الحاجة فإن إنتاجه يهبط إلى مستوى الإنتاج الحيواني المجرد، ومن هنا يفقد تميزه عن الحيوانات، وتزرع إنسانيته كذلك بمعنى التدني به إلى وضعية العبد الهابطة عن المستوى الإنساني الحر، بسبب تسليمه قوة عمله للآخر، وتسليم العمل الذي يوجهه الإنسان لإنسان آخر هو عمل عبودي⁽²⁾

II. **المجال الثاني (التمتع بالحساسية - الحياة الحسية)** يرى ماركس أن الإنسان لا يصبح كذلك إنساناً حقاً إلا حينما يتم تهذيب إدراكه الحسي وإضفاء الطابع الإنساني على حواسه، ومشاعره مثل الأذن الموسيقية والعين الحساسة لجمال الشكل واللون، والإنسان الذي لا تتطبق عليه تلك الصفات لا يستطيع تقدير الأشياء حسب ماهيتها الداخلية وتكون حساسيته دائماً دون المستوى الإنساني، ومن ثم يكون هو نفسه أقل من إنسان⁽³⁾

III. **المجال الثالث (الاجتماعية - الحياة الاجتماعية)** يعتقد ماركس هنا أن الحياة لا تكون إنسانية حقاً إذا لم تكن حياة اجتماعية أي حياة تعيش في مجتمع أصيل بين البشر الآخرين، وإذا ما اغترب عن الآخرين، فإن

(1) المرجع نفسه - ص: 160.

(2) المرجع نفسه - ص: 160

(3) ينظر: محمد عباس - الاغتراب والإبداع الفني - مرجع سابق - ص: 150.

وجوده يصبح وجودا غير إنساني، لأنه لا يفصح عن اجتماعيته الجوهرية وهكذا يغترب الإنسان عن ذاته، وإذن فالاغتراب عن الآخرين مرده وجود الفرد في ظل ظروف تسود المجتمع المدني الذي يعيش فيه، تلك الظروف تتسم في مجملها بنزع إنسانية الإنسان⁽¹⁾

قهر الاغتراب عند ماركس: يرى ماركس أن كابوس الاغتراب لا يمكن التغلب عليه أو القضاء عليه ما دام المجتمع الرأسمالي قائما، ولذلك يتوجب إحداث تغيير كلي في بنية المجتمع المدني الرأسمالي، الذي يقوم - كما هو معلوم - على الملكية الخاصة والاستغلال، ولذلك وجه نداءه المشهور إلى عمال العالم لكي يتحدوا ويطيحوا بالرأسمالية، وذلك تمهيدا لإقامة المجتمع الاشتراكي الذي تلغى فيه كل أشكال الملكية الخاصة، وبذلك ينتفي اغتراب الإنسان⁽²⁾

والملاحظ أن كلا من هيجل وماركس يقف على طرف نقيض من الآخر من حيث كيفية الاغتراب، فإذا كان هيجل يرى أن قهر الاغتراب يتم عن طريق التوافق مع البنية الاجتماعية القائمة، فإن ماركس يرى عكس ذلك تماما، لأن التوافق مع هذه البنية هو أصل الداء، ولذلك يقترح الحل الجذري - كما يراه - وهو إعادة تنظيم المجتمع، وتغيير الجوانب الاقتصادية والاجتماعية بصورة أساسية، حتى يتم تجاوز الملكية الخاصة تمهيدا للانقلاب الشيوعي الذي يمثل الحل النهائي والأمثل لكل مشاكل الإنسان ومنها الاغتراب⁽³⁾

وإذا كان نقد ماركس لهيجل واقعيًا، لأن الاتحاد مع البنية الاجتماعية فكريا لا يقضي على الاغتراب أبداً، لأن معظم قضايا ذات بعد واقعي اجتماعي ومادي بالإضافة إلى القضايا الفكرية، غير أن ماركس وقع فيما وقع فيه هيجل من العمومية والشمولية، إن نقض البنية الاجتماعية القائمة وإقامة بديل لها قائم على رؤية واحدة مركزية هي تحرير وسائل الإنتاج لا يكفي، بل إن العامل في هذا النظام الجديد قد يحس بما قد أحس به من قبل عندما ينتج ما لا يرغب فيه،

(1) ينظر: ريتشارد شاخت - الاغتراب - مرجع سابق - ص: 161.

(2) ينظر: محمد عباس - الاغتراب والإبداع الفني - مرجع سابق - ص: 51.

(3) ينظر: محمد عباس - الاغتراب والإبداع الفني - مرجع سابق - ص: 51.

أو ما لا يتمشى وذوق الفرد العامل، أضف إلى ذلك أن ماركس أغفل الجانب الروحي للإنسان، هذا الجانب الذي لا يمكن طمسه بأي حال من الأحوال والتجارب التاريخية قد أثبتت ذلك، ولأن الشخصية شكل وإنية، فلا يمكن أن نجد إنية فرد ما في المجتمع توافق تماما (إنية الآخر) مهما تضافرت جهود التربية والثقافة للتقريب بين ذلك، فالفروق الفردية في الذكاء والصحة النفسية والجسمية والفكرية تعمل دائما في إيجاد شخصيات مختلفة، كل لها إنيتها التي تعد فيما اعتقد الأصالة الفردية لكل شخص في المجتمع، وما يستتبع ذلك من اختلاف في النظرة إلى البنية الاجتماعية المقترحة من طرف ماركس.

الاغتراب الوجودي:

يعد الفيلسوف الدنمركي سون كيركيغارد أبو الوجودية الأول، وعلى الرغم من أنه لم يستعمل لفظ الاغتراب، إلا أنه كان شائعا في فكره، ويشير إليه بشكل صريح في (كتابه العصر الحالي) الذي ألفه سنة 1846، وفيه يتعرض لقضية الاغتراب عند الإنسان المعاصر، من خلال نقده لأوضاع الفرد في داخل الحشد، أو الجماهير، وهذه الأوضاع يميزها الضياع وفقدان التفرد والحرية فهاجم النزوع الحديث نحو المساواة الذي حدث نتيجة لتسلط الرأي العام وثورة الدهماء، ورأى أن الخطر المباشر لانتصار المساواة هو سيادة الكل المجرد فوق الفرد، وهذا يؤدي - حسب رأيه - إلى التضحية بالفرد من أجل قوة مجردة هي المجموع، ولذلك يرى أن واجب النضال ضد الحشد أو الجمهور لا يقل أهمية عن النضال ضد الملكية واستبدادها أو ضد الأمراء والديكتاتوريات، إن النضال ضد الحشد - كما يراه كيركيغارد - هو نضال ضد زيف المساواة، وضد العبث والحقارة والوحشية⁽¹⁾

ويصف كيركيغارد الجمهور بصفات حقيرة وذميمة، وبشعة فهو يرى في الحشد ذلك الشبح الذي تطور وتناول بفعل وسائل الإعلام والدعاية فأصبحت له قوة، ولكنها قوة مثل قوة البق، وله رائحة عفنة، إنه صورة كريه

(1) ينظر: د. حسن محمد حسن حماد - الاغتراب عند إيريك فروم - مرجع سابق - ص 63.

من صور التعطش للدماء لا على طريقة الأسد والنمر ولكن على طريقة الحشرات الطفيلية التي تمتص دماء الإنسان، وهي أشد أنواع الاستبداد إثارة للنقز والاشمئزاز. (1)

وهكذا يرى كيركيغارد أن الإنسان الحديث عندما يضحى بحريته الفردية مقابل الطمأنينة الزائفة وسط الجمهور، فإنه يفقد ذاته كإنسان، ويصبح ذلك الفرد الذي لم يعد ينتمي إلى الله وإلى ذاته وإلى عمله أو فنه، أو علمه فقط يصبح ويمسي واعيا بانتمائه إلى تجريد يخضع له فكريا وعمليا مثلما يخضع العبد للأرض التي يعمل فيها. (2)

يتضح مما تقدم أن خضوع الإنسان - في رأي كيركيغارد - لأفكار الحشد وتوجيهاته وميولاته يقضي تلقائيا على الذاتية، والقضاء على الذاتية قضاء على الفرد وميولاته وتميزه وبالتالي القضاء على حريته واستقلاليتة، وقد مر بنا أن شعور الإنسان بسلب الحرية يضعه على حافة هاوية الاغتراب، وهو ما كان يراه هذا الفيلسوف، فإن تسليم الإنسان نفسه لقوى أخرى متعالية لا يكون إلا اغترابا بمعنى من المعاني.

وقد أخذ الفيلسوف الألماني هيدجر برأي كيركيغارد في عدائه للحشد أو الجمهور، فهو يرى فيه - الاستغراق في الحشد - بأنه وجود زائف **Inauthentic** ، لأنه ينزل بالإنسان إلى حياة مبتذلة حياة يومية متشابهة، فالإنسان الذي يضيع في الجماهير يفقد حريته واستقلاله، ويصبح ويمسي رأسا في القطيع، فهو يعيش مثل الآخرين، يعمل ما يعمل الناس ويفكر فيما يفكرون فيه، ويقيس الأمور بمعاييرهم، فهو عبارة عن نسخة من كائن بلا اسم أو هوية، هو الناس أو الحشد، وبذلك يقضي الإنسان على وجوده الأصيل ويتنازل عن

(1) المرجع نفسه - ص: 64.

(2) المرجع نفسه - ص: 64.

حريته وتفرده، ويصبح عبارة عن شيء من الأشياء وموضوعا بين موضوعات كثيرة، وفي ذلك إهدار كامل لحقيقة وقيمة الإنسان.⁽¹⁾

ويفرق هيدجر بين نوعين من الوجود الإنساني كما أشرنا سالفاً، وهما الوجود الأصيل **Authentic**، والوجود الزائف **Inauthentic**، فالأول هو ذلك الوجود الذي يشعر فيه الفرد بـ (ذات خاصة به) وبأنها ذات قائمة بنفسها ومسؤولة عن ذاتها، وأنها لا بد لها من أن تأخذ على عاتقها تبعة وجودها، من خلال القرارات والاختيارات التي تقوم بها وتنتمي إليها حقاً، والتي يمارسها الفرد بحرية تامة، وبوعي كامل بالأحوال الجوهرية للإنسانية⁽²⁾

أ. الوجود الزائف **Inauthentic** ، فهو ذلك الوجود الذي فيه تميل الذات إلى الاندماج مع الناس، والانغماس في المجموع، والارتقاء في أحضان الآخرين، راجية من وراء ذلك أن تهرب من حريتها، وبالتالي من مسؤوليتها وأن تتخلص من شعورها بالقلق، ومعنى هذا أن الوجود الزائف هو الوجود الذي يتخلى عن مسؤوليته تجاه اختيار إمكانياته، ويترك لغيره هذه المهمة، وهذا يؤدي به إلى أن يخضع وجوده للمجهول الذي يسمى بالناس أو الجمهور أو الحشد، لذلك نجد أن الوجود الزائف يحيا الحياة العامة التي تلغي كل الفروق، وتقضي كل شعور بالأصالة، وتنزع عن الفرد المقدرة على تحمل المسؤولية والاستقلال بالرأي⁽³⁾

الاغتراب عند سارتر (1905-1980) يعتبر سارتر من فلاسفة الوجودية الملحدة التي تزعمها قبله كل من نيتشه وهيدجر، ورغم اتفاق هيدجر وسارتر على أن الوجود سابق على الماهية، وأن الإنسان الوافد إلى العالم ليس وجوداً وإنما هو مشروع وجود، لأن الإنسان ليس له تعريف سابق وإنما الذات هي التي تعرف بنفسها من خلال الحرية التي تتمتع بها، فالإنسان محكوم عليه بالحرية، والحرية

(1) ينظر: د. عبد الرحمن بدوي- دراسات في الفلسفة الوجودية- دار الثقافة- بيروت ط3 1983- ص:

87.

(2) ينظر: ريتشارد شاخنت- الاغتراب- مرجع سابق- ص: 262.

(3) المرجع نفسه- ص: 264-265.

في نظر سارتر عبئ ثقيل لأنه يتحمل مسؤولية هذه الحرية فكل موقف يتخطاه ويتخذ إزاءه القرار المناسب يتلوه موقف آخر، وبما أن الاختيارات التي يتخذها الوجودي ليست أنماطا جاهزة وإنما هي نابعة من الذات دون إكراه خارجي أو داخلي؟ فهي إذن - الحرية - من أسباب القلق، إلا أن سارتر يختلف عن هيدجر في القول بالذات الأصلية فسارتر ينفي أن تكون للإنسان ذات أصلية أو جوهرية أو حقيقية.

وقد استخدم سارتر كلمة الاغتراب **Alienation** بمعنيين أحدهما في الوجود والعدم والآخر في نقد العقل الجدلي⁽¹⁾

1. **الاغتراب في الوجود والعدم:** تطرق سارتر في هذا الكتاب إلى الاغتراب بمعنى الاغتراب عن الذات الموضوعية، ومعناها أن نظرة الآخر لي تجعلني أشعر بموضوعيتي كما يراه الآخر، يقول سارتر وهذا الوجود الموضوعي غريب بالنسبة لي، ويؤدي إلى تغريب قدراتي عني، قدراتي التي ترتبط بموضوعات هذا العالم، غدت الآن بعيدة عني كل البعد ضائعة في غمار هذا العالم، فأنا لست مجرد موضوع، لست شيئاً ضمن الأشياء الأخرى، وإنما يتعين النظر إلى طبيعتي من خلال الحرية، وهكذا فإن قدراتي لا خصائصي المفروضة على هي التي تحدد وجودي إلا أن الآخر في نظري لا يدري إلا الخصائص، وهو عندما ينظر إلي على هذا المنوال فإنني أبدو له كموضوع لا كذات حرة، حقاً إنني لا تزال لي قدراتي، ولكن في الوقت ذاته فإن هذه النظرة تؤدي إلى تغريب قدراتي عني⁽²⁾ ومعنى هذا أن سارتر قد استخدم الاغتراب فيما يتعلق بظاهرة معاشة المرء لذاته على نحو ما تنتظر إليه ذات أخرى كموضوع، وفي هذا الموقف يسلب المرء - في رأي سارتر - نقاء ذاتيته من خلال الوعي بوجوده كموضوع بالنسبة للآخر "وان بعد الموضوعية الخاص بالفرد

(1) ينظر: د. محمد عباس يوسف - الاغتراب والإبداع الفني - مرجع سابق - ص: 51.

(2) ينظر: جان بول سارتر، الوجود والعدم - 1966 ص: 725 نقلاً عن محمد عباس يوسف - مرجع سابق - ص: 51-52.

والذي يصبح المرء واعيا به على هذا النحو هو موضوع غريب بالنسبة له باعتباره ذاتاً⁽¹⁾، وهذه الفكرة تؤرق سارتر لأن كل شخص عنده هو ذات منفصلة عن الآخريّة بهوة سحيقة لا يمكن عبورها، وأن المجتمع الحقيقي أمر مستحيل، وهذا الاغتراب لا يتم إلا على مستوى الفكر والشعور، ولا يهتم به عادة إلا الفلاسفة.

2. الاغتراب في نقد العقل الجدلي: يشبه الاغتراب عند سارتر في كتابه (نقد

العقل الجدلي) الاغتراب عند ماركس، وهو يدور في فلك علاقة المرء بنشاطه الإنتاجي، حيث يرى في هذه الدراسة، أن الإنسان الفرد يصبح مغتربا ومتشينا ومضللا على نحو ما يجعله تقسيم العمل والاستغلال.

ويتفق كل من سارتر وماركس في أن إنتاج الفرد من خلال العمل هو السبيل إلى تحقيق الذات باعتبار أن العمل هو تموضع الذات وتحقيقها وبذلك يكون تموضع الذات ظاهرة إيجابية من خلالها تتطور حياة الفرد وشخصيته وفرديته ويتفكان على أن تموضع الذات (أي الناتج) والنشاط المؤدي إلى ذلك (العمل) حين يصبحان تحت تأثير وسيطرة إنسان آخر فإن الذات تصبح مغتربة وقد رأينا فيما مضى أن الاغتراب عند ماركس مرتبط بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية غير السوية والتي ينبغي القضاء عليها، وسارتر يشاركه في هذه النظرة إلا أنه يختلف عنه في نقطة مهمة، وهي أن الاغتراب أمر ملازم بصورة حتمية للتموضع في هذا العالم حتى ولو لم توجد مثل هذه الأوضاع، كما يختلف عنه بنفي الطبيعة الجوهرية للإنسان، فالاغتراب عند ماركس يعود إلى التنافر بين الوضع الفعلي للمرء وطبيعته الجوهرية بينما يظل سارتر مصرا على معارضة وجهة النظر القائلة بأن للإنسان أي نوع من الطبيعة الجوهرية⁽²⁾

الاغتراب عند إيريك فروم:

(1) ينظر: محمد عباس يوسف- الاغتراب والإبداع الفني - مرجع سابق- ص: 52.
(2) ينظر: د. حسن محمد حسن حماد- الاغتراب عند إيريك فروم- مرجع سابق ص: 67.

كان إيريك فروم محللاً نفسانياً، ولكنه كان على اطلاع دائم على ما يحدث في عالم الفلسفة والأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، فتكونت له معارف وخبرات كثيرة، ولكن كان لهذه العلوم والمعارف أثرها السلبي - كما يرى البعض - في استخدام مصطلح الاغتراب بدقة متميزة ومحددة، ولكن هذا رأي من بين الآراء الأخرى، وهو يستخدم مصطلح الاغتراب **Alienation** ليشير به إلى - وبشكل عام - إلى عدد من العلاقات المتنوعة، كعلاقة الإنسان بذاته وعلاقته بالآخرين، وبالعامل الإنساني وناتجه وغير ذلك، وقد تناول في مناقشاته وأبحاثه قضايا من أمثال الذات الأصلية، والذات الزائفة وعبادة الإنسان للأشياء، ومفهوم الحرية، والأساليب المختلفة لاغتراب الإنسان عن ذاته ⁽¹⁾ وسنركز على معنى الاغتراب عن الذات عنده وكل ما يتصل بهذا الجانب.

1. معنى الاغتراب عن الذات: أول ما يجابهنا عند دراسة مفهوم الاغتراب

عند فروم هو نفيه لفكرة الذات الجوهرية وذلك في كتابه (المجتمع السوي) **The sane society** وعلى الرغم من ذلك فإنه يشير إلى تميز الوجود الإنساني بالتناقض الكامن في وجوده من حيث إنه جزء من الطبيعة يخضع لقوانينها الفيزيائية ومع ذلك يتجاوز باقي الطبيعة ⁽²⁾ وعلى الرغم من أنه لم يقر بالذات الجوهرية للإنسان، إلا أن قوله بالذات الأصلية والذات الزائفة قد جعله ينزلق إلى معالجة اغتراب الذات على أنه حالة أقرب إلى الانفصال عن طبيعة مثالية للإنسان ومن هنا يتوجب تحديد مفهوم الذات الأصلية حتى يمكن أن نفهم فكرة اغتراب الذات عنده.

إن الذات الأصلية كما تحدث عنها فروم هي تلك الذات الفريدة غير القابلة للتكرار، والتي يتميز صاحبها بأنه شخص مفكر، قادر على الحب

⁽¹⁾ Fromm: man for himselef p:40

نقلاً عن حسن محمد حماد: الاغتراب عند فروم - ص: 68.
⁽²⁾ ينظر: رينشارد شاخنت - الاغتراب - مرجع سابق - ص: 188-189.

والإحساس، ومبدع لما يقوم به من أفعال⁽¹⁾ ومفهوم الذات الأصلية يتضمن عدة مفاهيم كالتفرد، العقل والإبداع.

وفي نظر فروم فإن التفرد هو أبرز ما يميز الإنسان بل يمكن أن نعرف الإنسان بأنه الحيوان الذي يستطيع أن يقول (أنا) والذي يكون مدركاً لنفسه كوحدة مستقلة ومتميزة عن الآخرين فالحيوان جزء من الطبيعة ولكنه لا يتخطاها، أما الإنسان فهو الوحيد القادر على الانفصال والإحساس بمعنى الهوية لأنه يتميز بالعقل والخيال⁽²⁾، ويقتضي التفرد التحرر الكامل، لأن التفرد معناه أن الإنسان هو مركز الحياة وغرضها، وأن حرية واستقلال الذات غاية لا يجب أن تخضع لأي غرض آخر.⁽³⁾

أما العقل فهو كما يراه فروم " قدرة الإنسان على إدراك العالم بالفكر"⁽⁴⁾ ومن وظائف وخصائص العقل أنه يهدف إلى القيم، لذلك نراه يحاول أن يكتشف ما وراء السطح ويهدف على أن ينفذ في لب الأشياء، وإلى جوهر الحقائق، والعقل عند فروم يفترض التفرد ووجود الإنسان على نحو أصيل يقول " لا يمكن لي أن أفكر إلا إذا كنت موجوداً، ولم أفقد فرديتي في المجهول " الحشد"⁽⁵⁾ من هنا يرى فروم أن التفكير الأصيل هو ما كان مستمداً من داخل الإنسان، ويكون نتاجاً لنشاطه الخاص، وليس نتاجاً مأخوذاً أو مستمداً من الخارج، ويضرب فروم مثلاً للتفكير الزائف فيقول إن الشخص العادي قد يذهب إلى المتحف ويقف أمام صورة رسمها رسام مشهور، فيحكم على الفور أن الصورة جميلة، وذات تأثير، وإذا حللنا حكمه وجدناه لا يحمل أي استجابة

(1) ينظر: ريتشارد شاختر - الاغتراب - مرجع سابق - ص: 190-191.

(2) Fromm: the sane society p:60.

نقلاً عن محمد حسن حماد - الاغتراب عند إيريك فروم
(3) إيريك فروم - الخوف من الحرية ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد المؤسسة العربية للطباعة والنشر بيروت ط 1972.

(4) Fromm: the sane society p:64

نقلاً عن حسن محمد حسن حماد - الاغتراب عند إيريك فروم - ص: 68.

(5) Fromm: the sane society p170.

نقلاً عن د. حسن محمد حسن حماد - الاغتراب عند إيريك فروم - ص: 69.

باطنية خاصة للصورة ولكنه يعتقد أنها جميلة لأنه يعلم أنه من المفروض أن يقول ذلك (1)

إن ما يميز التفكير الأصيل ليس مسألة ما إذا كانت محتويات التفكير سليمة أم لا أو أن الآخرين لم يفكروا فيه من قبل، بل التفكير الأصيل هو الذي يعكس نفسه، أي الذي يعبر عن الإنسان بصدق لأنه وسيلة للوصول إلى الحق، ولاكتشاف الجديد في داخل العالم أو في نفسه (2)

وعند تناوله للعقل يفصل فروم ويميز بين العقل والذكاء، فهو يجعل العقل أسمى من الذكاء، ذلك لأن الذكاء - في نظره - يرتبط بانجاز بعض الأغراض النفعية، أما العقل فإنه يتجاوز الجانب النفعي للحياة، ويرمي إلى ربط الإنسان بالأشياء عن طريق فهمها والنفوذ إلى جوهرها ومعانيها العميقة، ويشبه فروم في هذه النقطة كيركيجار في نقده لعصره، إذ يرى بأننا نعيش في عصر يتصف بالزيف، فبقدر قليل من التفكير السطحي يمكن لأي شخص أن يصبح لامعاً، أما المعاناة الناتجة عن الخبرة والمعرفة العميقتين فلم تعد ممكنة في عصرنا، لأنها تتطلب نوعية خاصة من البطولة التي لا نجدها إلا في العصور التي تتسم بالإيجابية. (3)

أما مفهوم الحب عند فروم فهو يتخطى معنى الحب الذي تحدث عنه وسائل الدعاية والإعلام إلى مفهوم آخر، وهو الشعور بالوحدة مع شخص آخر، ومع الناس جميعاً ومع الطبيعة بشرط الاحتفاظ بالوحدة والاستقلالية. (4)

ويرتبط عند فروم بهذه الصفات - التفرد والعقل، والحب، صفة أخرى لا تقل أهمية عن تلك الصفات وهي القدرة على الخلق والإبداع، ففي عملية الخلق يتجاوز الإنسان دوره السلبي باعتباره مخلوقاً ليرتفع إلى مستوى الخلق والإبداع، وذلك عن طريق النشاط المبدع الذي يعبر عن إرادة الإنسان وحريته،

(1) ينظر: إيريك فروم - الخوف من الحرية ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد - مرجع سابق - ص: 155.

(2) المرجع نفسه - ص: 157.

(3) Regin : sources of cultural estrangement p:112.

نقلاً عن د. حسن محمد حسن حماد الاغتراب عند إيريك فروم - ص: 69.

(4) Fromm: the sane society p32..

نقلاً عن حسن محمد حسن حماد - الاغتراب عند فروم - ص: 70.

هذا النشاط يضرب بجذوره في تجارب الإنسان المختلفة، العاطفية والعقلية والحسية وفي إرادته أيضا⁽¹⁾

تلك هي الصفات العامة التي تتميز بها (الذات الأصلية)، وهي تؤدي عند فروم دور الوجود الجوهري، أو الوجود المثالي، الذي ينبغي أن يكون عليه الإنسان.

وفي مقابل الذات الأصلية يقدم لنا فروم " الذات الزائفة " وهي التي تفتقر إلى صفات الذات الأصلية، أو لأحد هذه الصفات، لأن فروم يرى أن هناك ترابطا بين الفرد، والعقل، والحب، والنشاط الخلاق، لذلك فإن فقدان إحدى هذه الصفات غالبا ما يفضي إلى إحلال الذات الزائفة محل الذات الأصلية⁽²⁾ ويبدو أن فروم يعطي من شأن الفرد وكأنه الأساس الذي تقوم عليه سائر السمات الأخرى التي تحدد الذات الأصلية لذلك نراه يقول في وصف الإنسان المغترب عن ذاته بـ " أنه يفقد معظم شعوره بالذات وبذاته كذات متفردة لا يمكن تكرارها، إن الشعور بالذات ينبع من ممارستي لذهني كموضوع لتجاربي أنا، وتفكيري أنا، وشعوري أنا، وقراري أنا، وحكمي أنا، وفعلي أنا، إن هذا الشعور يفترض أن تجربتي هي تجربتي الخاصة وليست تجربة مغتربة"⁽³⁾

ويتعرض فروم في معالجته لقضية الاغتراب عن الذات إلى إمكانية الوقوع في الوهم، إذ يرى أن كثيرا من الناس يعيشون تحت وهم أنهم يتبعون أفكارهم ومشاعرهم، وأنهم متفردون، وقد توصلوا إلى أفكارهم وآرائهم نتيجة أعمالهم لفكرهم، ولكن الحقيقة أنهم يفكرون ويشعرون من خلال السلطات المجهولة التي تهيمن عليهم كسلطة الحس المشترك والرأي العام.⁽⁴⁾

ويتضح لنا مما سلف أن مفهوم الذات الأصلية عند إيريك فروم يرادف مفهوم الذات غير المغتربة التي حققت وجودها الإنساني المتكامل، أما الذات

(1) ينظر: إيريك فروم - الخوف من الحرية - ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد - مرجع سابق - ص: 206.

(2) المرجع نفسه: - ص: 164.

(3) Fromm: the sane society p:143.

نقلا عن حسن محمد حسن حماد - الاغتراب عند إيريك فروم ص: 71.

(4) ينظر: إيريك فروم - الخوف من الحرية ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد - مرجع سابق - ص: 202.

الزائفة فهي الذات التي اغتربت عن نفسها وانفصلت عن وجودها الإنساني الأصيل⁽¹⁾، ويشير الدكتور حسن محمد حسن حماد إلى أن جذور فكرة الذات الأصلية والذات الزائفة وعلاقتها باغتراب الذات توجد بشكل صريح وواضح في الفلسفة الوجودية وبخاصة عند كيركيغارد وهيدجر، فكيركيغارد يميز بين الوجود في داخل الحشد، والوجود المنعزل فالوجود في داخل الحشد هو الوجود الزائف الذي يختبئ وراء جموع المصلين في الكنيسة تارة، أو يختبئ وراء الحشد في الشارع تارة أخرى، وهو في الحالتين إنما يهرب من المسؤولية ومن عبئ الحرية، لأنه يقول ما يقوله الحشد ويعتقد ما يعتقد الحشد أنه الصواب، وبهذا فإن الفرد يذوب في المجموع معتمداً على أن السير مع القطيع هو الحقيقة التي ينبغي له أن يتبعها وهو في ذلك لا يختلف عن أي حيوان، وفي ذلك إلغاء لوجوده البشري الذي يعني التفرد والحرية والمسؤولية، أما الوجود المنعزل عند كيركيغارد فهو مرادف للوجود الأصيل، لأنه الوجود الوحيد القادر على تحمل العزلة، والقلق وممارسة الحرية⁽²⁾، فالاغتراب إذن عند كيركيغارد يتضح من خلال عبودية الإنسان للمجموع، وانفصاله عن ذاته، والاغتراب عند فروم هو مخالفة الذات الأصلية والوقوع تحت تأثيرات الذات الزائفة ولكن متى يكون المرء ذاتاً أصيلة، ومتى يخفق في ذلك: يرى شاخت أن بإمكان المرء أن يطرح السؤال التالي هل يتمتع في الحقيقة بهوية فريدة وغير قابلة للتكرار؟ وهل هو شخص مفكر وعاشق وقادر على الإحساس؟ وهل هو حقيقة شخص خلاق ومبدع لأعماله الخاصة؟ وهل هو حقاً موضوع تجاربه وفكره وقراراته؟

ويجب شاخت أنه إذا كان الأمر كذلك فإن ذلك الفرد يغدو في نظر فروم قد حقق ذاته الأصلية، أما إذا كان الأمر خلاف ذلك فإن الفرد لا يكون قد حقق ذاته الأصلية، ومن ثم فهو يغترب عن ذاته وحياته والاغتراب بهذا المفهوم عند فروم لا يختلف كثيراً عن الاغتراب عند هيجل وماركس، فمفهوم (فروم، هيجل، وماركس) قد يمكن تفسيره من خلال التباعد بين النحو الذي يعيش عليه المرء،

(1) ينظر: د. حسن محمد حسن حماد - الاغتراب - عند إيريك فروم - مرجع سابق - ص: 71.

(2) ينظر: إيريك فروم - الخوف من الحرية ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد - مرجع سابق - ص: 155.

والكيفية التي ينبغي أن يكون عليها وهذا هو المعنى الذي يريد فروم استخدامه لمعنى الاغتراب فالاغتراب عنده هو إخفاق المرء أن يكون نوعية الذات التي ينبغي أن يكون عليها. (1)

وقد لاحظنا أن فروم قد عدد مظاهر كثيرة تسبب حالة الاغتراب لدى الإنسان المعاصر كالعمل الاضطرابي أو العمل من أجل الهروب من الفراغ، والخضوع للصناعات الحديثة كالدولة والحزب، والجمعيات المدنية والسوق الاستهلاكية، والآلة المنتجة وعبادة الشخصية السياسية أو الاجتماعية أو الفنية أو الرياضية أي كل ما يسلب منه التفكير الحر فهو صنم لا يقل عن الصنمية في العهود القديمة. (2)

وقد دعا إلى الإيمان على نحو يساعد الإنسان على الانعتاق من عسف الاغتراب، وأكد مع أديان التوحيد على إبراز المعاني الروحية السامية التي تمنح الفرد الانعتاق من الوهم والعبودية الصنمية، تلك المعاني التي تكون لها قوة الدفع، يقول فروم " مما لا شك فيه أن تعاليم ديانات التوحيد العظيمة تؤكد على الأهداف الإنسانية التي تكون هي نفسها الأهداف التي تحقق الاتجاه المنتج، إن هدف هذه الديانات هو التأكيد على كرامة الإنسان كهدف وغاية في ذاتها، وعلى الحب الأخوي، وعلى العقل، وعلى الارتفاع بالقيم الروحية فوق القيم المادية" (3)

إن الاغتراب ظاهرة إنسانية كما أشرنا سابقا لا تختص بزمان أو مكان معينين، وإنما هي ظاهرة عامة في كل العصور والأمم، وإن كانت مظاهرها تخبو وترتفع بحسب المجتمع وآليات وأنماط حياته السياسية والاجتماعية والثقافية، وهي من جهة أخرى لا ترتبط بالطبقة المستتيرة المثقفة ثقافة عالية فحسب، بل هي ظاهرة شمولية نجدها عند المثقف وعند الجندي، وعند الفلاح

(1) ينظر: ريتشارد شاخنت - الاغتراب - مرجع سابق - ص 191-192.

(2) ينظر: د. حسن محمد حسن حماد - الاغتراب عند إيريك فروم - مرجع سابق - ص: 153-154.

(3) Fromm: the sane society.

نقلا عن حسن محمد حسن حماد - الاغتراب عند إيريك فروم - ص: 148.

وعند المتسول، وعند الغني كما هي عند الفقير وتبرز في قمة المجتمع كما تظهر في قاعدته، تختلف باختلاف المجتمع والبيئة وتتلون بألوان البداوة والحضارة، ظاهرة لا يفوتها زمن ولا يفوتها مكان تظهر حيث يكون الإنسان، فالاغتراب ليس نقمة وليس نعمة، هو مكون من مكونات المجتمعات البشرية قديما وحديثا.

المبحث الثاني: الاغتراب عند العرب قبل الإسلام

قد أشرنا سالفاً إلى أن الاغتراب زماني اجتماعي؛ لا يخلو منه دهر ولا تخلو منه أمة وإن تباينت أسبابه ومظاهره من زمن إلى آخر ومن حضارة إلى أخرى بل ومن فرد إلى فرد وهكذا... ولما كان العرب أمة من الأمم، ونحن بصدد دراسة شخصية عربية إسلامية متمثلة في الإمام علي رضي الله عنه، فقد توجب علينا أن نقف عند مفهوم الاغتراب عند العرب والمسلمين، وسنبداً بالمعنى اللغوي وننتهي بمظاهر الاغتراب عند الجاهليين، ثم بمفهوم الاغتراب عند المسلمين.

المعنى اللغوي: جاء في القاموس الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة في مادة

غرب ما يلي: غَرَبَت الشمس غُرُوبًا.

اختفت في مَغْرِبِها، وَغَرَبَ فلان: غاب، وَغَرَبَ القوم: ذهبوا، وَغَرَبَ عنه تنحى، يقال: اغرب عني، وغرب فلان غَرْبًا، وَغُرْبَةً بعد عن وطنه.

وَوَغَرَبَ الشيء غَرْبًا: اسود، وَغَرَبَت العين: ورمت مآقيها. وَغَرَبَتِ الشاة والفرس: أصابهما داء الغرب.

وَوَغَرَبَ عن وطنه غَرَابَةً، وغربة: ابتعد عنه وَغَرَبَ الكلام غَرَابَةً: غمض وخفي فهو غَرِيب (ج) غرباء وهي غريبة: (ج) غرائب. وَأَغْرَبَ: أتى الغرب، وَأَغْرَبَ صار غريبًا، وَأَغْرَبَ: ارتحل، وَأَغْرَبَ: جاء بالشيء الغريب وَأَغْرَبَ في كلامه: أتى بالغريب البعيد عن الفهم، وَأَغْرَبَ في الأرض: أمعن فيها، فسافر سفرا بعيدا، ويقال رمى فأغْرَبَ: أبعد المرمى وَأَغْرَبَ في الضحك: بالغ وَأَغْرَبَ الرجل الأسمر: ولد له ولد أبيض، وَأَغْرَب فلان: كثر ماله وحسنت حالته، ويقال: أغرب فلان: كثر ماله وحسنت حالته، ويقال: أغرب المال وأغْرَبَ الحال.

وَأَغْرَب الشيء: نحاه وأبعده.

(غَرَّبَ) في الأرض: أمعن فيها فسافر سفرا بعيدا، وَغَرَّبَ القوم: ذهبوا ناحية المغرب، قال الشاعر:

سارت مغربة وسرت مشرقا شتان بين مشرق ومغرب

وَعَرَّبَتِ الْمَرْأَةُ السَّمْرَاءُ، أَتَتْ بِنَيْنَ بَيْضَ، وَعَرَّبَتِ الْوَحْشَ فِي مَغَارِبِهَا غَابَتْ فِي مَكَانِهَا.

وَعَرَّبَ فَلَانًا: أَبْعَدَهُ وَنَحَاهُ، وَعَرَّبَ الدَّهْرَ فَلَانًا وَعَلَيْهِ: تَرَكَهُ بَعِيدًا.
(اعْتَرَبَ): نَزَحَ عَنِ الْوَطَنِ، وَاعْتَرَبَ: احْتَدَّ وَنَشَطَ، وَاعْتَرَبَ فَلَانٌ: تَزَوَّجَ فِي غَيْرِ الْأَقَارِبِ، وَفِي الْحَدِيثِ "اعْتَرَبُوا لَا تَضُوءُوا".
(تَعَرَّبَ): نَزَحَ عَنِ الْوَطَنِ.

(اعْتَرَبَ) الرَّجُلُ فِي الضَّحْكِ: بَالِغٌ فِيهِ، وَيُقَالُ: اسْتَغْرَبَ عَلَيْهِ الضَّحْكَ: اشْتَدَّ ضَحْكَهُ وَأَكْثَرَ مِنْهُ، وَاسْتَغْرَبَ الدَّمْعُ: سَالَ، وَاسْتَغْرَبَ الشَّيْءُ: وَجَدَهُ أَوْ عَدَهُ غَرِيبًا.
و (الْغَارِبُ) مِنَ الْبَعِيرِ : مَا بَيْنَ السَّنَامِ وَالْعُنُقِ وَهُوَ الَّذِي يُلْقِي عَلَيْهِ خَطَامُ الْبَعِيرِ إِذَا أُرْسِلَ لِيَرْعَى حَيْثُ شَاءَ، وَيُقَالُ لِلْإِنْسَانِ: حَبْلُكَ عَلَى غَارِبِكَ: أَذْهَبَ حَيْثُ شِئْتَ، وَهُوَ مِنْ كُنَايَاتِ الطَّلَاقِ أَيْضًا، وَالْغَارِبُ: أَعْلَى كُلِّ شَيْءٍ (ج) غَوَارِبُ، وَغَوَارِبُ الْمَاءِ: أَعَالِي مَوْجِهِ وَالْغَارِبَانِ: مَقْدَمُ السَّنَامِ وَمُؤْخَرُهُ.

(الْغَرَابُ): جَنْسٌ طَيْرٌ مِنَ الْجَوَائِمِ يُطْلَقُ عَلَى أَنْوَاعٍ كَثِيرَةٍ: مِنْهَا الْأَسْوَدُ، وَالْأَبْقَعُ، وَالزَّرَّاعُ، وَالْغَدَافُ، وَالْأَعَصَمُ، وَالْعَرَبُ يَتَشَاءَمُونَ بِهِ إِذَا نَعَقَ قَبْلَ الرِّحِيلِ، فَيَقُولُونَ: غَرَابُ الْبَيْنِ وَيَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلَ فِي السَّوَادِ وَفِي الْبُكُورِ وَالْحَذَرِ، وَالْبَعْدُ، يَقُولُونَ "بَكَّرَ بَكُورَ الْغَرَابِ" وَ"فَلَانٌ أَحْذَرُ مِنَ الْغَرَابِ" وَ"دُونَ هَذَا شَيْبَ الْغَرَابِ" وَيُقَالُ: طَارَ غَرَابُهُ: شَابَ وَأَرْضُ لَا يَطِيرُ غَرَابُهَا: خَصْبَةٌ (ج) غَرِبَانٌ وَأَغْرَبُ، وَأَغْرَبَةٌ. وَالْغَرَابُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَوَّلُهُ وَحْدَهُ، يُقَالُ: غَرَابُ الْفَأْسِ، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

(الْغَرَبُ): جِهَةٌ غُرُوبِ الشَّمْسِ، وَالْغَرَبُ: الْبِلَادُ الْوَاقِعَةُ فِيهِ، وَهِيَ مَا تَقَابَلُ بِلَادُ الشَّرْقِ وَالْغَرَبُ: أَوَّلُ كُلِّ شَيْءٍ وَحْدَهُ يُقَالُ غَرَبُ السَّيْفِ وَالسَّكِينِ وَالْفَأْسِ وَنَحْوُ ذَلِكَ. وَالْغَرَبُ: النِّشَاطُ وَالتَّمَادِي فِي الْأَمْرِ، وَالْغَرَبُ: الْحِدَّةُ يُقَالُ: فِي لِسَانِهِ غَرَبٌ، وَأَخَافُ عَلَيْهِ غَرَبُ الشَّبَابِ. وَسَيْفٌ غَرَبٌ: قَاطِعٌ حَادٌ، وَفَرَسٌ غَرَبٌ: مَتْرَامٌ بِنَفْسِهِ مُتَتَابِعٌ فِي ارْتِفَاعِهِ وَعَدْوِهِ، وَالْغَرَبُ: الدُّلُ الْعَظِيمَةُ تَتَخَذُ مِنْ جِلْدِ ثَوْرٍ، وَالْغَرَبُ: الدَّمْعُ. وَالْغَرَبُ: مَسِيلُهُ.

وَالْغَرْبُ مؤخر العين. وَالْغَرْبُ: مقدمها، وَالْغَرْبُ: كثرة الريق في الفم، ويقال أصابه سهمُ غَرْبٍ، وسهم غرب: لا يدرى راميهِ (ج) غروب.

وَالْغَرْبُ الذهب، والغرب الفضة وَالْغَرْبُ: القدح وَالْغَرْبُ: الخمر، وَالْغَرْبُ: الماء يقطر من الدلو بين الحوض والبئر وتتغير ريحه سريعا، وَالْغَرْبُ: ضرب من الشجر تسوى منه السهام، والغرب: داء يصيب الشاة يتساقط منه شعر خطمها وعينيها. ويقال بعينه غرب: إذا كانت تدمع ولا ينقطع دمعها.

(الْغَرْبَةُ): النوى والبعد، وَالْغَرْبَةُ: الحدة.

(الْغَرْبَةُ): النوى والبعد، وَالْغَرْبَةُ: بياض صرف.

(الْغَرْبِيُّ) من الشجر: ما أصابته الشمس بحرّها عند أفولها.

وَالْغَرْبِيُّ: المنسوب إلى الغرب.

(الْغَرْيْبُ): غير المعروف أو المألوف، والغريب: الرجل ليس من القوم، ولا من البلد (ج) غرباء.

(الْمَغْرِبُ): مكان غروب الشمس، وزمان غروبها، وَالْمَغْرِبُ: جهة غروبها، وبلاد الْمَغْرِبُ: البلاد الواقعة في شمال إفريقيا غربي مصر، والمغربان: المغرب والمشرق (على التغليب) كالمشرقين، للشرق والغرب.

(والمغرب) كل ما وارك واسترك، وعنقاء مُغْرَبٌ، وَمُغْرَبَةٌ (بالوصف) وعنقاء مُغْرَبٍ بالإضافة طائر عظيم يبعد في طيرانه، وقيل إنه طائر وهمي يضرب به المثل في طلب المحال الذي لا ينال.

(الْمُغْرَبُ): شأ وَمُغْرَبٌ: بعيد، وهل من مُغْرَبَةٍ خَيْرٌ، هل من خبر جديد جاء من بلد بعيد.

(الْغَرْيِبُ) نوع جيد من العنب، والشيخ: يسود لحيته، وَالْغَرْيِبُ: الشديد السواد وكثيرا ما

يجيء تأكيدا، فيقال: أسود غَرْيِبٌ، وفي التنزيل العزيز (وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ

أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ) فاطر آية 27⁽¹⁾.

⁽¹⁾ ينظر: المعجم الوسيط- مجمع اللغة العربية- القاهرة- دار عمران- الجزء الثاني- الطبعة الثالثة 1995- ص 670-672.

وجاء في مختار الصحاح في مادة: غ ر ب (الغربة الاغتراب) تقول (تغرب) و(اغترب) بمعنى فهو (غريب) و(غُرْبٌ) بضمّتين والجمع (الغُرَبَاءُ)، والغُرَبَاءُ أيضا الأبعاد.

و(اغْتَرَبَ) فلان إذا تزوج إلى غير أقاربه، وفي الحديث "اغْتَرَبُوا لَا تَضُوءُوا". و(التغريب) النفي عن البلد. و(أُغْرِبَ) جاء بشيء غريب وأُغْرِبَ صار غريبا، وأسود غُرَيْبٌ بوزن قنديل أي شديد السواد والغربُ والمغربُ واحد و(غَرَبَ) بعد، يقال (اغْرُبْ) عني أي تباعد، و(غَرَبَتِ) الشمس، وبابها دخل، و(الغَرَبُ) بوزن الضرب الدلو العظيمة و(غَرُبَ) كل شيء أيضا حده، و(الغارب) ما بين السنام إلى العنق ومنه قولهم: حبلك على غاربك: أي اذهب حيث شئت⁽¹⁾.

وإذا أمعنا الفكر في ما جاء من معاني الغربة والاغتراب وما اشتق منهما في المعجمين السابقين وجدنا كثيرا من المعاني، منها البعد والنفي، والنزوح عن الوطن والغياب، والطلاق، والغموض في الكلام والمبالغة، والتفرد، وعدم وجود النظير، والبعد في النسب، والتناهي في الشيء وبلوغ أقصاه، ومنها أعلى الشيء والسواد الشديد، والبياض الشديد، ومنها القلة والندرة، ومنها الاستحالة (حتى يشيب الغراب).

وعلى الرغم من كثرة هذه المعاني واختلافها إلا أنه يمكن ردها إلى معنى واحد تقريبا، وهو البعد والمفارقة والتباين، أو الانفصال عن شخص ما أو عن شيء ما، فغروب الشمس مثلا غيابها، والنفي عن البلد، البعد عنه، والطلاق هو إبعاد الزوجة، وغموض الكلام بعده عن الفهم والقلة والندرة تعني مفارقة غالبية الناس، والانفصال عنهم في صفة وأكثر، والمبالغة تعني المفارقة للمألوف وسميت الدموع غروبا لمفارقتها للعين، والعنقاء المغرب هو الطائر الذي يبعد في طيرانه، أو هو طائر وهمي، ومعناه التفرد الشديد عن الأقران بحيث لا يكاد يوجد من مثله لشدة تميزه وندرته.

كما نلاحظ أن لفظ الغربة والاغتراب يلقي على الأشخاص كما يلقي على الأشياء، فالكلام الغامض: غريب لم يفهمه العامة، والقدر غريب ربما لتفرده بزخارف نادرة

⁽¹⁾ ينظر: الإمام الرازي مختار الصحاح - عني بترتيبها محمود خاطر طبعة دار المعارف 1983 - د ط - ص 471-470.

ورجل غريب بمعنى بعيد عن وطنه، ورجل غريب أيضا أي بعيد النسب بين القوم الذين يعيش بينهم، والرجل شديد الحذر (أحذر من غراب) لملازمته التفرد في الحركة الاجتماعية.

ونخلص إلى أن الغربة والاعتراب تدلان على التفرد، الانفصال، البعد، الاستحالة (المحال) الدوام (أرض لا يطير غرابها) أي دائمة الخصب، والخلاصة أن الغربة والاعتراب تحول مستمر في الأحوال والأشياء.

مظاهر الاعتراب عند الجاهليين:

ومن نافلة القول وقبل أن نمضي إلى موضوعنا- الاعتراب عند الإمام علي من خلال نهج البلاغة- أن نخرج على مظاهر الاعتراب- ولو باقتضاب- عند الجاهليين، وذلك باعتبار الاعتراب ظاهرة إنسانية عامة، تختلف في تجلياتها من عصر لآخر، ومن شخص إلى شخص، ومن بيئة إلى أخرى، ثم نقف عند مفهوم الاعتراب في الإسلام. فالوقوف على الأطلال في مطالع قصائد الجاهليين تجلي واضح لاغتراب الشعراء، اغتراب يكشفه البكاء ويستتطقه الغياب والفقدان، غياب الأحبة وفقدان دفيء المحبة والوصال بقول امرؤ القيس في مطلع معلقته.

قفنا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال
وقوفا بها صحبي علي مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل
وإن شفائي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول⁽¹⁾

فامرؤ القيس يستوقف هنا صاحبيه، أو يجرد من نفسه أشخاصا يخاطبهم على عادة الشعراء، ليفضي من خلال ذلك بهوممه، فالديار أقفرت بالدخول وحومل، وهو تخنقه العبرة وصاحباه يطلبان منه التصبر واحتمال الفراق، ونفسه تحثه على البكاء عليه يجد راحة وعزاء، ولكن هل لسفح الدموع أمام آثار الديار من فائدة، لاشك أن

(1) امرؤ القيس- الديوان- دار الطباعة والنشر ببيروت 1972- ص 29، 30. السقط: منقطع الرمل المستنق من طرفه. اللوى: الرمل الملتوي في تجمعته. الدخول وحومل: موضعان.

الإجابة: لا ولذلك تبقى صورة الماضي تلاحقه، وصورة الحاضر
تؤرقه فيمسي ويصبح ضائعا تنتهبه الأشجان وتحاصره الذكريات
وتنتهبه الأماني، والزمان ماض لا يأبه به وبأمثاله فلم كانت الحياة
كذلك؟

ونمضي مع امرئ القيس فحين فجع بوالده مقتولا بأيدي بني أسد قاتلهم فما بلغ ما
يريد من قتلهم، لقلّة ذات اليد، فاتجه إلى قيصر الروم للاستجداد به، فلما أوغل في
الطريق، وهو مدفوع من الخلف ولا يستطيع الرجوع إلا إذا أتم عمله- الأخذ بثأر أبيه
وقتل أكبر عدد ممكن من بني أسد- تذكر أهله وانتهفته الفاجعة لفراقهم فقال:

تذكرت أهلي الصالحين وقد أتت على خملي خوص الركاب فأوجرا
فلما بدت حوران والآل دونها نظرت فلم تنظر بعينك منظرا
تقطع أسباب اللبانة والهوى عشية جاوزنا حماة و شيزرا⁽¹⁾

إذن انفطر قلب الشاعر بمجرد أن أوغلت به السبل حيث هو مدفوع وتقطعت كل
سبل الاتصال بأحبابه بعد أن نأى به البعد أصبح السراب يحجب عنه ما ألفه من مدن
وبلدات، وكان هذا السراب نذير شؤم له، فقد عاد بلا مدد من الروم، ومات في الطريق
بمكان يسمى عسيب وقبل أن تفارقه روحه رأى قبر فتاة رومية وأيقن أنه سيدفن بجانبها
فقال:

أجارتنا إن الخطوب تنوب وإني مقيم ما أقام عسيب
أجارتنا إنا غريبان هاهنا وكل غريب للغريب نسيب
وليس غريبا من تناعت دياره ولكن من وارى التراب غريب⁽²⁾

وهنا يكشف امرؤ القيس عن فلسفته عن الغربة أو لنقل مراتب الغربة " فهو
غريب يدفن ببلاد غربة والمرأة المدفونة قبله غريبة عنه، وفوق هذه الغربة غربة
الموت! المجهول القاحل للشاعر، ولمن يقرأ شعره، أكان امرؤ القيس يؤمن بنوع من

(1) امرؤ القيس - الديوان - مرجع سابق-ص:93. خملي وأوجرا: موضعان حوران-وشيزر وحماة: أسماء
بلدات.

(2) المصدر نفسه- ص: 79.

البعث والنشور؟ أم كان دهرى؟ لا يمكن التكهن، التكهن الوحيد هو أن امرئ القيس عانى التمزق والضيق والموت حسرة وفي النفس أشياء.

وإذا انتقلنا إلى نمط آخر من الاغتراب الذي عاشه العربي قبل الإسلام، والذي فرضته البيئة الاجتماعية والعرف العام، وهو الاغتراب العنصري ويمثله عنتر بن شداد أحسن تمثيل فأبوه عربي صميم من بني عبس وأمه زبيبة حبشية سوداء اللون وأمة، فأبى

والده أن يستلحقه بنسبه لأن ذلك يجر عليه العار، فأورث هذا السلوك اغترابا عميقا في نفسية عنتر، فما له وللأقدار التي جاءت به على هذا الشكل؟ وما بال قومه يرضونه راعيا لأنعامهم ويسلبونه حق المواطنة؟ وعندما يجسد بمثابرتة وقوة نفسه قهر هذا الاغتراب ويصبح فارس عبس الأول وبطلها الأمد الذي بنى مفاخرهم بين القبائل إذا بهم ينزلونه بحيث كان فيثور، ويثور معه الشعر ناقلا لنا أحاسيس العنصرية والفئوية العرقية البغيضة.

يقول:

يعيبون لوني بالسواد جهالة ولولا سواد الليل ما طلع الفجر⁽¹⁾

وأعتقد أن في البيت فخرا بقدر ما فيه من الحزن على لونه الذي جعله قومه عنوانا على ضعفه وانحطاط منزلته عندهم، ولكنه يرى - وإن وخزه ذلك - صاحب هذا السواد هو الذي يأتيهم بالنصر، فلولا وجوده لطل ظلام عبس وأحزانها التي جلبتها عليها حروبها مع ذبيان وغيرها، فالمعارك ظلام على عبس وعنتر جلاؤها. ولكن السنة قومه تأبى السكوت وتمادت في الحط من قدره فذكرهم أمجاده، التي اعتبروها أمجادهم؛ إذ لولاه لما كانت يقول:

أذكر قومي ظلهم وبغيهم وقلة إنصافي في القرب والبعد
بنيت لهم بالسيف مجدا مشيدا فلما تناهى مجدهم هدموا مجدي⁽²⁾

(1) عنتر بن شداد - الديوان - تحقيق عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي - المكتبة التجارية القاهرة - د. ط - ص: 89.

(2) المصدر نفسه - ص: 62.

ففي هذين البيتين صور عنصرة لؤم الناس - خلق بشري دائم - وحرصهم على ما ينفعهم ودرء ما يؤذيهم بكل طريقة، ولو أدى بهم الأمر إلى ما يكرهون، ولكن ما إن حصلوا على ما أرادوا حتى ينقلبوا على أعقابهم ويعودوا إلى ذواتهم الحقيقية المفعمة بالتحالي الزائف والفخر بما ليس لهم فيه يد أو حيلة، ولكن عنصرة ظل كالجبل الأشم فهو يدرك حقيقة نفسه كما يدرك حقيقة الآخرين، فما برح يعمل على المستويين الداخلي والخارجي حتى حقق ذاته وتغلب على حماقة قومه وقهر الاغتراب أو كاد يقول:

يدعون عنصرة والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم
ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنصرة اقدم⁽¹⁾

ويمكن أن نعتبر هنا نداء الفرسان له بالأقدام والهجوم على العدو أجمل نغم سمعته أذناه وطربت له، إذ أن نداءهم كأنما يعلن للملأ أن القوم يهرعون إليه عندما يصيبهم الضنك وتضييق عليهم الحياة ويشرفون على الهزيمة، وفي ذلك النداء لا يتساوى عنصرة ومن يعتبرونه عبداً، بل إنه يفوقهم بإعلان منهم!!

وهناك فئة ثالثة من الناس عاشوا في الجاهلية غرباء فاغتربوا! إنهم الشعراء الصعاليك، فهذه الفئة من الناس فرضت عليها حياة متميزة، فبعضهم فرض عليهم الاغتراب وخلعوا عن قبائلهم لأنهم لم يلتزموا بأعراف قبائلهم وتقاليدها، وبعضهم فرض عليهم لأنهم أبناء إماء سود كالشنفري وتأبط شرا، والسليك بن السلكة.

وبعض الصعاليك اختاروا الاغتراب طواعية عن قبائلهم بسبب الظلم الاجتماعي والاقتصادي المسلط عليهم، ويمثل هذه الفئة؛ الصعاليك الفقراء، المتمردون، وعلى رأس هؤلاء عروة بن الورد العبسي، وكما كان الصعاليك أفراداً من قبائل مختلفة، كانت هناك قبائل متصلة كلها مثل قبيلة هذيل التي كانت تنزل حول مكة، وقبيلة فهم التي كانت تنزل حول الطائف⁽²⁾ ومهما اختلفت الأسباب المؤدية إلى اغتراب هؤلاء الناس إلا أن

(1) عنصرة بن شداد - الديوان - ص: 45.

(2) ينظر: د. شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي - دار المعارف - مصر ط 5 1971 - ص 375.

هناك ما يجمعهم، فقد جمع بينهم الفقر والجوع، والتشرد، وقد كثرت أشعارهم التي ذكرت الجوع كثرة مفرطة، وقد يكون ذلك سبب تمردهم فاتخذوا القوة وسيلة لتحقيق أهدافهم لأنه لم يعد لهم من سبيل غير ذلك، لأنهم فقدوا توافقه الاجتماعي و"ظاهرة التوافق الاجتماعي هي الظاهرة التي يقرر علماء الاجتماع أنها الأساس، الذي تقوم عليه الصلة بين الفرد والمجتمع، بحيث يكون عمل الفرد من أجل صالح المجموع، كما يكون عمل المجموع لصالح الفرد، وفقدان هذا التوافق الاجتماعي ينتهي بالفرد عادة إلى أن تكون صلته بمجتمعه قائمة على أساس سلوك صراعي"⁽¹⁾.

وقد أدى هذا التصدع بين الصعاليك والمجتمع القائم إذن إلى بروز الأسباب التي دعت هؤلاء الصعاليك إلى مسلكهم ذاك وقد بدا ذلك في أشعارهم، فمن ذلك الفقر الذي يجعل الإنسان في أسفل السلم الاجتماعي، ويجعل الغني في أعلاه يصور ذلك عروة بن الورد في أبيات يخاطب فيها زوجته يقول:

دريني للغنى أسعى فإني	رأيت الناس شرهم الفقير
وأحقرهم وأهونهم عليهم	وإن أمسى له حسب وخير
يباعده القريب وتزدرية	خليلته وينهره الصغير
ويلقى ذو الغنى وله جلال	يكاد فؤاد لاقية يطير
قليل ذنبه والذنب جم	ولكن الغنى رب غفور ⁽²⁾

فالأبيات كما نرى تفضح هذا المجتمع الذي لا يهتم بجوهر الإنسان وأخلاقه، بل يتمسك بالمظاهر المادية فهو - المجتمع - يحتقر الفقير لا لذنب سلف منه ولكن فقط لأنه فقير، ومن الكبير والصغير وحتى من الزوجة، بينما يغفر الغنى كل عيوب الإنسان مهما كثرت، وهي مقاييس جاهلية، وليس المراد بالجاهلية، الفترة الزمنية المعروفة، بل الجاهلية بمعنى الانصراف عن جوهر الحقائق الثابتة، وإتباع المظاهر الزائفة، وما أكثرها، فهذا عروة بن الورد الفقير يتصعلك ويقطع الطريق على الناس ويسعى لإسعاد

(1) د. يوسف خليف - الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي - ص 55-57. نقلا عن د. سميرة سلامي - الاغتراب في الشعر العباسي - دار الينابيع دمشق عروة بن الورد الديوان دار صادر بيروت 1953 - ص: 58.

(2) عروة بن الورد - الديوان - دار صادر بيروت 1953 - ص: 58.

الفقراء والمساكين بما تصل إليه يده من خير، ويلجئ نفسه عن الاستفادة من ذلك لأن نفساً أبية تسكن ذلك الجسم الشاحب المرهق، تربؤ به أن يدع الفقراء واليتامى يتضورون جوعاً ويأكل ما يأكل هنيئاً، يقول مخاطباً رجلاً يسخر من شحوبه وذبوله.

أتسخر مني أن سمئت وأن ترى بوجهي شحوب الحق والحق جاهد
أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد⁽¹⁾

ففي هذين البيتين "تصوير رائع لفكرة إنسانية رفيعة، فهو يرد على من يسخر من شحوبه ونحوه، بأن شحوبه أثر من آثار كرمه وعدله ومثله العليا، طعامه يشركه فيه كل الفقراء المحتاجين، فكأنه يقسم جسمه في جسومهم، والخلق بالسخرية ذلك السمين الشحيح، الأناني الذي لا يشرك أحداً في طعامه وماله"⁽²⁾ ونلاحظ في البيتين السابقين دعوة إنسانية قديمة حديثة وهي العدل والمساواة والتكافل الاجتماعي، وبذلك يكون الشاعر الصعلوك أول من دعا إلى اشتراكية بين الناس بل أول من طبقها وإن في محيطه الخاص.

وإذا انتقلنا إلى الشنفرى وجدنا عالماً آخر من الاغتراب القاسي، فهو أولاً ولد من أمة سوداء فأورثته سوادها ومعنى هذا أنها أورثته العار بحسب مقاييس القبائل في ذلك الزمان، فنشأ نشأة غير سوية، وكيف تكون سوية ونظرات الاحتقار لا تفارقه والكلام البذيئ هو ما يملأ مسمعه، فنشأ ناقماً على كل شيء؛ على العالم والأقدار لأنها خصته بالسواد وبالتالي بالهوان فلماذا كان ذلك؟ ثم لماذا خص مرة أخرى بالاحتقار من المجتمع ألا يكفيه سواده بين أناس بيض؟ ثم ما الذي جنته يده حتى تتخلى عنه قبيلته حتى يحن إلى الوحش بدلها؟ لاشك أن التمييز العنصري الذي كان فاشياً عند العرب في الجاهلية تجاه كل من هو أسود كان النبتة التي نمت وتفرعت وسكنت كل جوانحه فحقد على قومه حقداً دفيناً ثم اجترم جرماً لم يذكره الرواة ما هو فازداد عنه ازوراراً، فلما رأى ذلك واستيقن بثقله على القوم خاطبهم بقوله:

(1) عروة بن الورد - الديوان - ص: 31-32.

(2) د. سميرة سلامي - الاغتراب في العصر العباسي - دار الينابيع ط1 2000 - ص: 78.

أقيموا بني أُمي صدور مطيكم فإني إلى قوم سواكم لأميل
لعمرك ما في الأرض ضيق على امرئ سرى راغبا أو راهبا وهو يعقل
ولي دونكم أهلون سيد عملس وارقط زهلول وصفراء جيال
هم الأهل لا مستودع السرذائع ولا الجاني بما جر يخذل⁽¹⁾

لقد طالب الشنفري قومه بالرحيل والابتعاد عنه، أما هو فقد عزم على المغادرة؛
وماله لا يفعل؟ ففي الأرض متسع وبعد عن البشر لكل إنسان سيم ذلا وظلما، فلماذا لا
يرحل والفضاء الرحب يوفر لأمثاله من الراغبين أو الهاربين كل ما يحتاجون إليه من
السكينة والمنعة إذا عجزت قبائلهم عن فعل ذلك أو كانت السبب في ذلك الإرهاق
والدعوة إلى التحول وللتحول مزايا، ففي الفيافي أهل، وأي أهل ، لا نميمة بينهم ولا سر
يكشف ولا المذنب يؤخذ بذنبه أو يسلم لغيره، إنها الطبيعة في تمام عذريتها لم يدنسها
نفاق الإنسان، فهو أحق بها من غيره فهو مدفوع بشر البشر وغدرهم، فليتخذ حيوانات
القفار أهلا فهل في صحبه الذئب أو النمر أو الضبع ما يشين، بالطبع لا، فهي لا تفشي
الأسرار ولا تتعالى على الآخرين بالمجد الزائف ولا تأكل إلا حين تجوع، فهي لا تجمع
الذخائر ولا ترفع طعام اليوم إلى غد، فلكل أوان حركة ولكل فعل ما يماثله، فمن جاع
منها اصطاد وإن شبع أوى إلى مأواه لا يجمع ولا يطمع.

ويبدو أن الشنفري قد تحرى كثيرا في حياته فوجد أوفق شيء يفعله أن يعتزل
المجتمع وأن يوطن نفسه على ذلك مع ما يستتبع ذلك من توحّد وانفراد، وخوف وجوع
ووحشة وقد صور ذلك كله في لاميته، يقول عن فقدّه لمن يجزيه عن الحسنى:

وإني كفاني من ليس جازيا بحسنى ولا في قربة متعلل
ثلاثة أصحاب فؤاد مشيع وأبيض إصليت وصفراء جيال⁽²⁾

فقد استعاض عن ليس في صحبته نفع وإحسان بثلاثة أصحاب قلب شجاع لا يأبه
لما يلقي، وسيف صقيل حاد أعده لمن عاداه، وقوس صفراء طويلة، تنطلق منها السهام
حيث أراد، وما أفضلها صحبة، فهو لا ينوء بها أبدا، بل تقدم له كل ما يحتاجه، فبالقلب

(1) ينظر: أبو علي القالي - كتاب ذيل الأمالي - دار الأفاق الجديدة - بيروت 1980 - ص 305.

(2) المرجع نفسه - ص: 303-304.

الشجاع يسري في الظلام إذا انجر كل شخص في بيته، وبالسيف ينافح عن نفسه من أراد به سوءاً من الإنسان أو الحيوان، وبالقوس يرسل سحائب من نباله على من يشاء من أعدائه والشنفرى بشر يصيبه ما يصيب الناس وبخاصة من كان في مثل وضعيته فكثيراً ما يصاب بالجوع الشديد فلا يجد ما يسكن به ألمه إلا أن يستف التراب يقول:

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل
وأستف ترب الأرض كي لا يرى له علي من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الذام لم يلف مشرب يعاش به إلا لذي ومأكل⁽¹⁾

إنه يصاب بالجوع ولا يجد ما يأكل فيماطل نفسه ويسوفها حتى ينساه، أو يكاد وحين يشتد عليه يجد في التراب زادا له، ولولا خوفه من الذم لسأل من يطعمه ، ولكنه يأبى ذلك حتى لا تكون للإنسان عليه منة.

وهكذا نرى من خلال النماذج الثلاثة التي قدمناها (عنتر، عروة بن الورد، الشنفرى) أن الصعلوك قد استطاع أن يتغلب على اغترابه عن طريق البطولة والفروسية، وعن طريق الإغارة وإفزاز من أفزعه وأرهبه، أو عن طريق رسم طريقة جديدة في الحياة الاجتماعية وذلك بإغاثة الفقير وإعانة المسكين وإدخال الفرحة على أصحاب القرح، أو عن طريق مقاطعة الناس والاستئناس بالوحش إذا كان قدر الإنسان قد هياه لذلك أليس قال شاعرهم:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطيّر⁽²⁾

لقد اكتسبوا طبعاً ثانياً، رضوه لأنفسهم، بتحقيق ذواتهم والتغلب على اغترابهم، لأنه لم يهنأ لهم مقام بين قومهم فتحولوا، فتحولوا
المبحث الثالث: الاغتراب عند المسلمين

إن الاغتراب حركة زمنية في النفس، لا تدع الإنسان في وضع ثابت في كل وقت، فللدهر صروف، وللأحداث آفات وحركات، والتفاعل بين الإنسان ومحيطه لا

(1) أبو علي القالي- كتاب ذيل الأمالي- مرجع سابق - ص:304.

(2) المرجع نفسه- ص305.

يخفى على أحد، فما من حدث إلا وتكون النفس له مجالا، وتكون حركاتها الداخلية والخارجية لها امتثالا إيجابيا أو سلبيا.

لقد جاء في حديث مشهور لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبروايات متعددة قوله (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء)⁽¹⁾ هذا هو النص المتفق عليه، وقد أورد ابن قيم الجوزية هذا الحديث بطرقه المختلفة عند حديثه عن الغرباء، وأهل الغرباء وأشار إلى أنهم (أهل الغرباء) هم الذين أشار إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: "بدأ الإسلام غريبا ، فطوبى للغرباء"، قيل وما الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس، ثم أورد قول الإمام أحمد في رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "طوبى للغرباء"، قالوا: يا رسول الله ومن الغرباء؟ قال: الذين يزيدون إذا نقص الناس" وعقب ابن قيم الجوزية على هذه الرواية بقوله: "فمعناه الذين يزيدون خيرا وإيماننا وتقوى إذا نقص الناس من ذلك والله أعلم"⁽²⁾ ثم أورد رواية عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الإسلام بدأ غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء، قيل ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: النزاع من القبائل" ثم أورد رواية عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ونحن عنده "طوبى للغرباء، قيل: ومن الغرباء يا رسول الله: قال: ناس صالحون قليل في ناس كثير، من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم" ثم أورد ابن قيم الجوزية رواية أخرى عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن أحب شيء إلى الله الغرباء، قيل: ومن الغرباء؟ قال الفرارون بدينهم يجتمعون إلى عيسى بن مريم عليه السلام يوم القيامة" ثم يورد رواية أخرى للحديث السابق على النحو التالي "بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء، قيل ومن الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يحبون سنتي، ويعلمونها الناس" ويعقب ابن قيم الجوزية على هذه الروايات بقوله: فهو لاء الغرباء الممدوحون الذين يغبطهم الناس، ولقلتهم وندرتهم في الناس سموا غرباء،

(1) أخرجه الإمام مسلم والإمام أحمد وابن ماجه نقلا عن ابن القيم الجوزية- مدارج السالكين- دار الكتاب العربي-بيروت- د.ط- ج 3-1972- ص:198.

(2) ابن قيم الجوزية - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين- تحقيق محمد حامد الفقي- دار الكتاب العربي- بيروت-1972- د ط -ج3- ص: 199.

لأن أكثر الناس على غير هذه الصفات، فأهل الإسلام في الناس غرباء والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء⁽¹⁾.

ونلاحظ أن ابن قيم الجوزية رحمه الله قد ميز بين ثلاثة أصناف من الغرباء، فغربة المسلم بين الناس مرتبة، وغربة المؤمن بين المسلمين مرتبة، وغربة العالم بين المؤمنين مرتبة ثالثة، كما يتبين لنا من الروايات السابقة أن المقصود بالغرباء هم تلك الفئة القليلة من الناس من ذوي الصلاح والتقوى والإخلاص والتجرد، استجابت للرسول صلى الله عليه وسلم في مبدأ الدعوة ونأت بنفسها عن الشبهات والشهوات حين افتنن المسلمون بهاتين الفتنتين⁽²⁾.

وأهل الغربة بهذا المعنى هم أهل الله في كل زمان ومكان، ولكن هذه الغربة قد تكون في مكان دون آخر وفي وقت دون وقت وبين قوم دون قوم آخرين، واستحقوا بأن يكونوا أهل الله لأنهم لم يأووا إلى غير الله، ولم ينتسبوا إلى غير رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهم منتسبون إلى الله بالعبودية، وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالإتباع لما جاء به وحده وهم إلى ذلك يمكن أن يوصفوا بأنهم القابضون على الجمر، وجل الناس إن لم نقل كلهم لائم لهم ولتميزهم بصفة الغربة بين الخلق كان يشار إليهم بأنهم أهل شذوذ وبدعة، ولأنهم سلكوا سلوك ما ليس عليه السواد الأعظم من الناس⁽³⁾.

ولا يوجد في غربة أهل الله وحشة بل هم آنس العباد إذا استوحش الناس مثلهم في ذلك مثل موسى عليه السلام عندما خرج من مصر هاربا من فرعون وملئه حيث ناجى ربه قائلا: يا رب وحيد مريض غريب، فناداه ربه قائلا: يا موسى الوحيد من ليس له مثلي أنيس والمريض من ليس له مثلي طبيب والغريب من ليس بيني وبينه معاملة⁽⁴⁾.

ثم زالت غربة الإسلام بدخول الناس فيه أفواجا، وشملت دولة الإسلام الأولى كثيرا من البلاد، ولكن وإن بقيت دولة الإسلام قائمة فإن الإسلام سرعان ما بدأ في الترهل

(1) المرجع نفسه - ج 3 - ص: 194-196.

(2) ينظر: فتح الله خليف - الاعتبار في الإسلام - مجلة عالم الفكر - المجلد العاشر - مرجع سابق - ص:

84 .

(3) ينظر: ابن قيم الجوزية - مدارج السالكين - مرجع سابق - ص: 196-198.

(4) المرجع نفسه - ص 196.

في نفوس أهله، فأخذ في التغرب مرة أخرى، فلم يكد يمضي القرن الأول من الهجرة حتى وصف المسلمون بالتغرب⁽¹⁾.

والرأي عندي أن الإسلام بدأ في الاغتراب مع بداية فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه وما استتبع ذلك من حوادث وآلام، عادت على الإسلام والمسلمين بالوهن والخوف والرعب والقلق، والقلقل، فكان مقتل الخليفة الثالث نكبة للأمة الإسلامية، وصحت فراسة الإمام علي رضي الله عنه حين قال لسيدنا عثمان رضي الله عنه: ناشدتك الله ألا تكون إمام هذه الأمة المقتول الذي يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة⁽²⁾.

وبعد أن اغترب المسلم والإسلام اغترب المؤمن؛ فحينما فسدت السياسة وأخلاق العامة وساستهم اغترب المؤمن بين هؤلاء الذين اتبعوا أهواءهم، وأعجب كل امرئ منهم برأيه كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مروا بالمعروف وانهاؤا عن المنكر، حتى إذا رأيتم شحا مطاعا، وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمرا لا بد لك به، فعليك بخاصة نفسك، وإياك وعوامهم، فإن وراءكم أيا ما صبرا الصابر فيهن كالقابض على الجمر"⁽³⁾ فإذا أراد المؤمن أن يغير هذا الأمر؛ الشح المطاع، وإتباع الهوى... إلخ، فعليه أن يوطن نفسه على تحمل المكاره والمصاعب؛ لأنه سيلقي قدح الجهال وأهل البدع فيه، وتتغير الناس من حوله وتحذيرهم منه، وإلصاق التهم به، كما كان يفعل الكفار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن دعا المؤمن إلى إتباع السبيل القويم كما رسمه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة فسيلقى محنا جمة، أما إذ طعن على هؤلاء ما هم فيه من القبيح والسوء، فقد فتح أبواب جهنم على نفسه فيقوم أولئك الضلال بنعته بكل النعوت القبيحة المزرية به، ثم يلون ذلك بنصب مكائدهم للإيقاع به والتخلص منه، لأنه غريب بينهم، ومصدر غربته دينه القويم وفساد أديانهم، وهو غريب في اعتقاده لفساد عقائدهم، وغريب في صلاته لفساد صلاتهم، وهو غريب في طريقه لفساد طرقهم وسبلهم، غريب في معاشرته لهم؛ لأنه يعاشرهم على غير ما تهوى أنفسهم،

(1) المرجع نفسه - ص 198.

(2) ينظر: نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص 175

(3) ينظر: ابن قيم الجوزية - مدارج السالكين - مرجع سابق - ص 198-199.

وبالمختصر المفيد فهو غريب بينهم في أمور دنياه وآخرته لا يجد معيناً ولا مساعداً لأنه عالم بين جهال⁽¹⁾ وكفى بشر سماعه.

وهذا الاغتراب محمود لأنه يرفع الإنسان ولا يضعه يرفعه في الدنيا بالالتزام، ويرفعه في الآخرة بالدرجات العلى وهو محمود لأن الله مدح المستمسك بالحق ولو أكثر أهل الباطل يقول تعالى "وَأِنْ تَطَّعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ"⁽²⁾.

وهناك غربة مذمومة في المفهوم الإسلامي وهي التي أشار إليها ابن قيم الجوزية، وهي غربة أهل الباطل وأهل الفجور بين أهل الحق، فهم أهل ضلال بين أهل الفلاح، أي هم حزب الشيطان والهوى بين حزب الله، وهي غربة أهل الرذيلة بين أهل الفضيلة، فهو يرجو زوال الفضيلة وكثرة أهل الرذيلة لأنه يستوحش من الحق وأهله ومن الخير ومن يعمل به⁽³⁾.

وهناك مرتبة ثالثة حسب تقسيم ابن قيم الجوزية، وهي غربة مشتركة بين الناس جميعاً، وهي الغربة عن الأوطان وهي في رأيه لا تحمد ولا تذم، لأن الناس كلهم في هذه الدنيا غرباء، إذ الدنيا ليست بدار مقام، ولا هي بالدار التي خلقوا من أجلها، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"⁽⁴⁾ وقد حصر ابن قيم الجوزية كل الناس في هذه المرتبة وسوى بينهم، غير أنه فيما أزعج، قد أغفل الكافرين والملحدين فهم ليسوا سواء مع المسلمين في اعتبار الدنيا دار جهاز وقنطرة، جواز إلى الدار الآخرة، فهم يرون أن الدنيا هي كل شيء، ولا وجود للآخرة، وبالتالي فنظرتهم إلى الغربة في الدنيا من وطن إلى وطن تختلف عن نظرتنا لها، ثم إن ابن قيم الجوزية استشهد بأبيات له يقول فيها:

وحي على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم

(1) المرجع نفسه - ص: 199-200.

(2) الأنعام الآية: 116.

(3) ينظر: ابن قيم الجوزية - مدارج السالكين - مرجع سابق - ص: 200.

(4) ينظر: ابن قيم الجوزية - مدارج السالكين - ج 3 - ص: 200، وانظر مختصر صحيح البخاري للإمام الزبيدي الشركة الجزائرية اللبنانية - الجزائر ط 2007 - ص: 533.

وأي اغتراب فوق غربتنا التي لها أضحت الأعداء فينا تحكم

ثم يعقب على هذه الأبيات متسائلا: كيف لا يكون العبد في هذه الدنيا غريبا، وهو على جناح سفر، لا ينزل عن راحلته إلا بين أهل القبور؟ فهو مسافر أبدا في صورة قاعد⁽¹⁾. والمتأمل في البيت الأول، وأرجو أن أكون مصيبا، يدرك أن هذه الأبيات تصلح لأنه تكون عنوانا لغربة أهل الحق من العلماء والزهاد والمتصوفة، فهم المدركون حقا لهذه الغربة التي اغتربناها عن اضطرار، بذنب أبينا آدم عليه السلام، ولذلك فالهمة متجهة بكليتها لدى العارفين إلى العودة هناك؛ ولا يحصل ذلك إلا بالعمل الصالح وما يستتبعه من عناء وعوائق من النفس الأمارة والنفس اللوامة، حتى الوصول إلى النفس المطمئنة أخيرا.

وهذه الرحلة تشبه في بعض جوانبها رحلة الصوفي، فمحي الدين بن عربي يرى أن "أول غربة اغتربناها بالإشهاد بالربوبية لله علينا، ثم عمرنا بطون الأمهات، فكانت الأرحام وطننا، فاغتربنا عنها بالولادة، فكانت الدنيا وطننا، واتخذنا فيها أوطانا، فاغتربنا عنها بحالة تسمى سفرا وسياحة إلى أن اغتربنا عنها بالكلية إلى موطن يسمى بالبرزخ، فعمرناه مدة الموت، فكان وطننا، ثم اغتربنا عنه بالبعث... فلا يخرج بعد ذلك ولا يغترب وهذه هي آخر الأوطان التي ينزلها الإنسان ليس بعدها وطن مع البقاء الأبدى"⁽²⁾.

إن اغتراب ابن قيم الجوزية من جنات عدن إلى الدنيا وأهوالها وقهر الاغتراب عنده بالامتثال لأمر الله حتى يمكن الرجوع إلى جنات الله، فزمانية الاغتراب عنده قصيرة إذا ما قيس بزمانية اغتراب ابن عربي، إذ تمتد أبعد من جنات عدن إلى زمن خلق آدم وأخذ بنيه من ظهره وإشهادهم على أنفسهم بربوبية الله لهم وذلك في قوله

(1) ينظر: ابن قيم الجوزية - مدارج السالكين - ج3 - ص: 200-201.

(2) ينظر: ابن عربي - الفتوحات المكية - ج2 - ص 528 نقلا عن عبد الحق منصف أبعاد التجربة الصوفية - الحب - الإنصات - الحكاية - إفريقيا الشرق - الدار البيضاء - المغرب - د.ط 2007 - ص56.

تعالى: "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ"⁽¹⁾

ثم توالى أحوال الغربة إلى أن عادت من حيث بدأت، ويرى ابن عربي أن الصوفي يسعى خلال مجاهداته لقهر الاغتراب الوجودي، وذلك بإفناؤه عن طريق التحقق الإلهي أزلاً⁽²⁾. يقول ابن عربي: "فأردت الرجوع إلى العدم (الثبوتي) فإني أقرب إلى الحق في حال اتصافي بالعدم مني إليه في حال اتصافي بالوجود لما في الوجود من الدعوى، وطلب حالة الفناء عن الخلق للبقاء بالحق وهو أن يرجع إلى حالة العدم التي كان عليها، فهذه غربة موجودة واقعة عن وطن بغير اختيار العبد"⁽³⁾

إن وجود الإنسان في نظر ابن عربي ومن على شاكلته هو انفصام وجودي خرج به عن أصله الإلهي، لذلك نجد الصوفي يسعى من خلال تجربة الفناء لرحلة الاغتراب يقول: "فمن كان وطنه العدم في القدم، كانت غربته الوجود"⁽⁴⁾

وبما أن الفناء حال من أحوال العدم عندهم، فإن طلبهم الشهود (أي شهود الحق بالفناء عن كل الخلق والفناء عن الوجود يساوي الفناء عن الاغتراب المؤسس للوجود⁽⁵⁾). والحقبة أن تصوف ابن عربي ومن على شاكلته كالحلاج، وعفيف الدين التلمساني وأبي يزيد البسطامي،... إلخ. تصوف غير سني ولا يتمشى مع كل حقائق الإسلام فالإسلام يدعو إلى اتباع سبيله للوصول إلى الحق كما رسمه؛ الفوز بالجنة والبعد عن النار، أما تفلسف ابن عربي وحديثه عن الرجوع إلى العدم الثبوتي فما جاء به قرآن ولا سنة، وهو فوق ذلك موضوع فكري ذوقي يجعل صاحبه يحيا على الهامش؛ هامش الحياة التي أمرنا أن نحياها كما أراد الله، ولذلك نرى أن الاغتراب الذي يجب أن يعنى به هو الاغتراب بمعناه الإسلامي الواضح وهو الاغتراب عن الحياة الاجتماعية الزائفة، والاعتراب عن النظام الاجتماعي غير العادل، وقهر هذا الاغتراب يتم عن طريق

(1) الأعراف الآية: 172.

(2) ينظر: عبد الحق منصف - أبعاد التجربة الصوفية - مرجع سابق - ص: 55.

(3) ينظر: ابن عربي - الفتوحات المكية - ج-2 ص 528. نقلا عن عبد الحق منصف - أبعاد التجربة الصوفية - مرجع سابق - ص: 55.

(4) عبد الحق منصف - أبعاد التجربة الصوفية - مرجع سابق - ص: 55.

(5) المرجع نفسه - ص: 55.

مقاومة الحياة في جانبها المادي حتى لا تطغى علينا وذلك بترويض النفس وحملها على الطاعات والمجاهدات وأما قهر السلطة السياسية فيكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (وظيفة العلماء) وإن استشرى الفساد بحيث لا يمكن إصلاحه فالعزلة منجاة وللبيت رب يحميه.

الفصل الثالث

الاغتراب عند الإمام علي

المبحث الأول: تجليات الاغتراب عند الإمام علي

المبحث الثاني: أبعاد الاغتراب عند الإمام علي

أ. تمهيد:

إن الاغتراب ملمح إنساني لا يخلو منه زمان أو مكان، وإن كان المصطلح حديثاً إلا أن مظاهره كانت تبدو عند أشخاص معينين؛ يتميزون عن غيرهم من أفراد المجتمع لأسباب نفسية أو اجتماعية أو فكرية، وتبدو هذه الظاهرة أكثر ما تبدو عند المفكرين والعلماء والادباء الذين يحملون هما من هموم الإنسانية، فهو - المغترب - على الرغم من أنه معتر بنفسه متحمل لمسؤولياته الكبيرة التي تفوق الطاقة الإنسانية أحياناً، نتيجة طموحه العالي وغير المحدود، إلا أنه يشعر بأنه غريب بين الناس مع أنه يحمل عبأهم بفكره ونضاله وجهده وجهاده الدائم لادخال السعادة إلى قلوب الآخرين⁽¹⁾. إن المغترب في صراع دائم مع نفسه أو مجتمعه لأنه يبحث عن المثال في واقعه؛ المثال الذي يحمل صفات المرجعية الفكرية أو الدينية أو الاجتماعية التي يتوق إليها، وبما أن مثاله غالباً ما لا يكون في مجتمعه، لذلك نراه يبقى غريباً عن الواقع يريد أن يغيره، ومع ذلك يبقى يصور ما ينبغي أن يكون عليه مجتمعه، لا ما هو واقع فعلاً، فقلبه ينبض دوماً بالعواطف الإنسانية، التي يكون أساسها الوطنية والحرية أو غيرها من الموضوعات الهامة، ينظر إلى نفسه على أنه محور العالم، ويتجلى كل ذلك في أدبه وفكره، يتجاوز الحاضر بفكره إلى غياهب المستقبل، أو إلى الماضي، ينشد في كل ذلك ضالته، يقلق من عزلته، ويصاب باليأس إذا لم تتحقق آماله التي يرجوها، بالرغم من العظمة الفكرية والقيادية التي يتميز بها⁽²⁾.

و الحقيقة أن الاغتراب باعتباره ظاهرة وإحساساً، قد ظهر عند العرب منذ أمد بعيد وقد أشار إلى ذلك أبوحيان التوحيدي وصوره أبلغ تصوير حيث يقول "إن أغرب الغرباء من صار غريباً في وطنه" وقد مر بنا هذا الكلام سابقاً، ويحدد ملامح هذا الاغتراب من خلال طرحه لعدة أسئلة فيقول "إلى متى نعبد الصنم تلو الصنم؟ إلى متى نقول بأفواهنا ما ليس في قلوبنا؟ إلى متى ندعي الصدق والكذب شعارنا ودارنا؟ إلى متى نستظل بشجرة تقلص عنا ظلها؟ إلى متى نبتلع السموم ونحن نظن أن الشفاء

(1) ينظر: أحمد جواد مغنية - الغربية في شعر محمود درويش - دار الفرابي - بيروت - لبنان - ط1 - 2004 - ص: 19.

(2) المرجع نفسه - ص: 19-20.

فيها⁽¹⁾؟"، والنص كما نرى يكشف عن وقوع الإنسان تحت تأثيرات كثيرة كلها غريبة عنه، وهي الخضوع، وسلب الحرية، وتزييف الذات والانقياد للغير.

كما عبر ابن باجة الاندلسي في كتابه (المتوحد) عن هواجس هي من قلب الاغتراب عند الغربيين " فالمتوحد هو من يحس بالاغتراب برغم أنه يعيش في زحام كثيف من البشر، ويصفه ابن باجة بأنه الإنسان الفاضل الذي يعيش في مدينة غير فاضلة، ومهما زاد عدد الفاضلين في المجتمع الواحد، فإنهم لا يكونون سوى قلة قليلة يسميهم بالنوابت، أي النبات الذي ينمو من تلقاء نفسه، حتى ولو كان متحديا لعناصر بيئته"⁽²⁾.

و قد يكون المرء متميزا ظاهر التميز في المجتمع، وقد لا يكون، فهو يعيش في مجتمع معين منتما تلقائيا، قائما بالدور أو بالأدوار الاجتماعية فوريا وتلقائيا، فعلاقته بالبيئة الاجتماعية مسلم بها سلفا، وهي علاقة وحدة كاملة فورية، لا تستدعي التفكير ويشير "هيجل" إلى هذه المرحلة بتغيير (العالم الأخلاقي) وهي مرحلة من التطور الإنساني التي يحدث فيها التطابق الفوري مع البناء الاجتماعي⁽³⁾.

و ما ذهب اليه هيجل يبدو صحيحا في نظري، لأن الإنسان ابن بيئته، فهو ينشأ في أمة لها نظامها الاجتماعي والسياسي والثقافي، فعندما يشب ويعي يبدأ في مشاركة هذه الأمة همومها وتطلعاتها.

ولكن قد يحدث لبعض الأشخاص أن يقعوا في صراع مع البنية الاجتماعية، وعندها يكف عن التطابق مع المجتمع، ويصل من ذلك إلى ذاته فيقصر تطابق ذاته على شخصه وسماته هو، وقد حجب هيجل ذلك واعتبره تطورا مرغوبا فيه، لأنه يحدد بعدا فرديا أو بعدا للفردية المتميزة والوجود المستقل، وهو في نظره أمر طبيعي وضروري إذا ما أريد به الطبيعة الجوهرية للإنسان بصورة كاملة⁽⁴⁾.

(1) ينظر: د. نبيل راغب - موسوعة الفكر الأدبي - دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة - د ط - 2002 - ص: 56-57.

(2) المرجع نفسه - ص: 59.

(3) ينظر: ريتشارد شاخت - الاغتراب - مرجع سابق - ص: 97-98.

(4) المرجع نفسه - ص: 98.

و بما أن المجتمع يحوي الفرد الذي لا يمكن ان يعيش في معزل عنه، فإن
الضرورة تقتضي أن يكون هناك توافق بينه وبين البنية الاجتماعية من خلال انخراط
هذه الذات المتفردة في (العالم الأخلاقي) وبذلك تحقق تكاملها الشامل، بيد أن الذات في
مسارها الجديد هذا والذي يتم على حساب الفردية المتميزة تغدو منحرفة عن الذات
الحقيقية وفقدان لوجودها الأساسي، وللتغلب على هذا الأمر فإن الوحدة الفورية الكاملة
التي تحدثنا عنها سابقا يجب أن تنتهي⁽¹⁾.

و لقد كان الإمام علي كذلك، فقد كان قبل بيعته منخرطا في عمله، مطيعا لربه
عاملا لدينه، ناصحا للخلفاء من قبله، فلما أفضت الخلافة إليه، وكان له من الآراء ما
يخالف من سبقه من الخلفاء في بعض القضايا، اصطدم بالواقع الذي كان يعيه سابقا،
ولكن الآن حيث أصبح حاكما فإن فرديته في الحكم لا بد أن تتجلى، بحيث يحس بها
المجتمع ويراهما القريب والبعيد، ولم يعمد - رضي الله عنه - إلى إظهار تفرده تفاخرا
وتعظيما لنفسه، وإنما كانت الأحداث المتسارعة منذ توليه الخلافة هي السبب في إبراز
فرديته المتميزة، ومن ثمة خلق مناخ جديد في الدولة الإسلامية، وقد كان ذلك كذلك.

و لكنه لما أراد أن يحمل الناس على الجادة كما يراها لقي عنقا واعوجاجا من
غالبية الناس، وذلك للتشابك الهائل للعلاقات الاجتماعية والقبلية، والأهداف السياسية
والاقتصادية مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية واختلاف أعراقها وضالة العلم عند أغلبية
الناس، وقد عبر غير ما مرة عن اختلافه مع المجتمع، فهو يريد لهم الله كما يقول وهم
يريدونه لأنفسهم يقول في ذلك " لم تكن بيعتكم إياي فلتة، وليس أمري وأمركم واحداً،
إني أريدكم لله وأنتم تريدونني لأنفسكم "⁽²⁾ وقد قال هذا الكلام في بداية خلافته حينما
رأى هذه الدلائل، وقد كان - رضي الله عنه - سليم العقيدة، ذا علم واسع بالشرع،
والثقة بالله كما كان قدوة لغيره، صدوقا ذا كفاءة وشجاعة ومروءة وزهد، أضف إلى
ذلك حبه للتضحية وحسن اختياره لمعاونيه، والتواضع للناس، والحلم بهم والصبر
عليهم، كما كان صاحب همة وحزم وعزم، وإرادة قوية، وعدل حسن ومساواة رضية

(1) ينظر: ريتشارد شاخت - الاغتراب - مرجع سابق - ص: 98.

(2) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 169.

كما كانت له القدرة على التعليم وإعداد القادة، وغير ذلك من الصفات التي لا يمكن حصرها بالتدقيق.

و على الرغم من كل هذه الصفات الحميدة، فقد لاقى - رضي الله عنه - من الاعوجاج والعداوة والحسد والبغي ما تثنى له الجبال، لا لشيء إلا لأنه أراد أن يقيم العدل في كل شيء، وأن تتمثله كل نفس من الأمة الإسلامية - وقد يبدو ذلك غريباً - والحق أنه لا غرابة هناك، فالمرجعية عند الجميع واحدة، وهي الإسلام فلماذا يعدل ولا يعدلون؟ ولماذا ينتصف من نفسه ولا ينتصفون؟

و لماذا يأتهم بما أمر الله ولا يأتهمون؟ وكيف يفى بوعده ويخلفون؟ وكيف ينتهي عن الغي ولا ينتهون؟ وأنا أعتقد أن هذه الاسئلة وغيرها ينطبق عليها قول (ولتر كوفمان) "لقد ولجنا في عالم ينتظرنا فيه الاغتراب"⁽¹⁾.

فالكون متناقض في اليوم عن الأمس، متغير دوماً، لا يمكن وضع معايير سلوكية لبني البشر ترضيهم جميعاً، وإن أرضت حيناً أعبقها رفض في أحيان كثيرة، فالقيم والمعايير نسبية في نظر الناس، فما يراه الفرد صالحاً قد تراه الجماعة عكس ذلك تماماً، وما ينقاد له فريق من الناس برغبة وحرية، ينفر ويبتعد عنه فريق آخر برغبة وحرية أيضاً، ولذلك أسباب ثقافية وحضارية واجتماعية ونفسية، وميول مصلحة وغيرها، وبذلك تنهار القيم والمعايير، وتعم اللامبالاة، ولكن عندما يكون المجتمع في زمن معين كزمن الإمام علي، تحكمه شريعة واحدة يؤمن بها كل الناس ظاهرياً، فهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وكل الفرائض الأساسية للإسلام، ثم نراهم بعد ذلك يشغبون في أمور كثيرة ويحلبون في غير إنائهم، فإننا نكون قد دخلنا في الانفصال بين الوجوب والوجود⁽²⁾ أي بين ما هو كائن وبين ما ينبغي أن يكون لقد أرادها الإمام علي حياة عادلة لاتشوبها شائبة، فأبى عليه الناس ذلك بسلوكهم، أراد ان يكون الإسلام - المرجعية - واسطة بينه وبينهم، ولكنهم أرادوا مزج ذلك بأهوائهم، فإذا جئنا إلى العطاء من بيت مال المسلمين رأيناه يطبق الآية الكريمة: "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل

(1) ينظر: ريتشارد شاخ - الاغتراب - مرجع سابق - ص: 97.

(2) ينظر: مجاهد عبد المنعم مجاهد - الانسان والاغتراب - سعد الدين للطباعة - دمشق د ط 1985 ص: 37.

فريضة من الله والله عليم حكيم" (1) ولكن كثيرا من الناس لم يرقهم هذا المسلك، كما سنرى في موضعه من هذا البحث، وإذا جئنا إلى الولاية وجدنا من يطلبها والإسلام يأبى أن يولي أحدا طلب هذا الأمر لقوله صلى الله عليه وسلم " لن-أو: لانستعمل على عملنا من أراد... " (2) و لو كان هذا الأمر صادرا من عامة الناس لما كان له الأثر السيء في نفسيته، ولكن صدر عن أكابر الصحابة من أمثال طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام رضي الله عنهما، ومن معاوية وأضرابه.

وإذا جئنا إلى الولاية وجدنا بعضهم يأخذ من مال الله أكثر من حاجته ويوزع ذلك على عشيرته والمقربين منه دون مراعاة سبل الإسلام في ذلك، فالإسلام لا يمنع القريب من أن يأخذ حقه من بيت المال، وإنما يمنع ذلك عمن كان غنيا أو لا يستحق العطاء بسبب من الأسباب.

و سأقف هنا إلى ثلاثة محاور أساسية كل واحد منها لا يقل عن الآخر في إثارة القلاقل والفتن والتي كان لها أبعد الأثر في اغترابه، وما استتبع ذلك من مدافعة ومدافعة مضادة أثرت على الجانب الأدبي عند الإمام علي من خطب ورسائل وحكم، وأذكت عوامل عدم الاستقرار في الدولة الإسلامية وتتمثل هذه النقاط في المحور السياسي، والمحور الاجتماعي والمحور الاصلاحى والوعظي الأخلاقى، وان كان من الصعب الفصل بين هذه المحاور الثلاثة لتداخلها.

(1) التوبة الآية: 60.

(2) ينظر: الحافظ المنذري - مختصر صحيح مسلم - الشركة الجزائرية اللبنانية - باش جراح - الجزائر - ط1 - 2007 ص: 381.

المبحث الأول: تجليات الاغتراب عند الإمام علي

1- في المجال السياسي:

إن القيادة ظاهرة إنسانية يجذب إليها الناس لما تفرضه الحياة عليهم من الحفاظ على ذواتهم ومصالحهم، وتمنعهم من التظالم والاعتداء والانحراف، ولذلك قرر الإسلام وأكد على وجوب اتباع الإمام أو الخليفة في اليسر والعسر، وفي السر والعلانية، وأن لا تنقض البيعة، حتى لا تحدث الفرقة والانهيال المميت وقد بايعه - الإمام علي - الناس مكرها حيث يقول: "فأقبلتم علي إقبال العوذ المطافيل على أولادها، تقولون البيعة البيعة! فقبضت يدي فبسطتموها ونازعتكم يدي فجذبتموها" ⁽¹⁾، وكان ممن بايعه طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، وبعد حين خرجا من المدينة إلى مكة لأداء العمرة، وهناك التقيا بأما عائشة رضي الله عنها فاتفق ثلاثتهم على المطالبة بدم سيدنا عثمان رضي الله عنه، وتسليم قاتليه إليهم، وجمعوا جيشا وتهيؤوا لمتابعة قتلة عثمان رضي الله عنه، فعزم علي الخروج إليهم ومنعهم من هذا الصنيع لأنه أولى بالأمر منهم، باعتباره خليفة المسلمين، وقد نصحه بعض أصحابه بعدم الخروج من المدينة، إلا أنه لنفاذ بصيرته رفض ذلك، لأن عدم الأخذ على أيدي هؤلاء سيؤدي إلى الفوضى العارمة فقال لناصحيه "والله لا أكون كالضبع تنام على طول اللدم حتى يصل إليها طالبها ويختلها راصدها، ولكني أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه وبالسامع المطيع العاصي المريب أبدا حتى يأتي عليّ يومي..." ⁽²⁾ .

و الشاهد عندنا أن الإمام علي كان يدرك منذ البداية أن هذين الرجلين ما خرجا إلى مكة الا ليؤلبا عليه الناس وينكثا ببيعته، وقد كان ظنه في محله فقد سارا وأم المؤمنين عائشة إلى البصرة لقتال قتلة عثمان رضي الله عنه، وقد فعلا ذلك وقتلا ستمائة شخص من المشتبه بهم فقام لهم ستة آلاف من أهل البصرة ⁽³⁾.

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق- ص: 170
العوذ: العوذ الحديثات النتاج من الضباء. المطافيل: المطفل ذات الطفل من الإنس والوحش.

(2) المصدر نفسه- ص: 102.

اللدم: الضرب بشيء ثقيل يسمع وقعته. يختلها: يخذعها. راصدها: يرصد: يرقب.

(3) ينظر: البداية والنهاية- ابن كثير- ج 7- مرجع سابق- ص: 229.

و لما بلغ عليا نبأ نكثهما (طلحة والزبير)، وهو بصدد بناء دولة جديدة دعامتها العدل والمساواة قال "اللهم إنهما قطعاني وظلماني ونكثا بيعتي وألبا الناس علي، فأحطل ماعقدا، ولا تحكم لهما ما أبرما، وأرهما المساءة فيما أملا وعملا..."⁽¹⁾.

إن هذا الابتغال إلى الله عزوجل من أهم تجليات الاغتراب عند الإمام علي، لأن الحصار الذي يفرضه الخارج الواقعي على الواقع الداخلي النفسي ينعكس إما سلبا أو إيجابا على تصرف الاشخاص المغتربين، ولم يكن الإمام علي في يوم من الأيام -حسب ما أطلعت- سلبيا. إن الخروج على الخليفة أو الحاكم معصية وخروج عن سبل السلام في الإسلام، ولذلك حذر علي طلحة والزبير رضي الله عنهما من الفتنة والجورو دعاهما إلى جادة الصواب، كارها قتال أهل القبلة وغيرهم إلا بالحجة الواضحة، ولأنه وقاد الذكاء وحساس بآلام الإنسان فإن نفسه كانت تتأبى عليه أن يباشر القتال إلا بعد المحاورة والمجادلة، وبما أن العالم شرير لا يمكن للأخيار العيش فيه، فقد كان يدرك أن دعواته ستذهب بلا جدوى فعزم على قتالهما، بعد أن استأنى وأعذر إليهما، وقد أوقع الهزيمة بجيشهما ومات منهم خلق كثير، وقد كان تحكيم العقل كفيلا بسد الذرائع، ولكن البلية خلقت مع الشمس، وقد أشار علي قبل الوقاع في خطبة ألقاها على مسامع أصحابه قائلا "و الله ما أنكروا علي منكرا، ولا جعلوا بيني وبينهم نصفا وإنهم ليطالبون حقا هم تركوه، ودما هم سفكوه، فإن كنت شريكا لهم فيه فإن لهم نصيبهم منه، وإن ولوه دوني فما الطلبة الا قبلهم..."⁽²⁾، يتضح من هذا النص المنطق العقلي على بطلان ما سعي من أجله، لأنهم يطلبون دما قد شاركوا في اهراقه بأقوالهم، فإن شاركهم فلهم نصيبهم منه، وإن لم يفعل فهما أولى الناس بالمؤاخذه، لكلامهم ولعدم نصرتهم.

إن العالم الواعي المتقف يتفاعل مع العالم بعمق أكبر ويؤمن بقوة وبجذرية أطروحاته البديلة، فإذا فشلت في خرق الواقع القائم فإنه يحس بحالة من الاغتراب القسري، لقد فشل علي في تجنب الحرب والقتال وفرض الواقع الخارجي منطقته فكانت

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري ابراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 170.

(2) المصدر نفسه - ص: 169.

الوقائع التي يتبعها دوما القتل والجوع والخوف، والكرهية والإذلال، وكل ما يهز التوازن الذهني والنفسي للإنسان.

و لم يكن طلحة والزبير رضي الله عنهما وحدهما في سلوك غير سبيل الحق، فقد عصى معاوية بن أبي سفيان الإمام علي وأبى أن يبايعه متعللاً هو الآخر بطلب دم عثمان رضي الله عنه، فراسله وطلب منه أن يبايعه وأن يحتكم إليه هو ومن قتل الخليفة المظلوم وأن يحملهما على الكتاب والسنة فأبى معاوية إلا تسليم قتلة عثمان، وهو أمر حق أريد به باطل لأن من حاصر المدينة المنورة وشارك من قريب أو من بعيد في قتل سيدنا عثمان يربو على عشرة آلاف تائر، وقد أرسل اليه الرسل قبل الوقاع عدة مرات فابى الدخول في الطاعة حتى قال رضي الله عنه مخاطباً أصحابه "و قد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره حتى منغي النوم، فما وجدتنى يسعني إلا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فكانت معالجة القتال أهون علي من معالجة العقاب، وموتات الدنيا أهون علي من موتات الآخرة"⁽¹⁾، لقد استأنى حتى خاف أن يكون من الآثمين لأن البيعة إذا تمت للخليفة في المدينة المنورة من قبل المهاجرين والأنصار فإنها تلزم كل الأمصار الأخرى، وهذا من الأمور البديهية عند المسلمين ولكن أهل الشام أصروا على سفك دمائهم ودماء غيرهم، ولما شبت الحرب وقتل فيها خلق كثير من الطرفين أرسل معاوية رسالة إلى علي يطلب فيها أن يقره على ولاية الشام حتى يدخل في طاعته ويبايعه، فرد عليه علي برسالة منها قوله "...و أما طلبك الي الشام فإني لم أكن لأعطيك اليوم ما منعك أمس، وأما قولك : إن الحرب قد أكلت العرب إلا حشاشات أنفس بقيت، ألا ومن أكله الحق فألى الجنة، ومن أكله الباطل فألى النار، وأما استوائنا في الحرب فلست بأمضى على الشك مني على اليقين"⁽²⁾، كان هذا ديدن الإمام علي، فهو لا ينفك ينازع الناس في أباطيلهم، لأن المفارقة عنده أن يحيد المسلم عن سلوك من سلوكات الإسلام، ويشدد رفضه ووعيده كلما كان هذا السلوك أعظم في مجانبة الصواب، فمعاوية رحمة الله عليه، لم يلتفت إلا إلى نفسه طالبا ولاية الشام

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري ابراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 126.

(2) المصدر نفسه- ص: 209.

متعللاً بفناء العرب، وهو ما كان يأمر به الإمام علي وهو الدخول في البيعة وتجنيب الناس القتال فتأبأها معاوية، فسالت دماء المسلمين من أجل نزوات ولاية.

يقول كثير من الناس إن معاوية من دهاة العرب، والدهاء عند الإمام علي مع المسلمين من سوء الأخلاق لأن الدهاء يكون مع غير المسلمين، أما المسلمون فهم إخوة، وواجب الأخوة يحتم عليه الوقوف عند الحق، فمعاوية طلب إقراره على ولاية الشام منذ البداية فأبى عليه الإمام علي ذلك، لأن معاوية في نظره من أسباب بلاء الأمة، وهذا أمر راسخ عنده، فمعاوية الأمس هو معاوية اليوم، رجل غير صالح وأما قوله - معاوية - بأن الحرب قد أكلت وأفنت العرب أو كادت، فتلك سنة الله في خلقه عند تجابه الحق مع الباطل، فالذي على الحق مأواه الجنة، ومن ركب الباطل فمأواه النار، وأما استوائهما من حيث العدة والعدد فليس له أدنى تأثير في عقيدة القتال عند الإمام علي، فهو -حسب رأيه- على يقين من ربه على أنه على الحق ومع الحق، وأما خصمه فهو على الباطل ومع الباطل، سواء انتصر أو انكسر.

و يبدو اضطراب معاوية رحمه الله، فمرة يطالب بدم عثمان رضي الله عنه، ومرة يطالب الإمام علي أن يقره على ولاية الشام، فأين الحق؟ وأي الشخصيتين يمثل معاوية في الواقع، إن صاحب الشخصية الأصيلة لا يمكن أن تتبدل مواقفه - إلا في المصلحة العامة - مهما كانت عوامل الترغيب أو التهيب، فأين أصالة معاوية رحمه الله هنا؟! فلا عجب إذن أن يصر الإمام علي على إقالته من على رأس ولاية الشام، لأنه -علي- يرى فيه نموذجاً للإنسان غير السوي وإلا لاستمسك برأيه الأول، وهو المطالبة بدم عثمان رضي الله عنه.

وإن كان هذا الموقف - فيما أرى - مجرد خدعة، لأن معاوية كان بإمكانه أن يقود جيشاً إلى المدينة لفك الحصار عن سيدنا عثمان رضي الله عنه عندما حاصره من شغبوا عليه، ولكن لم يفعل.

كما نلاحظ من النص السابق أن الإمام علي كان يحاول أن يؤسس لبنية معرفية خاصة قوامها العقل والتحليل والمنطق الإسلامي بروافده الكبرى القرآن والسنة، ثم ما تعارف عليه الناس ولم تتكره عقولهم، لذلك أوضح له، أنه لن يقره على ما منعه إياه

من قبل، ولم يكن هذا الأمر صادرا عن هوى أو تعصب، وإنما كان موقفا لازما، لأن من ثار ضد سيدنا عثمان رضي الله عنه كان سببه ولاته الذين طغوا وأفسدوا -حسب رأي الثائرين- لذلك رأى الإمام علي أن يعزلهم جميعا -كما سبقت الإشارة إليه فيما سبق- فإذا كان الداء في الولاة فليس من الدواء إبقاءهم وإقرارهم على ولاياتهم ليستمروا في الجمع والمنع والأثرة، وهذا أمر لايزيغ عنه الا من زاغت به الدنيا.

و قد حاول معاوية قبل هذا - متعللا بطلب دم عثمان رضي الله عنه- أن يعاد النظر في استخلاف علي، حتى يتم القضاء على قتلة عثمان وهذه مغالطة فكرية، فلكي يحاسب هؤلاء لابد من خليفة للمسلمين، وإلا لأصبحت الدنيا فوضى، وقد كتب علي رضي الله عنه إلى معاوية يذكره في إطار الثقافة السياسية السائدة في مثل هذه الحالات حيث يقول " إنه بايعني القوم الذين بايعوا ابا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغالب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وجعلوه إماما كان ذلك لله رضي، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المسلمين، وولاة الله ماتولى، ولعمري -يا معاوية- لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان، ولتعلمن أنني كنت في عزلة عنه إلا أن تتجنى، فتجن ما بدا لك والسلام"⁽¹⁾.

إن المنهج المعرفي العقلي القائم على المحاجة لأوضح من أن يشرح لشخص كان يعرف كيف ينتقى الخلفاء في عهده، وهو على بصيرة من ذلك رغم إعراضه، فما كان لأي مسلم أن يتخلف عن مبايعة من اختاره المهاجرون والأنصار إلا أن يكون في نفسه شيء، فسياسة اختيار الخليفة من قريش معروفة -حتى لا تطمع القبائل الأخرى فيها- وعلي هاشمي قرشي صميم بويع مثل من سبقه، فوجبت طاعته، وبيعته تلزم كل من غاب أو حضر وليس له الخيار، لأن ذلك يؤدي إلى الفرقة، والفرقة تؤدي إلى الجدل والمنافرة ثم الحرب، وهي شرخدين، وقد بين الإمام علي لمعاوية أنه بريء من دم عثمان، وأنه كان في معزل عنه حين قتل، فكيف يحاسب بجريرة غيره أو يؤخذ

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري ابراهيم السيد- مصدر سابق- ص: 203.

بذنب ارتكبه سواه؟ أم كيف يطالب بدم سفكه آثمون في غفلة من الناس، وتقاعس عنه آخرون.

و قد توالى محن الإمام علي من كل حذب وصوب، فها هو ذا عمرو بن العاص يلتحق بمعاوية مؤازرا له، بعد أن مناه بولاية مصر إذا ظهر على علي، يقول الإمام علي في رسالة أرسلها إليه "فإنك قد جعلت دينك تبعا لدنيا امرئ ظاهر غيّه، مهتوك ستره، يشين الكريم بمجلسه، ويسفه الحليم بخلطته، فاتبعت أثره، وطلبت فضله، اتباع الكلب للضرغام، يلوذ بمخالبه، وينتظر ما يلقي إليه من فضل فريسته فأذهبت دنياك وآخرتك، ولو بالحق أخذت أدركت ما طلبت، فإن يمكنني الله منك، ومن ابن أبي سفيان أجزكما بما قدمتما، وإن تعجزا وتبقيا فما أمامكما شر لكما والسلام"⁽¹⁾ فما كان في نظر الإمام علي، أن يسلك عمرو بن العاص هذا المسلك، وهو يعلم أين الحق والصواب، وإنما حمّله على ذلك حب الدنيا وإيثارها على حب الآخرة وما يوصل إليها، وهو ليس كعامة الناس، عرف الإسلام منذ ظهر فعاده، وأسلم في آخر الأمر، وشارك في الفتوح جنديا وقائدا، وها هو ذا يسقط في وحل النفس الأمارّة بالسوء التي تورد صاحبها في الدنيا حفيرا، وفي الآخرة نارا وزفيرا، وقد أخطأ - حسب رأي علي - حيث لجأ، لأنه أزر الباطل وترك الحق، والله يقول "و لا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار"⁽²⁾ ، ويبدو أن غضب الإمام علي من عمرو بن العاص كان شديدا لما لعمرو من دهاء وتلاعب وفطنة في الحروب والسلم كان الأولى به أن يؤازر بها الحق وأن يعين بها الصواب، لا أن يستعملها في هدم ركن الأمة، لذلك نراه يتهدده بالعقاب الشديد إن ظفر به وبمعاوية، وقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهما لا يجتمعان على خير.

و يجدر بنا أن نشير إلى أن كل الذين ناوؤوا الإمام علي كانت حجتهم المطالبة بدم عثمان رضي الله عنه، وكان أول من طالب بذلك طلحة والزبير وجماعة من الصحابة في المدينة المنورة وذلك مباشرة بعد مبايعته بالخلافة فرد علي على هؤلاء النفر الذين جاؤوه بقوله "يا إخواني لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف لي بقوة،

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 236-237.

(2) هود - الآية: 113.

والقوم المجلبون على حد شوكتهم، يملكوننا ولا نملكهم وها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، والتفت إليه أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاؤوا، وهل ترون موصفا لقدرة على شيء تريدونه، إن هذا الأمر، أمر جاهلية وإن هؤلاء القوم مادة، إن الناس من هذا الأمر -إذا حرك- على أمور، فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا ذاك، فاصبروا حتى يهدأ الناس، وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق مسمحة فاهدؤوا عني، وانظروا ما يأتيكم به أمري، ولا تفعلوا فعلة تضعع قوة، وتسقط منة، وتورث وهناً، وسأمسك الأمر ما استمسك، وإذا لم أجد بداً فآخر الدواء الكي"⁽¹⁾، لقد حرصنا على نقل النص كاملاً لنوضح رؤية الإمام الناضجة للموقف، فهو لم يرغب عن ذهنه برهة معاقبة قتلة عثمان رضي الله عنه، ولكن الوقت غير مناسب فالذين ثاروا ضده وقتلوه ما زالوا على شوكتهم وقوتهم، فكل مساس بهم سيؤدي بالأمور إلى بدايتها، ويظهر حجاج الإمام علي لهذه الجماعة قويا ومعقولا، فالقوم المجلبون أقوياء، والخلافة ما زالت تحبوا، وإذا طرحت قضية القصاص ستفرق الأمة في المدينة إلى ثلاثة أقسام، قسم مع القصاص، وقسم مع التأجيل، وقسم لا رأي له، وإذا انقسمت الأمة هكذا قسمة ذهبت ريحها، والرأي عنده أن يترك الأمر حتى تهدأ النفوس، وتستقر العقول ويعود الناس إلى حياتهم الطبيعية ويتفرق المشاغبون، وتقوم الخلافة على أسس صحيحة، فعندها يمكن طرح قضية القصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه، ويبدو تثبيت الإمام علي من عدم إثارة هذه القضية حالا، في دعوته إلى الصبر والانتظار، وعدم المخالفة في ذلك، حتى يصدر الأمر منه، ولأن مخالفته قد تؤدي إلى الفرقة والتشتت، وهو ما ياباه الإسلام، وعلى الرغم من وضوح هذه الحجة وعقلانياتها إلا أن الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهما خرجا إلى مكة وألبا الناس عليه، مطالبين بدم عثمان رضي الله عنه - كما أشرت سالفاً - وقد أساءا فيما صنعا، بعصيانهما لأمر المؤمنين ولفتحهما لباب صعب إغلاقه إلى يوم الناس هذا، وقد كان لهذا المسلك من طرف طلحة والزبير رضي الله عنهما وما تلاه من ويلات مع حرب الجمل، ومن بعد ذلك مع أهل الشام في صفين، الأثر البالغ في اغتراب الإمام علي،

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 117.

مادة: قوة. منة: قوة.

فولي الأمر يطاع بأمر الشارع، فعصوه ونازعوه ما له من حق دون وجه حق وهم جميعا يرجعون إلى مرجعية فكرية واحدة، وهي الإسلام، فأين يقع هذا من العقل؟.

و قبل أن تستحكم دائرة الإغتراب نفسها على الإمام علي في المجال السياسي، هب عمرو بن العاص رحمه الله فأحكمها عليه، فقد أشار على معاوية برفع المصاحف لما رأى الهزيمة تقترب منهم، وكان لهذه العملية -رفع المصاحف- ما توقع لها عمرو بن العاص، فقد انقسم الناس على أنفسهم في معسكر علي، فمنهم الراضون بالتحكيم ومنهم من أصر عليه حتى وقعت الفتنة وأرغمت الجماعة الراضية بالتحكيم عليا القبول بها وإلا قتلوه وألقوه بعثمان رضي الله عنه، فقبل على مضض، وقبوله لما يكره نوع من الإغتراب الذي يقع موقع سلب الحرية، فما الأمير إذا لم يكن أمرا مطاعا. يقول "أيها الناس إنه لم يزل أمري معكم على ما أحب حتى نهكتكم الحرب، وقد ولله أخذت منكم وتركت، وهي لعدوكم أنكم، لقد كنت أمس أميرا، فأصبحت اليوم مأمورا، وكنت أمس ناهيا، فأصبحت اليوم مناهيا، وقد أحببت البقاء، وليس لي أن أحكمكم على ما تكرهون"⁽¹⁾، يكشف هذا النص عن مأساة الإمام علي، تلك المأساة التي سلبته حريته، فهو وإن سلم للقوم بمعاناتهم في الحرب، وقد أكد ذلك بـ: قد، والقسم، إلا أنه نبه إلى أن الحرب كانت لعدوهم أشد نكاية ثم يكشف صراحة عما أضناه وأهمه، فقد كان بالأمس أميرا يأمر وينهى، واليوم أصبح شخصا مناهيا مأمورا، والمنهي المأمور لا يكون إلا فاقد الحرية، لباسا جلباب غيره، حارثا في غير أرضه، ولكنه لا يستطيع أن يحمل الناس على ما يكرهون! هم يريدون الحياة، وهو يريد إقامة النظام ولو كان في ذلك حنقه وشتان بين الغائتين، فهو وطن نفسه على الانتصار لإقامة الحق، أو الموت دونه، ولكن كان عليهم أن يكونوا مثله فهم بايعوه أول مرة، وقواعد البيعة عندهم معلومة، ولكن ها هو اليوم لا يجد إلا نفسه وبعضا من أصحابه، بين أناس يريدون حفر رمسه، أو أن يأسي على أمسه حين رضي أن يتولى أمر الخلافة، لقد فقد حريته، وتزيفت مواقفه رغما عنه، وهذه هي قمة الاغتراب.

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 190.
نهكته الحرب: أجهدته.

ومنذ إرغامه على الرضا بالتحكيم وهو يعاني من أصحابه ما لم يعانيه أحد من قبله، فقد أمرهم بالمسير إلى أهل الشام لقتالهم بعد التحكيم الزائف فتناقلوا حتى شنت عليهم الغارات، وعقب إحدى هذه الغارات -التي كانت على الأنبار- خرج غاضبا فأجتمع حوله الناس، وقالوا له : يا أمير المؤمنين نحن سنكفيكم فقال ساخرا "ما تكفوني أنفسكم، فكيف تكفوني غيركم، إن الرعايا قبلي لتشكوا حيف رعاتها، وإنني اليوم لأشكو حيف رعيتي! كأنني المقود وهم القادة، أو الموزوع وهم الوزعة"⁽¹⁾ فالنص كما نرى يبين مما لا يدع مجالا للشك في أن الإمام علي قد فقد حريته وسيطرته على جيشه حتى صار يعلن جهرا أنه أصبح مغلوبا على أمره، إذ كان الحكام من قبله يرهبون رعيتهم، أما هو فقد أصبح يخشى ظلم رعيتهم حتى لكانه المقود وهم القادة.

(2)- في المجال الاجتماعي:

يصر كثير من الفلاسفة وعلماء الاجتماع على أن المرء لا يمكن أن يدع مبادئه تحت أي ضغط مهما كانت، إلا إذا كان في الأصل مراوغا غير مهتم، إلا أن هناك أناسا لهم آراء ومبادئ ورؤى كونية أو سياسية أو اجتماعية، وقد يضطرون إلى التخلي عنها ولكن بطريقة الإستسلام أو التخلي بمعنى أنهم يستسلمون للواقع المفروض ظاهرا أما أفكارهم فتبقى كما هي لذلك ينشأ عندهم ما يسمى باغتراب الذات عن نفسها، وقد يضطر البعض الآخر إلى الرفض والتمرد أو الثورة، فيقعون فيما يسمى باغتراب الذات عن المجتمع، لأن جوهر الذات في هذه الحالة يعارض البنية الاجتماعية القائمة على ثقافة مغايرة لجوهر الذات المغتربة.

و لقد كان الإمام علي رضي الله عنه مع مجتمعه في تغاير مستمر على الرغم من الثقافة الإسلامية السائدة الملتزمة للجميع في ظاهر الامر، إلا أن كثيرا من الناس كانوا يتحايلون على جوهر هذه الثقافة بطرق مختلفة وملتوية، ظاهرها الحق وباطنها الباطل، أما هو -علي- فقد كان واثقا من نفسه ماضيا على منهجه السليم مطبقا أحكامه لا يرده عن ذلك استرحام زائف، ولا تزلف لأي إنسان مهما كانت منزلته في الدولة والمجتمع، ومهما كانت قرابته الدموية منه، ولقد كان أخوه عقيل ذا عيال كثيرة، فجاء

(1) المصدر نفسه - ص: 283.

الوزعة: جمع وازع وهم الولاة المانعون من محارم الله تعالى.

يستمنحه عطاء، فأحمى لح حديدة ثم وضعها في يده، فصاح عقيل صيحة عظيمة وفي ذلك يقول رضي الله عنه "فقلت له ثكلتك الثواكل يا عقيل أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبة، وتجرتني إلى نار سجرها جبارها لغضبه! أتئن من الأذى ولا أئن من لظى.."⁽¹⁾ إن الامام علي لم يرحم أخاه لقرابته فقط وإنما منعه العطاء -لا لانه لا يستحقه- وإنما إذا أعطاه فلا بد أن يعطي لكل مسلم ذي عيال مثل ذلك، وإلا وقع في خصومة مع مبادئه ومنهجه الرباني، فأثر طريق ربه، على عادات وتقاليد المجتمع التي لا تعطي كبير اهتمام لمثل هذه الامور، والتي تبدو في أعينهم صغائر وهي عند الله من العظائم، فهو لا يظلم ولا يغصب شيئاً هو الله، لمخلوق مهما كان، يقول "والله لأن أبيت على حسك السعدان مُسَهِّداً أو أجرُّ في الأغلال مصفداً أحب إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد أو غاصباً لشيء من الحطام، وكيف أظلم أحداً نفس يسرع إلى البلى قفولها ويطول في الثرى حلولها"⁽²⁾.

لقد أبان للناس نهج الله في مال الله وكيف يكون صرفه، وأوضح من خلال هذا النص جوهر نفسه، البائن لبنية مجتمع متهالك على الدنيا، مبينا عن كرامة نفسه، وقد جاءه أحدهم بهدية ملفوفة ليغريه بها لقضاء حاجة في نفسه، يقول "...فقلت أصلة أم زكاة أم صدقة؟ فذلك محرم علينا نحن أهل البيت! فقال: لا ذا ولا ذاك، ولكنها هدية، فقلت هبلتك الهبول! أعن دين الله أتيتني لتخدعني، أمختبط انت أم ذو جنة أم تهجر"⁽³⁾، إن رفضه للهدية انسجام مع جوهرية نفسه واغتراب عن بني جنسه، وبنيتهم التقليدية، تلك البنية الاجتماعية الاسلامية في مظهرها وهيكلها، المناقض لها مجتمعها، الذي نحا نحو الدنيا ومال عن طريق الآخرة.

ولقد حاول أن يعطي المثل من نفسه ليعيد البنية الى جوهرها مرارا وضرب الأمثال من أقواله وأفعاله ما يعينهم على ذلك فقال "...و الله لو أعطيت الاقليم السبعة بما تحت أفلاكها، على أن أعصي الله في نملة اسلبها جلب شعيرة ما فعلته، وإن

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري ابراهيم السيد- مصدر سابق- ص: 195.

(2) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري ابراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 194.
الحسك: الشوك . السعدان: نبات له شوك. مصفدا: موتقا. قفولها: رجوعها.

(3) المصدر نفسه- ص: 195.

هبلته: ثكلته. مختبط: مختل. ذو جنة: مجنون. تهجر: تهذي.

دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها، ما لعلني ولنعم يفنى ولذة لا تبقى! نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزلل، وبه نستعين" ⁽¹⁾، ولنقف عند قوله (ما لعلني لنعم يفنى ولذة لا تبقى) لنتبين جوهر هذه النفس الربانية، لقد عجزت الأرض عن جذبها، فخلق عاليا في أجواء الملكوت وبقي الناس في الملك فدنياهم عنده أهون من ورقة في فم جرادة تدخل من الامام وتخرج من الخلف مباشرة، فما أغرب ما بين جوهر الذات، وذوات المجتمع، وإن كان المجتمع منها في ريب.

و قد عوتب رضي الله عنه في التسوية في العطاء ممن كانت لهم السابقة في الاسلام ومن جاء بعدهم، ومن ناصروه أول الأمر ومن جاء بعدهم، فغضب غضبا شديدا وخاطبهم بقوله " أتأمروني أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه! والله لا أطور ما سمر سمير وأم نجم في السماء نجما! لو كان المال مالي لسويت بينهم، فكيف والمال مال الله ... " ⁽²⁾ وكفى بالحق سماعه فيها هو ذا متفرد كالطود العظيم بين أقزام، إنه يدرك -علي- كما يدرك جميع الناس أن لكل إنسان الحق في العيش الكريم، لا فضل في ذلك على سابق على لاحق، ولا لكثير العدد على قليله، فما للناس وله! فهو يريد العدل الذي تمليه عليه الحقيقة الجوهرية للذات الانسانية المتشعبة حتى النخاع بجوهر الدين الاسلامي، الذي العدل شعاره والحق منارته، فكيف يمنع مال الله عن عباد الله أو أن يخص عبادا دون آخرين بالعطاء أو أن يميز في ذلك بينهم.

و هنا يتجلى أن سبله وسبلهم ليست سواء، فهو يريد لهم الله وهم يريدونه لانفسهم، وفي مثل هذا الموقف يكون الإنسان كالقابع على الجمر.

و يرى رضي الله عنه أن من يفعل خلاف ذلك في العطاء، يضعه الله ولا يرفعه ويبتليه بخلافه فلا يقفون معه في محنته، والدنيا فانية وإلى الآخرة المنقلب، فالأولى عنده أن يكون الإنسان محافظا على جوهره حتى يبرأ من كل عيب ويبرأ إلى الله من كل مصل.

(1) المصدر نفسه - ص: 195-196.

جلب: الجلب بالضم القشرة والقطعة المنقرقة.

(2) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري ابراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 167.

أطور: أحوم. ما سمر سمير: بمعنى ما تعاقب الليل والنهار.

يقول "ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف، وهو يرفع صاحبه في الدنيا، ويضعه في الآخرة ويكرمه في الناس ويهينه عند الله..."⁽¹⁾ ولكن أغلب الناس على غير منهجه، قد ركنوا إلى الدنيا واتخذوها دار قرار، وأعرضوا عن الآخرة أزواراً واستبعاداً، فلم يفلحوا في الدنيا لسرعة فنائها، ولن يفلحوا في الآخرة لعدل الجبار فيها، هذا ما يكون إذا كان المال مال الله - بيت مال المسلمين - أما إذا كان المال مال لشخص معين، ووضع في غير موضعه فعقباه لا تختلف عن الأول يقول "...و لم يضع امرؤ ماله في غير حقه، ولا عند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم، وكان لغيره ودهم، فإن زلت به النعل يوماً فاحتاج إلى معونتهم فشر خليل وألم خدين"⁽²⁾، إن وعي علي بذاته وفهم ذوات الآخرين التي تريد إذابة إنيته في المجتمع، قد جعله يقهر اغترابه بذلك الوعي، والصمود أمام محاولات الاستسلام أو الانسحاب، بيد أن الرجل أكبر من ذلك في ما يرى كثير من الدارسين، فإرضاء الخلق غاية لا تدرك، والحق عنده لا يترك، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط.

و من إصلاحه الاجتماعي، أنه أعاد كل الإقطاعات التي أخذها الناس قبل خلافته من الأراضي وغيرها إلى بيت مال المسلمين وقد حثه بعض الناس على ترك الأمر على ما هو عليه فقال "و الله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإمام لرددته، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق"⁽³⁾ فهو كما نرى لا يهادن ولا يداهن ولا يراهن إلا على الحق، فما أخذ بغير وجه حق لا بد أن يرد إلى أهله وأصحابه، ومن ثقل عليه الحق فالباطل عليه أثقل، لان دفع هؤلاء عن شبهة الباطل أشنع وهو - علي - إلى رفضه أسرع، ومن ضاق عليه الحق لم يجد في غيره سعة ومن يدافع عن الأمر الواقع فهو مستسلم، و علي متمرد على الباطل سريع إلى الحق، لذلك فهو غريب عن هذه الفئة الداعية إلى ترك الأمور كما هي، متعللين بعدم إثارة الفتن، ونسوا أن الحق واحد لا يتجزأ.

(1) المصدر نفسه - ص: 167.

(2) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص 167.

(3) المصدر نفسه - ص 105.

إن تأكيد الإنسان على اختياراته يجعله أكثر استقلالية عن الآخرين، وفي استقلاليته تلك وعي كامل بالذات يجعله مدركاً لتفرده، ولكن هذا التفرّد ليس نعمة دائمة كما أنه ليس نعمة دائمة، ولكنه يؤسس لإحساس مغاير لأحاسيس الجمهور أو الحشد فيربكه ذلك كثيراً عند مخاطبتهم، لأنه يدرك بتلك المعرفة المتفرّدة والعلم الواسع ما لا يدركون، ولذلك نجد (شوبنهاور) يقرر "أن أشد الناس مقاساة للألم هم العباقرة، وكلما اشتد ذكاء المرء اشتد إحساسه بالألم، وكلما دقت معرفة المرء وتعمقت كلما تعمقت مأساته"⁽¹⁾.

و لنا أن نتساءل هل الذكاء هنا نعمة أم نقمة كما قلنا عن التفرّد هناك؟ والرأي عندي - وأرجو أن يكون صواباً - أنه منحة ومحنة، بمنظورنا الإسلامي يكون العلم والذكاء من أسباب رقي المجتمع، واهتدائه بنوابغه، وسلامته من الجهل وغوائله، وهي من ناحية أخرى ابتلاء لهذا العبقري أو العالم لأنه يدرك بسرعة ما لا يدركه الآخرون، وإذا حاول إفهامهم قصرت عقولهم وكلت دونه ألبابهم، فعجزوا وأعجزوا وهي ما نسميها بـ - غربة الذات عن البنية - لعدم التفاهم - و غربة الذات عن نفسها - لفشلها في تبليغ رسالتها، وإن شئنا قلنا بأنها غربة ذاتية، وغربة عن المجتمع، ذاتية لوعي صاحبها بها، وغربة عن المجتمع لاستحالة التواصل التام، نعم قد يحدث التواصل الجزئي، ويحدث الفهم الجزئي، ولكن ذلك لا يكفي، فالأمر يحتاج إلى الكفاءة والمكافأة - المساواة في الإدراك والفهم - وإلا حدث الانفصام الكلي أو الجزئي بين الذات الجوهرية للعالم أو العبقري، وبين مجتمعه وبنائه الفكري - العقائد، العادات، الأعراف - يقول الامام علي - "أيها الناس سيأتي عليكم زمان يكفأ فيه الإسلام كما يكفأ الإناء بما فيه، أيها الناس إن الله قد أعاذكم من أن يجور عليكم، ولم يعذكم من أن يبتليكم وقد قال جل من قائل "إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين" ⁽²⁾.

لقد كان الإمام علي من أعلم الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، بشهادة جم غفير من الصحابة والتابعين، وكان ذا بعد نظر وعمق في التفكير، ووعي بالإنسان

⁽¹⁾ ينظر: ويل ديورانت - قصة الفلسفة - تر: عبد الله المشعشع - مكتبة المعارف - بيروت - لبنان - ط 4 1975 ص: 271.

⁽²⁾ نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 152.

وأدوائه ودوائه، ولم يأل جهدا في بذل علمه في نصح الرعية وتبيين الطريق السوي لها مستتبطا ذلك من الكتاب والسنة، ولكن البلية خلقت مع الشمس كما يقال، ولا يُطاع لقصير أمرٌ كما يقول المثل العربي، فالناس يشتكون من الأقدار - و الأوضح أن نقول من الله - فإذا أصابهم خير اطمأنوا به، وإن أصابتهم مصيبة انحوا باللائمة على الأقدار قال الله تعالى " قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا "(1) وخطبوا بين الظلم والابتلاء، لفساد طوية بعضهم، ولجهل أكثرهم، لانصرافهم عن العلم بالشرعية ومقاصدها وقد نفى عن نفسه الظلم وحرمه على عباده، وقد بين أنه خلق الإنسان ليبنتليه بالخير والشر ولينظر ما يفعل - و إن كان عالما - يقول تعالى " تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور "(2)، ولما كان الابتلاء سنة من سنن الله سبحانه وتعالى، نبه الإمام علي إلى ذلك وفرق بينه وبين الجور والظلم تعليما للناس وتعظيما لله، وتقديسا له، ومن هذا التعليم إظهار الحق والدعوة إليه، وشرح الباطل والتفجير منه وتبيين الحاصل من كل واحد منهما إذا حصل.

يقول في خطبة يصف فيها جد أصحاب معاوية وتخاذل أصحابه "أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم وإبطائكم عن حقي، ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها وأصبحت أخاف ظلم رعيتي"(3)، ففي هذه الفقرة من العلم الغزير ما لا يخفى على ذي نظر، فمع وضوح العبارة والمعنى يتضح المقصد، فأهل الشام لجوافي طغيانهم، وأصحابه تقاعسوا ونسوا أو تناسوا طاعة ولي الأمر، وهو أمر إلهي وهذا النسيان يورث الغم والهم، وتعجب من خوفه من رعيتهم وظلمهم إياه حين أصبح الحاكم محكوما والمحكوم حاكما، وهذا من أشد أنواع الغربة التي عاشها، فكان إذا استتفروهم لا ينفرون، وإن أسمعهم الموعظة اعرضوا وإن دعاهم سرا أو جهرا لم يستجيبوا وإن نصحهم لم ينتصحو يقول " ...أشهودُ كغياب وعبيد كأرباب أتلوا عليكم الحكم فتنفرون منها،

(1) النساء - الآية: 79.

(2) الملك - الآية: 1-2.

(3) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 149.

وأعظمكم بالموعظة البالغة فتتفرقون عنها، وأحثكم على جهاد أهل البغي فما آتى على آخر قولي، حتى أراكم متفرقين أيادي سباً⁽¹⁾ إن هؤلاء الناس - كما يبدو من النص - لا يكادون يفقهون حديثاً، ولا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، وهذا الذي جعل الإمام علي غريباً بينهم، فهو يقومهم غدوة فيعودون إليه عشية كظهر القوس في الاعوجاج، ويمكن أن نرد اغترابه في هذه الخطبة إلى سببين أساسيين، فالأول هو طغيان معاوية ومن معه وعدم ارتداعه بأي رادع ديني أو أخلاقي، وأما الثاني فهم أصحابه المتخاذلون الذين أذلهم الله وأضلهم بعد أن عصوا ولي أمرهم، وكأني بهم مثل قوم موسى إذا أبوا أن يدخلوا الأرض المقدسة، فعاقبهم الله سبحانه بأن جعلهم يتيهون في الأرض أربعين سنة، إن خطابه يبدو أكثر شمولية في قضاياها التي أشار إليها، كما يظهر أكثر عمقا وأكثر تفهما لعقلية هؤلاء وأولئك، فلم يخطئ في وصفهم حيث أصاب كبد الحقيقة، فقد أصابوه بالخيبة ونغصوا حياته بغصات ليس لها أول ولا آخر، فأولئك غدروا وأوغلوا في الغدر وهؤلاء نكثوا فأوغلوا في النكث فأورثوه أشد أنواع الاغتراب، مصداقاً لمن قال إن من أهم تجليات الاغتراب الحصار الذي يفرضه الخارج الواقعي على الداخل النفسي⁽²⁾.

(3) - في المجال الأخلاقي والديني:

و نلاحظ أن الإمام علي كان يصدر دائماً - كما أشرنا سابقاً - عن مرجعيته الإسلامية، تلك المرجعية التي هيمنت على فكره فيما يخص معالجته لواقع الحياة سواء كانت هذه الحوادث فيزيقية، أو تلك الخاصة بما وراء الطبيعة وعلاقة كل ذلك بكل الحوادث المنفصلة أو المتشابكة، دنيوية كانت أم أخروية، أوهما معاً، وقد وقف رضي الله عنه عند موضوعات كثيرة متصلة بالآخرة مع أن بدايتها تنطلق من الدنيا، وأكثر ما نلقاه في خطبه ورسائله ووصاياه ينبع من توجه واضح هو ما حث عليه الإسلام - التقوى - بكل معانيه، إذ لا نكاد نجد نصاً له يخلو من الحث على التقوى لأنها الطريق الوحيد الموصلة إلى ذي العزة والجلال، يقول "اتقوا الله تقيه من شمر تجريداً، وجد تشميراً

(1) المصدر نفسه - ص: 149.

أيادي سباً: متفرقين

(2) ينظر: د. سميرة سلامي - الاغتراب في الشعر العباسي - مرجع سابق - ص: 44.

وكمش في مهل وبادر عن وجل ونظر في كرة المؤل، وعاقبة المصدر ومغبة المرجع⁽¹⁾.

فالتقوى إذن هي التجرد بالعبادة لله تجردا كاملا يكاد ينسي الدنيا، ويؤمى إلى المرجع والمآب، لأن الأصل هناك ومن كان مآبه الآخرة فدنياه غربة موحشة، وهو ما خلق في الدنيا عبثا، وما ألقى فيها مهما بل على الطريق علامات الهدى من سار عليها وصل ومن جانبها ضل، وحق لمن فعل ذلك أن يلقي ما يكره يقول "أيها الناس اتقوا الله فما خلق امرؤ عبثا ولا ترك سدى فيلغو! وما دنياه التي تحسنت له بخلف من الآخرة التي قبحها سوء النظر عنده، وما المغرور الذي ظفر من الدنيا بأعلى همته كالآخر الذي ظفر من الآخرة بأدنى سهُمته"⁽²⁾ لم يكن كلامه عن هوى ولا من وحي النهى، بل كان من مكابذته أخلاق الناس ومظاهر سلوكهم في الحياة، حيث نسوا ما ذكروا ولم يزدجروا عما نهوا فألَى على نفسه ألا يصمت عن أعمال تسير بصاحبها إلى حتفه وتصيره به إلى أسوء الدارين يقول ناصحا "من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، ومن رضي برزق الله لم يحزن على ما فاتته، ومن سل سيف البغي قتل به، ومن كابد الأمور عطب، ومن اقتحم اللجج غرق، ومن دخل مداخل السوء أتهم، ومن كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار"⁽³⁾ إنَّ هذا الترتيب لم يكن وليد الساعة ولا نتيج اليوم وإنما هي معاناة دهر مع قوم كان أغلب صفاتهم ما وصف، فغاضه أن يضيعوا فانبرى لنصيحتهم، وقد اختار طريق النصح العام لا النصح الشخصي الفردي لأن ذلك تكون نتائجه عكسية في غالب الأحيان، لأن الإسلام ينهى عن فضح الأفراد والأشخاص ويلقي النصائح عامة والإنذار كذلك وسلوك الإمام علي هذا يبين مدى تطابق ذاته مع تعاليم الإسلام في الدعوة والنهي والأمر، ويقول أيضا ناصحا ومشيرا ومشفقا "و من نظر في عيوب الناس فأنكرها، ثم رضيها لنفسه فذلك

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري ابراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 282.

كمش: جد. وجل: خوف. المؤل: المرجع والملجأ. مغبة: عاقبة الشيء.

(2) المصدر نفسه- ص: 289.

يلغو: اللغو سقط الكلام. سهمته: السهمة، النصيب.

(3) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري ابراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 288.

الأحمق بعينه، والقناعة مال لا ينفذ، ومن أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه"⁽¹⁾ وقد صدق، فما ينطق الإنسان كلاماً "إلا لديه رقيب عتيد"⁽²⁾، ولما كان مبتلى بالخاصة والعامة فقد جاء كلامه موجهاً إلى هؤلاء وأولئك، ولما كان الناس نصفاً؛ قسم معه وقسم ضده، فقد نال كل واحد منهم ما يستحقه، فنصح من هو إلى النصيحة أحوج، وسما بالخاصة إلى الجادة والطريق الأصوب، فقال في الأولين "من أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن عمل لدينه كفاه الله أمر دنياه، ومن أحسن فيما بينه وبين الله أحسن الله ما بينه وبين الناس"⁽³⁾ وقال في الآخرين "الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك، على الكذب حيث ينفعك، وأن لا يكون في حديثك فضل عن عملك وأن تتقي الله في حديث غيرك"⁽⁴⁾ ففي النص الأول توضيح لأن معانيه مذكورة في الكتاب والسنة يقول تعالى "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا"⁽⁵⁾، وفي الثاني فضل زيادة لأنه يتضمن المراقبة، مراقبة الإنسان لأقواله وأعماله فليحذر الكذب حيث يجب الصدق، وأن يقصر الكلام بحيث يكون مساوياً لعمله، وأن لا يحمل كلام غيره ما لا يحتمل فيقع في البهتان.

و قد يتساءل القارئ ما علاقة هذا بالاغتراب؟ فنقول - وبالله التوفيق-، إن الإسلام لم يأت للإمام علي وحده، فهو دين العالمين ولكن غالبية الناس وفي كل العصور تغلبهم أنفسهم فيركنون إلى الدنيا ويجانبون الطريق الواضح فعزَّ عليه أن يرى المسلمين تتقاذفهم الأهواء، وحب العاجل رغم زواله والحرص عليه وترك الآجل على الرغم من دوامه وبقائه لابد الآباد، ومثل هذا السلوك انحراف عن دين الحق يورث اغتراب الذات عن المجتمع، ولهذا نراه لا ينفك يحذر وينذر ويرغب، متبعا في ذلك منهج النبوة - الوسطية - فوعظ وعظ من اتعظ فخاطب الناس قائلا "فإنكم لو قد عاينتم ما قد عاين من مات منكم لجزعتم وولهتم، وسمعتهم وأطعتم، ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا، وقريب ما يطرح الحجاب!، ولقد بُصِرتم إن أبصرتهم، وأسْمِعتم إن سمعتم،

(1) المصدر نفسه - ص: 288.

(2) ق- الآية: 19.

(3) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق- ص: 292.

(4) المصدر نفسه- ص: 293.

(5) العنكبوت- الآية: 69.

وهديتم إن اهتديتم، وبحق أقول لكم لقد جاهرتكم العبر وزجرتكم ما فيه مزدجر وما يُبلغ عن الله بعد رسل السماء إلا البشر⁽¹⁾.

فهو يدرك فتور همم البشر على الرغم مما زجر به القرآن أو محمد صلى الله عليه وسلم، وبما أوضحت السنة وأوعظت، ولكن الناس كانوا في غمرة وسهو وفترة، فحاول إيقاظهم وإلهامهم الاعتقاد الصحيح، حتى لا تكون النهاية إلى الهاوية، وإن كان في القرآن نجاة لو كانت القلوب واعية، والأرواح عالية، ولكن جذبة التراب غالبية دوماً وأماني النفس لا تنام يوماً، والأمل يرجو من الشر سهماً، يقول زاجراً وواعظاً "ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها، ألا وإنه من لا ينفعه الحق يضره الباطل، ومن لا يستقيم به الهدى تجر به الضلالة إلى الردى، ألا وإنكم قد أمرتم بالظن ودللتم على الزاد وإن أخوف ما أخاف عليكم إثنان: اتباع الهوى، وطول الأمل فتزودوا في الدنيا من الدنيا ما تحرزون به أنفسكم غداً"⁽²⁾.

لقد كان يعلم أدواء الناس ودوائهم، فالنفس أمارة بالسوء وقد بين القرآن خطرهما، والأمل يكب الناس في النار وأهوالها، ولكن لما كانت القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، وتميل إلى مغريات الدنيا على الرغم من أنها دار ظعن، والآخرة دار مستقر، وحيث كان الهوى غالباً فقد أكد في غير ما مرة وجوب مخالفته والإعراض عنه وتقصير الأمل، لأنه يورد صاحبه مورد التهلكة يقول "أيها الناس إن أخوف ما أخاف عليكم إثنان: اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة، ألا وإن الدنيا ولّت حذاء فلم يبقَ منها إلا صباية كصباية الإناء اصطبها صاحبها، ألا وإن الآخرة قد أقبلت ولكل منهما بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن كل ولد سيلحق بأبيه يوم القيامة، وإن اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل"⁽³⁾ إن كل ما ورد في النص يعرفه كل مسلم متعلم، ولكن مالذي جعله يحث على اجتناب هذا العمل والأخذ بذاك، وتكعب هذا الطريق والسير في

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق- ص: 109.

(2) المصدر نفسه- ص: 116.

تحرزون: حرز الشيء حفظه من الهلاك.

(3) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 123.
حذاء: السريعة الماضية. الصباية: البقية من الماء أو اللبن.

الطريق الجادة؟ فعل ذلك لأنه صاحب نفس أصيلة ثابتة لا تتغير، ولا تستطيع أن تغير عليها النفس الزائفة وهذه صفة من صفات المغترب فهو دوماً يفي لنفسه الأصيلة، أما الحشد والعامة فذواتها مزيفة، ولا تستطيع أن تقي للنفس الأصيلة إلا قليلاً ثم تعود إلى الزيف، وقد يتغلب عليها الزيف إلى الأبد، لذلك نجده ينصح أحد أصحابه قائلاً "ياكميل بن زياد إنَّ هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها، فاحفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة، فعالم ربّاني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعا عاتب كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق..."⁽¹⁾ ولا ينكر العاقل المجرب والناظر في التاريخ أن العلماء الأعلام أقلية في كل العصور فهم العاملون بعلمهم الناصحون لغيرهم، لأنهم -العلماء- ورثة الانبياء في الأرض، ولما كان ذلك كذلك لزمته الحجة بالعمل بما علموا ودعوة الناس إلى الاقتداء برسوله صلى الله عليه وسلم، بعد أن ألزموا أنفسهم بذلك، لا عن إكراه من أحد، ولكن بوعيمهم وإنجذابهم إلى المعالي بفعل صواعق الآيات التي صيرت قلوبهم بيوتاً لله وأرواحهم أطيافاً في ملكوت الله، وهم أقلية إذا قورنوا بالعامة فهم غرباء كل زمن، ويمضي في وصف هذه الفئة قائلاً "أولئك والله الأقلون عدداً، والأعظمون عند الله قدراً يحفظ الله بهم حججه وبيئاته، حتى يودعوها نظراءهم، ويزرعونها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين واستلنوا ما استوعره المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه آه، آه شوقاً إلى رؤيتهم"⁽²⁾ إنَّ تشوّقه إلى رؤيتهم، بعد أن عايش أمثالهم من الرعيّل الأول في الإسلام مع المصطفى صلى الله عليه وسلم، إذ كان الصحابة بهذه الصفات؛ لياليهم ذكر وصلاة وأيامهم صوم واجتهاد في تحصيل الخير، لدليل على اغترابه بين قومه وبعد ما بينهم من تناسب روحي، وإن كان البلد يجمعهم والشمس تشرق وتغرب عنهم جميعاً، إلا أنه كان هو المتوحد بينهم لعلمه وعمله وزهده، وقد سأله أحدهم أن يعظه ويوصيه وينصحه، فأوصاه بالعمل الصالح، والإنابة إلى الله من قريب، وقصر الأمل والزهد في الدنيا، وأن لا يكون ممن إذا أعطي الدنيا

(1) المصدر نفسه - ص: 274-275.

(2) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 276.

بطر وإذا منع منها لم يصبر، لا يشكر على النعمة ويبتغي الزيادة، ينهى عن الشر ولا ينتهي، ويأمر بالمعروف ولا يأتيه، يحب الصالحين ولا يعمل عملهم، ويبغض المذنبين وهو أحدهم، لا يحب الموت لعظيم جرمه مع استدامته على ذلك، فإن سقم ندم على ما سلف منه، وإن صح جسمه لها وأمن وأعجب بنفسه، ويأس إذا ابتلاه الله بما يكره، ويكثر الدعاء مضطرا ابتغاء رفع البلاء وإذا أنعم الله عليه بشيء مما كان يدعو به أعرض عن الدعاء، تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يرغبها على ما استيقن، يخاف على غيره من أقل ذنبه ولا يرى ذلك لنفسه، ويبغي لها من الخير أكثر من عمله، وقد أجمل كل ذلك في قوله "لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل، ويرجي التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا بقول الزاهدين ويعمل فيها بعمل الراغبين، إن أعطي منها لا يشبع، وإن منع منها لم يقتنع يعجز عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي ينهى ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي، يحب الصالحين ولا يعمل عملهم، ويبغض المذنبين وهو أحدهم، يكره الموت لكثرة ذنوبه، ويقيم على ما يكره الموت من أجله، إذا سقم ظل نادما، وإن صح آمن لا هيا، يُعجب بنفسه إذا عوفي، ويقتط إذا أبثلي، إن أصابه بلاء دعا مضطرا، وإن ناله رخاء أعرض مغترا، تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما استيقن، يخاف على غيره بأدنى من ذنبه، ويرجو لنفسه بأكثر من عمله..."⁽¹⁾ ولا يخفى على قارئ هذا النص أن عليا رضي الله عنه يغرف من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة غرفا، ويمكن أن نجمل كل ما بسطه من قول فيما جاء به قوله تعالى "إنما يخشى الله من عباده العلماء"⁽²⁾، فالعلماء سمتهم العمل والرضى بما قدر والصبر على ما نزل، ونبذ كل الرذائل، والإستكثار من كل الفضائل، ولكن أئى يكون ذلك للدهماء وهم سبب البلايا وسيوف الفتن ومثيروا الشغب، فلا عقل ولا علم ولا حلم ولا تقوى، وإنما جهل واتباع للهوى فمن عاش بينهم كانت البلوى وهي غربة الغربة.

و ما كان للإنسان أن يكون كذلك فقد زجرته الزواجر عيانا، فلا عيش مستقيم، ولا قوة تدوم ولا جسم يبقى على السلامة فلا تمضي الأيام إلا انتقص من عمره، وما علا إلا ودنا من السقوط، فكيف يبقى من كانت هذه بعض صفاته، وكيف يصفو عيش

(1) المصدر نفسه - ص: 276-277.

(2) فاطر - الآية: 28.

من وراءه كدر وأمامه كدر، وما أعطت الدنيا شيئاً إلا سلبته، فأين العيش الذي لا يشوبه كدر، وأين الأمان الذي لا يخشى منه الحذر، وأين يكون البناء الذي لا يعقبه هدم وأين الحاكم الذي لا يعزل:

و كم نزل القيل عن منبر وعاد إلى عنصر في الثرى
وأخرج عن ملكه عاريا وخلف مملكة بالعرا⁽¹⁾

فالدنيا عنده أولها عناء وآخرها فناء وما بينهما شقاء، فسرور لا يدوم وعيش لا يسلم من نكد، وجسم لا يلقى إلا مصيبة بعد أخرى، ولا ينفك في غصص والدهر مليء في ذلك بالقصص يقول رضي الله عنه "إنما المرء في الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا ونهبٌ تبادره المصائب، مع كل جرعة شَرَقَ وفي كل أكلة غصص، لا ينال العبد نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يستقبل يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجله فنحن أعوان المنون وأنفسنا نصب الحتوف، فمن أين نرجو البقاء وهذا الليل والنهار لم يرفعا شرفاً إلا أكرّا في هدم ما بنينا وتفريق ما جمعنا!"⁽²⁾.

و قد أكثر من المواعض لأن أغلب الناس -كما أشرت سابقاً- إما جهلة وإما أن الدنيا أعمتهم ففسدوا الآخرة، ولذلك نلاحظ في كلامه خطابين؛ خطاب عام موجه لكل الناس وبخاصة قليلي العلم، وخطاب ثان موجه لمن يعلم ويخالف بسلوكه وإعراضه عن الحق والصواب ذلك العلم، لغرض في نفسه فمن الخطاب الأول -مثلاً- ما قاله في تبصير الناس بعري الحق (الإسلام) التي لا يكون المسلم مسلماً إلا بها وبأدائها إن كانت أوامر، أو الابتعاد عنها إن كانت نواهي يقول "إن أفضل ما توصل به المتوسطون إلى الله سبحانه وتعالى، الإيمان به وبرسوله، والجهاد في سبيله، فإنه ذروة الإسلام، وكلمة الإخلاص فإنها الفطرة، وإقام الصلاة فإنها الملة، وإيتاء الزكاة فإنها فريضة واجبة، وصوم شهر رمضان فإنه جنة من العقاب، وحج البيت واعتماره فإنهما ينفيان الفقر ويدحضان الذنب، وصلة الرحم فإنها مثرة في المال ومنسأة في الأجل، وصدقة

(1) أبو العلاء المعري - اللزوميات - دار بيروت للطباعة والنشر - مج 1 - ص: 78.

(2) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 279.
تنتضل: تتبارى وتتسابق في الرمي. نهب: الغنيمة والاستيلاء. شرق: غص ووقف في حلقه.

السّر فإنها تكفر الخطيئة، وصدقة العلانية فإنها تدفع ميتة السوء وصنائع المعروف فإنها تقي مصارع الهوان"⁽¹⁾.

والنص كما نرى يحث على التشبث بأركان الإسلام الخمسة، إضافة إلى أعمال أخرى من البر حثّ عليها الإسلام، وأجزل العطاء لمن أخذ بها ويقول في معنى ما سلف "الفرائض الفرائض! أدوها إلى الله تؤدكم إلى الجنة، إن الله حرم حراما غير مجهول، وأحلّ حلالا غير مدخول، وفضلّ حرمة المسلم على الحرم كلها..."⁽²⁾، وهذا الخطاب جليّ هو الآخر، فالفرائض لا عذر في تركها، والأوامر لا مناص من الامتثال لها، والنواهي واجب تركها والمسلم بنيان الله لعن الله من هدمه كما جاء في الأثر، وفيه يقول تعالى "و من يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذابا عظيما"⁽³⁾، وقد يتجاوز في هذا الخطاب - النوع الأول - مجرد التذكير بالفرائض وإتيانها والموبقات والإبتعاد عنها، إلى النصح والإرشاد لاستكثار الحسنات، وتحسين الأخلاق وفتح رتق القلوب، يقول "و تعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص"⁽⁴⁾ ويقول أيضا "أفيضوا في ذكر الله فإنه احسن الذكر وارغبوا فيما وعد المتقين فإن وعده أصدق الوعد، واقتدوا بهدي نبيكم فإنه أفضل الهدى، وأستنوا بسنته فإنها أهدى السنن"⁽⁵⁾ ويعد هذا تحفيزا منه للناس حتى تزكوا أنفسهم عند بارئهم، ويسهل عليهم دخول جنة ربهم، ولم يقف عند الترغيب فقط، بل خلط ذلك بالترهيب، حتى يكون المسلم يقظا دوما لئلا تنزل به القدم يقول "واعلموا أن مجازكم على الصراط ومزالق دحضه وأهاويل زلله، فاتقوا الله عباد الله تقيّة ذي لب شغل التفكير قلبه وانصب الخوف بدنه، وأسهر التهجد غرار نومه وأظمأ الرجاء هواجر يومه. و قدم الخوف لأمانه، وتنكب الخوالج عن وضح السبيل وقصد أقصد المسالك

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري ابراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 158-159.

يرحضان: رحض: غسل. منسأة: نساء بمعنى آخره.

(2) المصدر نفسه - ص: 176.

(3) النساء - الآية: 92.

(4) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري ابراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 150.

(5) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري ابراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 150.

إلى النهج المطلوب...⁽¹⁾ ، والخطاب كما نرى تصوير وتهويل ليوم القيامة الذي لا ينجو من مزلق صراطه إلا من كان ذا عمل برّ وسلوك محمود ورجاء مشفوع بعمل وخوف دافع للزلل، وورع يُفضي إلى السلامة في دار السلام.

و الخطاب الثاني - الموجه للفئة العالمية - أو الخاصة، يشترك مع الخطاب الأول في أمور ويختلف عنها في أخرى، لأن أصحاب الخطاب الثاني ليسوا متساوين في العمل السيء -حسب رأيه- وليسوا سواء في الشبهات فعندما يخاطب معاوية مثلاً، وهو رجل صاحب علم ورجل سياسي، فإنه يغلظ له القول مع التنبيه له والإشارة إلى مظالمه التي تفضح غيه وظلمه، يقول في رسالة أرسلها إليه "و متى كنتم يا معاوية ساسة الرعية، وولاية أمر الأمة؟ بغير قدم سابق ولاشرف باسق، ونعوذ بالله من لزوم سوابق الشقاء، وأحذرك أن تكون متمادياً في غرة الأمانة، مختلف العلانية والسريرة، وقد دعوت الناس إلى الحرب، فدع الناس جانباً واخرج إليّ، واعفُ الفريقين من القتال، لتعلم أيُّنا المرين على قلبه والمُعطيّ على قلبه"⁽²⁾.

و النص كما نرى يشف عن معرفة الإمام علي بعقلية معاوية، فهو على يقين - معاوية- من أنه على غير حق، ولكنه يصر على المعاندة فهو لا يطلب دم عثمان رضي الله عنه، وإنما يريد ملكاً، وقد أشار إلى ذلك قول الإمام علي (مختلف العلانية والسريرة) فظاهر قوله المطالبة بالقصاص من قتلة عثمان - كما مرّ بنا- وباطنه الحرص على الولاية - ولاية الشام- أو الوقوف في وجهه - علي- حتى لا يستقيم له أمر وقد تحصل من وراء ذلك أمور تورثه الخلافة بأجمعها، وقد فطن له وطالبه بالنزال وترك الناس لحالهم حتى لا تتفاقم الفتنة، ولكن معاوية هو الذي ضرب الران على قلبه وغطي على بصره -حسب رأي علي- لا يمكن أن يبارزه أبداً، لأنه طامع في الدنيا، وقد قال له عمرو بن العاص لقد أنصفك الرجل، فقال له معاوية تكلتك أمك يا عمرو هل رأيت أحداً خرج إليه وعاد سالماً؟! ويقول علي في الرسالة نفسها "فأنا أبو حسن قاتل جدك وأخيك وخالك..و ذاك السيف معي وبذلك القلب ألقى عدوي، ما

(1) المصدر نفسه - ص: 139.

دحضه: دحضت رجله: زلقت. غرار: الغرار: قليل النوم.

(2) المصدر نفسه - ص: 206.

باسق: طال وعلا. المرين: الرين: الطبع وكل ما غلبك.

استبدلت ديننا ولا استحدثت نبياً وإني لعل المنهاج الذي تركتموه طائعين ودخلتم فيه كارهين⁽¹⁾ ولو تمعنا في هذا النص قليلاً فإننا ندرك أن الإمام علي يرى أن بقلب معاوية بقايا عداوة من الجاهلية فهو وآله تركوا الإسلام ولم يدخلوا فيه إلا بعد فتح مكة، وما كان دخولهم فيه إلا جئاً يحتمون بها -حسب رأيه- ويطبِقون قلوبهم على الحقد والكراهية والدغل، أما هو فما استبدل ديننا ولا نبياً، وهو على المنهاج القويم الذي ارتضاه الله لعباده ينافح عنه طوعاً لا يروعه شيء ولا يبالي أخرج إلى الموت أم دخل الموت إليه ويتضح هنا وفاء علي لذاته الأصلية رغم هذه الدواهي.

و يبقى مصراً على أنه على بينة من ربه، وأن معاوية ينازعه ما ليس له و يتهمة بغير ما كسبت يده، وما ذلك إلا لأن الدنيا أعمت بصره، ووجد في دم عثمان ما يغطي به بصيرته، يقول علي في رسالته الآتية "و كيف أنت صانع إذا تكشّفت عنك جلابيب ما أنت فيه من دنيا قد تبهرجت بزيتها وخذعت بلذتها، دعتك فأجبتها، وقادتك فأتبعتهَا وأمرتكَ فأطعتهَا، وإنه يوشك أن يقفك واقف على ما لا ينجيك منه مجن⁽²⁾، فالخطاب هنا يَجل موعظة جليلة، وهي أن الدنيا فانية مع زخرفها، ولا يتمسك بها إلا من عميت بصيرته، ولا تعمي بصيرة أحد إلا بالإعراض عن الحق واستمراء الباطل، ولن ينتبه من هو كذلك إلا إذا أوقفه واقف المنون فهناك تكون الحسرة والندامة، والتوله بالتوبة، وأنى له ذلك، ومن ورائه برزخ إلى يوم القيامة ولكن علي رضي الله عنه، لا ييأس من إسداء مواعظه، فهي حق والمسلم من نصح أخاه ولو بغي عليه، ولذلك نراه يخاطبه بقوله "ولا تمكن الغواة من سمعك، وإلا تفعل أعلمتك ما أغفلت من نفسك، فإنك مترف قد أخذ الشيطان منه مأخذه، وبلغ فيك أمله، وجرى منك مجرى الروح والدم"⁽³⁾.

إن المناصحة من شيم الإسلام المعلومة، لذلك لم يأل الإمام علي في تقديمها للناس، وهاهو ذا ينصح معاوية رضي الله عنه بوجوب إعراضه عن الغواة وأباطيلهم حتى تزكو نفسه، وإن لم يفعل فهو حري أن يبين له ما به فهو - معاوية في نظر

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 206.

(2) المصدر نفسه- ص: 205-206.

مجن: المجن، الترس.

(3) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 206.

علي- ترك نفسه على هواها وركن إلى الترف حتى أصبح للشيطان ذلولا وجرى منه مجرى الدم والروح، ومعنى ذلك أنه لا يصدر إلا عن نزعات ونفثات إبليس في سلوكه، ولنا ان نقف عند قوله (فإنك مترف) فالجملة فيما أرى لم ترد اعتباطا وإنما هي تشير فيما أعتقد إلى الآية الكريمة "و ما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون"⁽¹⁾ وقوله تعالى أيضا "و إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا"⁽²⁾ وهذه المعاني كما أعتقد هي التي جعات الإمام علي يطلب منازل معاوية لأنه أهل أن يقتل - حسب رأيه- وأن يدع الناس وشانهم حتى لا تزيغ بهم سبل الضلال، والشاهد عندنا هو اختلاف نبرة خطاب من يعلم من خطاب من لا يعلم، وخطاب الضال عن خطاب المضل.

و من هذا الخطاب ما قاله عندما بلغه أن عمرو بن العاص ينتقصه يقول "عجبا لا بن النابغة! يزعم لأهل الشام أن في دعابة، وأني امرؤ تلعبه، أعافس وأمارس لقد قال باطلا، ونطق آثما أما -و شر القول الكذب- إنه ليقول فيكذب، ويعد فيخلف ويُسأل فيبخل، ويسأل فيلحف، ويخون العهد ويقطع الإل"⁽³⁾.

فعمر بن العاص أراد تصغير مكانة علي عند الناس فوصفه بعدم الوقار، والدخول في الهرج والمرج واللعب مثل عامة الناس فجاء إنكار علي لذلك إنكارا شديدا، وردَّ السهام على صاحبه فهو يقول ويكذب ويعد ويخلف ويقطع صلة الرحم، ويبخل على من استعطاه، ويلحف في السؤال، وهذه صفات من أبغضه الإسلام وأوعده بالويل والثبور وعظائم الأمور، ثم يردف الإمام علي قائلا "أما والله إنه ليمعني من اللعب ذكر الموت، وإنه ليمعنه من قول الحق نسيان الآخرة، إنه لم يبايع معاوية حتى شرط أن يؤتیه أتیة، ويرضخ له على ترك الدين رضىخة"⁽⁴⁾ وإذن فعمر بن العاص -حسب رأيه- لا ينطق إلا باطلا، ولا يأتي الحق أبدا لنسيانه الآخرة وقد باعها بالدنيا، فهو لم يبايع معاوية إلا بعد أن اشترط عليه ولاية مصر، فقبل معاوية، وبذلك فقد

(1) سبأ- الآية:34.

(2) الإسراء- الآية:16.

(3) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري ابراهيم السيد- مصدر سابق- ص: 143-144. تلعبه: كثير اللعب. أعافس: أضراب وأصارع. أمارس: أضراب. الإل: القرابة.

(4) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري ابراهيم السيد- مصدر سابق - ص:143.

اشترى الفاني بالباقي، أما علي فينهاه عن اللعب ذكر الموت، وخوف الفوت؛ فوت الأعمال الصالحة.

ومن الخطابات التي تحمل التعنيف والحسرة والأسى، ما خاطب به الإمام علي أصحابه بعد التحكيم، الذي انفرج عن مكيدة بلبت جيشه، وقسمت صفه، وقسمت قوته يقول "الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجليل.. أما بعد: فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة، وتعقب الندامة، وقد كنت أمرتك في هذه الحكومة أمري ونخلت لكم مخزون رأيي، لو كان يطاع لقصير أمر، فأبيت علي إياء المخالفين الجفاة، والمنايذين العصاة حتى ارتاب الناصح بنصحه وضنّ الزند بقدره، فكنت وإياكم كما قال اخو هوازن:

أمرتهم امري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد⁽¹⁾
الغد⁽¹⁾

إن آفة الراعي ظلم الرعية، وآفة الرعية عصيان الراعي فيما ينوب من النوائب، ونبذ رأيه، ومجانبة نصحه، ومجابته بما يكره، وهو ما وقع لعلّي رضي الله عنه إذ أبى عليهم القبول بالتحكيم، لأنه خدعة وأغلظ لهم القول، وبادلهم المناصحة فبادلوه بها المقاطعة والجفاء، حتى رضي بما يكره ويفرحهم، فانجلت الأمور في الأخير على ما ساء الجميع، فخلع علي، وثبت معاوية وانقسم الناس، وتبلبلت الأمور وبلغت القلوب الحناجر، وأشرعت السيوف بين مقبل ومدبر، ولقد أبان الخطاب أن عليّ لم يدخر وسعا في إيداء نصحه وما علمته الأيام من تجارب؛ وما تقضي إليها كل تجربة، وبين لهم أن خلافه وخذلانه يورثان الحسرة والندامة، ولكنهم أبوا معارضين، لأنهم جفاة طغام -حشد- ممن ينبغي أن يعلم ويفقه في الدين، وتكاثروا على المخالفة والمنايذة حتى ظن أنه مخطئ فيما ذهب إليه، وشك في نصحه، وارتاب في فكره ولما انفرجت الأمور اتضح أن الحق والصواب ليس بالكثرة واللغط والتهديد وإنما هو بإعمال الفكر والإستبصار،

(1) المصدر نفسه - ص: 119-120.

نخلت: نخله. اختاره وصفاه. لو كان يطاع لقصير أمر: مثل عربي مشهور، يضرب لمن يعصي الرجل الثقة. الزند: العود الذي تقدح به النار والمراد: لم يبق رأي يصلح. أخو هوازن: هو الشاعر دريد بن الصمة.

باستقراء التاريخ، ولكن أنى يكون هؤلاء كذلك وهم يعصون أعلم إنسان في عصره فأعقبتهم المخالفة الحسرة وتفرقوا يمينه ويسرة وآبوا بغصة.

و لم يقف عناء أمير المؤمنين عند هذه الفئة المناوئة له منذ البدء -معاوية وعمر بن العاص، ثم من أرغمه على التحكيم من جيشه- بل تعداه إلى من هم أهلّه وأنصاره، وأقرب المقربين إليه، فهذا هو ذا ابن عمه عبد الله بن عباس واليه على البصرة ينقلب عليه، ويحمل ما في بيت مال المسلمين بالبصرة ويرحل إلى مكة المكرمة، وقد تنبه أبو الأسود الدؤلي إلى ذلك قبل أن يرتحل ابن عباس، فراسل الإمام علي وأعلمه بما فعل ابن عمه، فكتب رضي الله عنه إلى ابن عباس يحذره من مغبة مسلكه ذلك قائلا "أما بعد فقد بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت الله، وأخربت أمانتك، وعصيت إمامك، وخنت المسلمين، بلغني أنك خربت الأرض وأكلت ما تحت يدك فأرفع إلي حسابك، واعلم أن حساب الله أعظم من حساب الناس والسلام"⁽¹⁾، لقد وقع الأمر على أمير المؤمنين كالصاعقة، فلم يخطر بباله أن ابن عباس سيغدر به يوما، لذلك نراه يستعمل (إن) بدل (إذا) لاستبعاد حدوث ذلك فرد عنه ابن عباس برسالة قال فيها "أما بعد فإن كل الذي بلغك باطل، وأنا لما تحت يدي ظابط، وعليه حافظ فلا تصدق علي الظنين"⁽²⁾، ولكن الإمام علي لا يستوثق إلا باللموس، وليس في كلام ابن عباس ما يدل على ذلك، فراسله مرة أخرى طالبا منه التوضيح حيث يقول "أما بعد فإنه لا يسعني تركك حتى تعلمني ما أخذت من الجزية من أين أخذتها، وما وضعت أين وضعته، فاتقي الله فيما انتمنتك عليه، وإسترعيتك إياه، فإن المتاع بما انت رازمه قليل، وتبعاته وبيلة لا تبید، والسلام"⁽³⁾، فلما رأى ابن عباس أن الإمام غير مقتنع بكلامه ويريد أن يستوثق باللموس ردَّ عليه ردًّا غير جميل، واتهمه بسفك دماء المسلمين من أجل الملك والإمارة، وأعلمه بأنه ضاعن عن البصرة، وطلب منه أن

(1) ابن عبد ربه - العقد الفريد - شرحه وضبطه أحمد أمين وآخرون - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ط2

1962 - ج 4 ص: 355.

(2) المرجع نفسه - ص: 355.

(3) المرجع نفسه - ص: 355.

رازمه: جامعه.

يبعث واليا مكانه، ثم سار بأحماله في حماية أخواله بني هلال بن عامر بن صعصعة وكان مجمل ما أخذه كما يزعم بعض الناس ستة آلاف ألف⁽¹⁾.

و قال سليمان بن أبي راشد عن عبد الله بن عبيد عن أبي الكنود؛ قال : كنت من أعوان عبد الله بالبصرة - فلما كان من أمره ما كان - أتيت علياً فأخبرته، فقرأ "واتل عليه نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين"⁽²⁾.

ثم كتب إليه مرة أخرى قائلاً "أما بعد فإنني كنت أشركتك في أمانتي ولم يكن من أهل بيتي رجل أوثق عندي منك بمواساتي ومؤازرتي وأداء الأمانة، فلما رأيت الزمان قد كلب على ابن عمك والعدو قد حرد، وأمانة الناس قد خربت، وهذه الأمة قد فتنت، قلبت لابن عمك ظهر المجن، ففارقته مع القوم المفارقين وخذلتة أسوأ خذلان وخنته مع من خان..."⁽³⁾.

فكتب إليه ابن عباس يخبره أنه ما أخذ من مال البصرة إلا القليل وهو أقل من حقه⁽⁴⁾، فكتب إليه علي قائلاً " أما بعد فإن العجب منك إذ ترى لنفسك في بيت مال الله أكثر مما لرجل من المسلمين، قد أفلحت إن كان تمنيك الباطل وادعاءك ما لا يكون ينبجيك من الإثم، ويحل لك ما حرم الله عليك، عمرك الله إنك لأنت البعيد، قد بلغني أنك اتخذت مكة موطناً وضربت بها عطانا تشتري المولدات من المدينة والطائف وتختارهن على عينك، وتعطي بهن مال غيرك، وإنّي أقسم بالله ربّي وربك، رب العزة ما أحب أن ما أخذت من أموال لي حلالاً أدعه ميراثاً لعقبى، فما بال اغتباطك به تأكله حراماً! ضحّ رويداً! فكأنك قد بلغت المدى وعرضت عليك أعمالك بالمحل الذي ينادى فيه بالحسرة، ويتمنى المضيعُ التوبة، والظالم الرجعة"⁽⁵⁾، يكشف هذا الخطاب استياء أمير المؤمنين الشديد من سلوك ابن عباس، فهو قد خان الأمانة، وأخذ أموال اليتامى والأرامل والمجاهدين في سبيل الله واشترى به الجواري وأخلد إلى الأرض ولم يخش

(1) ابن عبد ربه - العقد الفريد - مرجع سابق - ص: 356.

(2) الأعراف - الآية: 175.

(3) ابن عبد ربه - العقد الفريد - مرجع سابق - ص: 358 - المجن: الترس، وقلبت ظهر المجن مثل.

(4) المرجع نفسه - ص: 358.

العطن: مأوى الإبل (وفي الكلام كناية).

(5) المرجع نفسه - ص: 359.

ضح: أمر من التضحية، أي لا تعجل في ذبحها (وفي الكلام استعارة).

فيما أتى عقاب الله وحسابه، ومن نوقش الحساب هلك، فكتب إليه ابن عباس يقول " والله لئن لم تدعني من أساطيرك لأحملنه إلى معاوية يقاتلك به"(1).

نعم هذا ابن عباس استولى على أموال المسلمين بعد أن استغل أمير المؤمنين، ولما أنكر عليه ما أتى هدهه بإعطائه لمعاوية ليتقوى به لمحاربته، ولا ندري كيف وقف ابن عباس مع علي في أول الأمر، وخذلانه إياه في آخر المطاف، إنَّ الحوادث لتوحي إلى أنه وقف معه أثناء قوته طمعا في الدنيا، وخذله عندما رأى إدبار الخلافة عنه، فاستغل الظرف ليستغني، والأعجب في كل هذا أن يقول للإمام علي لئن لم تدعني من أساطيرك لأحملنه إلى معاوية، لقد أصبح كلام أمير المؤمنين في التذكير بأمانة الله وحرمة مال المسلمين من الأساطير، فسبحان مغير الأحوال، ولا أخال أن أمير المؤمنين أخطأ عندما بلغته خيانتته، واستوثق منها فقرأ قوله تعالى "واتل عليه نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فكان من الغاوين"(2).

وبعد فكيف لا يصاب الإنسان بالاغتراب في مجتمع هذا سلوك صفوته وأعمدة بنائه الذين ينتمون إلى الشرع المنفرد، فيتمسك به الإمام علي وحده وينبذه الأقرب والأبعد، ورحم الله عمر بن الخطاب حيث قال: قول الحق لم يبق لي صديقا، وقبل هذا وذاك نقول صدق الله تعالى حيث يقول "و إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله"(3).

(1) ابن عبد ربه - العقد الفريد - مرجع سابق - ص: 159.

(2) الأعراف - الآية: 175.

(3) الأنعام - الآية: 116.

المبحث الثاني: أبعاد الاغتراب عند الإمام علي

لقد أشرت في أثناء هذا البحث إلى أن أبعاد الاغتراب متنوعة كما فصل ذلك كل من تعرض بالدراسة لهذا الموضوع؛ وهذه الأبعاد تتمثل في العجز والعزلة، واللامعيارية، وفقدان المعنى أو المغزى، التمرد، التشيء، سلب الحرية، معتمدين في ذلك على تصنيفات مليفين سيمان **M.seeman** وهي تصنيفات ذات أبعاد سيكوسوسيولوجية (نفسية اجتماعية)⁽¹⁾.

والحقيقة أن هذه الأبعاد قد نجدها كلها عند الشخص المغترب، وقد لا نجد إلا بعضا منها عنده، وذلك بحسب موقعه في المجتمع ومن المجتمع، وعليه فلكل ذات مغتربة ما يبعدها أو يقربها من الذوات المغتربة الأخرى، إذ يراعي في ذلك المكان والزمان والثقافة، والانتماء الحضاري وغيرها من الملاحظات، وبما أننا بصدد دراسة هذه الأبعاد لدى الإمام علي، فإننا ملزمون بإتباع الموضوعية والعلمية؛ بحيث نقف عند الأبعاد التي لابستها حياته الحافلة بالأحداث، متجنبين إقحام ما ليس له قيمة في اغترابه، ومعطين الأهمية لما له صلة به ونرجو أن نوفق في ذلك.

I. الشعور بالعجز وعدم القدرة:

لما رفع أهل الشام المصاحف على الرماح ودعوا إلى الاحتكام إلى كتاب الله- كما مر بنا- رفض الإمام علي هذه الخدعة وأصر على مواصلة الحرب، وكان الأشتر قاب قوسين من معاوية، لكن فريقا كبيرا من أصحابه أصرروا على وقف القتال والقبول بتحكيم كتاب الله في تلك الفتنة، فنهاهم عن ذلك مبينا لهم أن القوم ما رفعوا المصاحف إلا لإحساسهم بقرب نهايتهم وانهزامهم ولكنهم هددوه بالقبول أو بالعصيان والخروج عليه أو قتله، فلما رأى أن الأمر سيخرج من يده أقرهم على ذلك، وهو غير راض- وهنا أحس بفقدان السيطرة- وعندما اختار أهل الشام عمرو بن العاص ممثلا لمعاوية، اختار أصحابه أبا موسى الأشعري، فرفض ذلك، وقال دعوني أرميهم بابن عباس فإنها مكيدة، فأبوا عليه ذلك مرة أخرى، وقدموا أبا موسى الأشعري، فأحس مع فقدان السيطرة بالعجز، فالأمر تقضى دونه، والأمر تسير على غير ما يريد! وهو ولي أمر المسلمين! وقد انطلت الحيلة

(1) ينظر: نبيل اسكندر- الاغتراب وأزمة الإنسان المعاصر- ص: 205.

على أبي موسى الأشعري وخدعه عمرو بن العاص، حيث خلعه من الخلافة وثبت معاوية، وعندها استفاق أهل العراق من سباتهم وأصبحوا بتلا ومون وأقبل بعضهم عليه- على علي- يحمله المسؤولية على ما آلت إليها الأمور، فخطب فيهم قائلا " فأجمع رأي ملئكم على أن اختاروا رجلين فأخذنا عليهما أن يجعجا عند القرآن، ولا يجاوزاه وتكون ألسنتهما معه، وقلوبهم تبعه، فتأها عنه، وتركنا الحق وهما يبصرانه، وكان الجور هواهما والإعوجاج رأيهما، وقد سبق استثنائنا عليهما- في الحكم بالعدل والعمل بالحق- سوء رأيهما وجور حكمهما، والثقة في أيدينا لأنفسنا حين خالفا سبيل الحق واتيا بما لا يعرف من معكوس الحكم" (1)

فالخطاب كما نرى يوضح بجلاء انفلات الأمور من يد أمير المؤمنين، فالملاً اختاروا رجلين، ولم يختار هو، ولكنه مع رفضه للاختيار، اشترط الوقوف عند أي الذكر الحكيم، ولكن أبا موسى الأشعري- الذي رفضه علي ممثلاً له- لعب به عمرو بن العاص، فجارا في حكمهما، وخلها الخليفة الشرعي، وأثبتا دخيلاً على الحكم، فأبى عليهم ذلك، بحكم أنه استثنى كل حكم لا يكون القرآن مصدره، وبالتالي فالحق معه، وله أن يرفض ما صدر عن الحكمين، مؤكداً أحقية أتباعه في نبذ هذا الحكم لمجافاته الصواب.

ولكن أصحابه وأتباعه انقسموا على أنفسهم، فبعضهم رأى رأيه، وبعضهم تاه، فلم يعد يعرف الحق من الباطل، وقسم أعلنها واضحة صريحة قائلين له: لقد كفرت أنت والحكمين وكل من رضي بالتحكيم، فقال لهم: أستم من حملي على الرضا بالتحكيم؟! فقالوا بلى، ولكننا أقررنا على أنفسنا بالكفر وتبنا إلى الله، فإن فعلت فنحن معك، وإن لم تفعل فنحن برءاء منك وممن اتبعك، فحاول أن يردهم إلى جادة الصواب ولكنهم نفذوا تهديدهم وقتلوا كثيراً من المسلمين لا شيء إلا لأنهم من أتباع الإمام علي، فخاطبهم رضي الله عنه قائلا " فإن أبيتم إلا أني أخطأت، وضللت فلم تضللون عامة أمة محمد- صلى الله عليه وسلم- وآله بضلالي وتأخذونهم بخطئي وتكفرونهم بذنوبي، وتخلطون

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق- ص: 182.
أن يجعجا: أن لا يتجاوزا

من أذنب بمن لم يذنب⁽¹⁾ لقد كان هؤلاء القوم قبل رفع المصاحف يؤمرون فيطيعون، وهامهم أولاء اليوم يأمرهم إمامهم، ويصرون على مطلبهم، الإقرار بالكفر وإعلان التوبة، فأصبح بين عدوين، قديم بالشام، وجديد معه بالكوفة، فغد امرتها بالعجز بين الطرفين، فنصح هؤلاء الخوارج بالعدول عن رأيهم والانضمام إليه وأن يدعوا وساوس الشيطان والنفس وأن يبتعدوا عن تكفير الناس واستحلال دمائهم بلا جرم أتوه، فإن كان مذنباً- في نظرهم - فليس من العدل أن يأخذوا الناس بجريرة غيرهم، فهذا الذي أتوه لم يقره قرآن ولا هدي نبوي، ثم أشار إلى أن مقصده شريف لا ينبغي لعاقل أن يرفضه يقول : " ولما دعانا القوم إلى أن نحكم القرآن، لم نكن الفريق المتولي عن كتاب الله سبحانه وتعالى، وقد قال عز من قائل (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله ورسوله) فردّه إلى الله أن نحكم بكتابه، وردّه إلى الرسول أن نأخذ بسنته، فإذا حكم بالصدق في كتاب الله فنحن أحق الناس به وإن حكم بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله فنحن أحق الناس وأولاهم بها" ⁽²⁾ والنص كما نرى مليء بالحجج الباهرة والبراهين الدامغة، فمن الأولى بالرضا بتحكيم القرآن والسنة، هو من يعتقد أنه على صواب وحق، والآخر على مزلة الباطل، بل إن الرضا بتحكيم القرآن والسنة في حد ذاته فضيلة، لا يتكبحها إلا عاق وجاهل، فإن القرآن يقول " وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى، فقاتلتا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله" ⁽³⁾ وهو - علي - يرى أنه أول من آمن بالله ورسوله، فكيف يكون أول من يعرض عن الاحتكام إلى شرعه- وإن كان يعلم أن مسألة التحكيم خدعة- إلا أنه قبل بذلك وحرص على أن يكون التحكيم نزيهاً، ولكن الحكمين تاها عن شرع الله؛ فوجب عدم التقيد بحكمهما، بيد أن قوله ذهب أدراج الرياح، فقد استوطنت الفتنة صفوف أتباعه، فنادى الخوارج أن لا حكم إلا الله، وهي " كلمة حق أريد بها باطل" ⁽⁴⁾ لأن حكم الله لا بد له من بشر ينفذه، وهذا البشر هو ولي المسلمين الذي بايعوه، ثم اعتدوا على حقه في الحكم، فألزموه أولاً أن يرض بالتحكيم، ثم أراد فريق منهم أن يلزموه بالكفر

(1) المصدر نفسه - ص: 187.

(2) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 166.

(3) الحجرات - الآية 9.

(4) المصدر نفسه - ص: 280.

والتوبة، وإلا قاتلوه، فخاطب هذا الفريق - الخوارج - بقوله " أصابكم حاصب ولا بقي منكم أثر، أبعد إيماني بالله، وجهادي مع رسول الله صلى الله عليه وآله أشهد على نفسي بالكفر! (لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين) فأوبوا شر مآب، وارجعوا على أثر الأعقاب، أما إنكم يستلقون بعدي ذلاً شاملاً وسيفاً قاطعاً، وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنة.. " (1) إن شدة الانفعال واضحة في هذا الخطاب، وهي شدة تنبئ عن سريان الإحساس في عقل الإمام بالعجز إزاء هؤلاء القوم؛ العجز في إقناعهم بفساد ما ذهبوا إليه، وهذا العجز جعله غاضباً أشد الغضب، فدعا عليهم أن يصيبهم الله بالحجارة وأن لا يبقي منهم أثراً، فكيف لمن آمن بالله وجاهد مع رسوله، وشهد معه كل المشاهد أن يقر على نفسه بالضلال، هيهات أن ينالوا ما يرجون، ثم يقرر أنهم سيلقون بعده ذلاً شاملاً، وعذاباً مستمراً، وإيعاداً لهم عن كل ما يتمنون، ويكون ذلك على أيدي ظلمة لا يعرفون الحق معرفتهم الباطل. وبمجرد إمعان الفكر في النصوص السابقة وما حشد فيها الإمام علي من حجج وبراهين، يدرك مدى ما كان يعانيه من عجز وفقدان السيطرة فأصبح نهبا للغربة القاتلة والاغتراب المغيض المثير للغضب والحنق.

وبما أن أغلب الناس تتحكم فيهم الإرادة لا العقل كما يقول شوبنهاور (2)، فإن أولئك أصروا على قولهم بأن لا حكم إلا لله، وقد سرت الكلمة كالنار في الهشيم؛ فكان يرددها الفرد كما ترددها الجماعة، وقد آذوه كثيراً بترديدهم لهذا الشعار، ومن أمثلة ذلك أن رجلاً من الخوارج يقال له البرج بن مسهر الطائي قال على مسمع منه (لا حكم إلا لله) ليغضبه " فقال رضي الله عنه " أسكت يا أترم، فوالله، لقد ظهر الحق فكنت فيه ضئيلاً شخصك، خفياً صوتك، حتى إذ نعر الباطل نجمت نجوم قرن الماعز " (3) إن كلام الإمام وما فيه من حدة يكشف إلى أي مدى صارت منزلته بين فريق من الناس كانوا بالأمس من مؤازريه، وهو عندما يستبطن نفسه ولا يجد وسيلة تسكت أمثال هؤلاء يتملكه هول العجز عن ضبط أمور الدولة، فإن استعمل معهم القوة قال الناس إن علياً يقتل أصحابه، وإن تركهم أفسدوا وفتنوا الناس، وهذا ما كان يرمي إليه معاوية

(1) المصدر نفسه - ص: 128.

(2) ينظر: ويل ديورانت - قصة الفلسفة ترجمة عبد الله المشعشع ص: 244.

(3) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 184.

وعمر بن العاص، وهو ما كان قد نهى بسببه توقيف القتال، والرجوع إلى كتاب الله، الذي دعاهم إليه قبل بدء القتال، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم، وأفلح أهل الشام في بليلة وتفرق كلمة أهل العراق، واستمر هؤلاء الخوارج في إهدار دم المسلمين وسفكها، وهنا خرج إليهم في معسكرهم بالنهر وإن بظاهر الكوفة، فخطبهم ووعظهم، فرجع بعض منهم، إلى جيشه، واعتزل بعضهم في بيوتهم، وبقي أكثر من ألف وخمسمائة رجل منهم على هذا الموقف، فحدثهم وأنذرهم بقوله: "وأنا نذير لكم أن تصبحوا صرعي بأثناء هذا النهر، وبأهضام هذا الغائط، على غير بينة من ربكم ولا سلطان مبين معكم، قد طوحت بكم الدار، واحتبلكم المقدار، وقد كنت نهيتكم عن هذه الحكومة، فأبيتم على إباء المنابذين، حتى صرفت رأيي إلى هواكم، وأنتم معاشر أخفاء الهام، سفهاء الأحلام، ولم آت - لا أبالكُم - بجرا ولا أردت لكم ضرا" ⁽¹⁾ ونلاحظ كالعادة الحجاج في هذا الخطاب؛ وهو أسلوب معهود عنده؛ فقد بين لهم سوء مسلكهم، فليس لهم من البراهين والأدلة والحجج ما يجعلهم يسلكون هذا المسلك، لا من الكتاب ولا من السنة، وأنه قد نهاهم - منذ البدء وقبل وقوع هذه الفتنة - عن قبول التحكيم، وهو لم يأت في سلوكه معهم بذنب عظيم يخرجهم من صفوفه، ولا يريد لهم ضرا، بل يسعى في منفعتهم؛ فالخروج على الحاكم في غير معصية، معصية، ولكن كلامه لم يؤثر فيهم وكان كمن ينفخ في الرماد، فبارزهم بالقتال فأبادهم، إلا قليلا منهم، وقد ظن أنه قد قضى على بؤرة التوتر، وفصل في الأمر، ونجح في إزالة العقبة الكبيرة من أمامه، وما درى رضي الله عنه أن ما كان ينتظره من جيشه الرابض معه كان أدهى وأمر مما كان من أمر الخوارج، فقد أمرهم بالتجهز لغزو الشام وإنزال أهله على الحق، فتلكأ بعضهم، وفترت عزيمة فريق آخر، وتباله فريق ثالث، وأيقن أن الأمر لم يعد في صالحه، وأن القوم قد ركنوا إلى الدنيا، وفتروا في إقامة الدين الصحيح، الذي يكون أداة إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وجمع شمل الأمة حتى ينتظم النظام، ويستقيم الحكم

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - - ص: 120.

أثناء: أثناء النهر ما تعوج منه، أهضام: الهضم
المطمئن من الأرض، وبطن الوادي، طوحت: طوحه، توهه فرمى هو بنفسه ها هنا وها هنا، احتبلكم: الحباله المصيدة، واحتبله أخذه بها
المقدار: المقدار القضاء والحكم كالقدر، بجرا: البحر الأمر العظيم.

الشرعي، وتقام دولة الحق، التي من أجلها قبل تولي الخلافة فخاطب كل هؤلاء قائلا :
 " إن أفضل الناس عند الله من كان العمل بالحق أحب إليه وإن نقصه وكرثه، من
 الباطل وإن جر إليه فائدة زائدة، فأين يتاه بكم! ومن أين أوتيتم؟ استعدوا للسير إلى
 قوم حيارى عن الحق لا يبصرونه، وموزعين بالجور لا يعدلون به، جفاة عن الكتاب،
 نكب عن الطريق، ما أنتم بوثيقة يعلق عليها، ولا زوافر عز يعتصم إليها، لبئس
 حشاش نار الحرب أنتم! أف لكم، لقد لقيت منكم برحا، يوما أناديكم ويوما أناجيكم، فلا
 أحرار صدق عند النداء ولا إخوان ثقة عند النجاء" ⁽¹⁾ إن هدفه هو إقامة دولة الحق
 بالحق؛ والمقياس عنده هو الإسلام الحق، وإن تنكبه أغلب الناس، لأن الحق لا يقاس
 بالعدد، والباطل باطل وإن كثرت جلبته وعدده، لقد نادى أصحابه وناجاهم، وعاد في كلتا
 الحالتين بالخيبة؛ فليسوا من العزة بمكان ولا هم أهل لأن يفزع إليهم، لأن القوم - في
 نظره - ليسوا بشيء، فالله يعصى ويرضون، وتنتقص أطرافهم فلا يمتعضون، وهم بعد
 ذلك ليس لهم من الأنفة ما يحركهم، ولا من المروءة ما ينهض بهم، فرضوا أن يحكم
 الأرض أهل الشام؛ مجمع الجفاة الطغام، لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا، جلبوا
 من أطراف شتى، وربوا على غير التقوى، فهم لصاحبهم طائعون رغم ظلمه، وقومه له
 عاصون رغم عدله، فكيف يصنع من داؤه أصحابه وهمومه من كانوا خلانته، فلا شك
 أن التذمر قد بلغ مداه عنده، ولكن غضبة لا تعقبها وثبة دليل عجز وفقدان السيطرة،
 فبمن يثب وبمن يهدد عدوه وقد أصبحوا - جيشه - أعوانا عليه بعصيائهم وتمردهم
 عليه.

إن شعور وإحساس الفرد بالعجز والفشل إزاء تحقيق ما يصبوا إليه، وشعوره
 بالإحباط الناتج عن وجود فجوة كبيرة بين ما يتوقعه من نتائج وما يتمناه حقيقة ⁽²⁾ يعزز
 الشعور بالاغتراب وهو كذلك، فما كان يتمناه علي رضي الله عنه هو القضاء على كل
 الشبهات وإقامة العدالة في دولة يسودها الإسلام في كل مناحي الحياة هذا ما يتمناه
 ويسعى إليه ولكن ما يتوقع من نتائج - باستقراء الوقائع - يقف دونه، فعدوه موحد وله

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 166.

كرثه: كرثه الغم: اشتد عليه، موزعين: أوزعه بالشيء أغراه، يعدلون: عدله وازنه، زوافر: زوافر المجد أعمدته
 وأسبابه المقوية له، البرح: الشدة والشر، النجاء: انتجاء خصه بمناجاته.

(2) ينظر: قيس النوري - الاغتراب مصطلحا ومفهوما وواقعا مجلة عالم الفكر، المجلة العاشرة 1979 ص: 15.

في كل يوم فتح جديد، وهو مشتت الأصحاب وله في كل يوم جديد وهو التقهقر عن هدفه، وكان لإحساسه المرهف وعصيان أصحابه له أكبر الأثر في توقعه الهزيمة أو أقول نجمه حيث يقول "... ولكن بمن وإلى من؟ أريد أن أدواي بكم وأنتم دائي كناقش الشوكة بالشوكة، وهو يعلم أن ظللها معها، اللهم قد ملئت أطباء هذا الداء الدوي...." (1) وأعتقد أن هذا النص قد كشف - مما لا يدع مجالاً لأي تكهن - عجز الإمام عن السيطرة على جيشه، وشتان ما بين آماله وواقعه، فإقامة دولة الحق كما يتصورها، بينها وبينه أمد بعيد وهو أمل لا يمكن أن يتحقق، فهو يريد تغيير الموقف، ولكن بمن يستطيع فعل ذلك، إذا كان من يؤازره قد أصبح من أشد الناس خذلانا له، بل أصبح عوناً للعدو عليه، ومثله معهم في ذلك كمن يريد أن يخرج الشوكة من جسمه بالشوكة وهو يعلم أن ضررها معها فلا يمكن إصلاح الضرر بالضرر وهي قمة المأساة.

اللامعيارية: Normlessness

يمثل هذا البعد تبابل الحقائق وأن الأشياء لم يعد لها أية ضوابط معيارية، فما كان خطأ أصبح صواباً وما كان صواباً أصبح ينظر إليه على أنه خطأ من منطلق إضفاء صبغة الشرعية على المصلحة الذاتية للفرد، وحجبها عن المعايير وقواعد وقوانين المجتمع. (2) وينطبق هذا الأمر على حال أهل العراق؟ فبعد التشتت الذي أصابهم بعد التحكيم أصبح كل فرد منهم لا تهمة إلا نفسه، ولا يسقي إلا غرسه! ظناً منه أنه بذلك يحمي نفسه، وإن خالف قواعد الدولة ونظامها والإنصياح لإوامر الحاكم و الوفاء بالبيعة فأصبح الإمام علي وحده في جهة، وأصبح جيشه أمماً مختلفة - كل فرد أمة - على غير هدى يسировن، وفي حب الدنيا يتنافسون، ونسوا العهود والمواثيق، وأقبلوا على الفاني، وزهدوا في الباقي، فانكفأت الأمور كما يكفأ الإناء بما فيه، فأراد رضي الله عنه أن يزيل عنهم هذه الغشاوة حتى يؤوبوا إلى صوابهم - لأنه من حق الراعي أن ينصح رعيته، ومن واجب الرعية الامتثال لمقال الراعي، حتى يلتئم الصدع، ويرم الانقسام، فقال مخاطباً أصحابه لما رأهم صفوفاً مختلفة، بدل أن يكونوا

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 161.

(2) ينظر: د. عبد اللطيف محمد خليفة - الاغتراب دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة د. ط 2006 ص:

صفا واحدا، محذرا لهم من التفرق والعصيان داعيا إياهم إلى نبذ المصلحة الذاتية، وإيثار المصلحة العامة، لأنهم إن لم يفعلوا فضحوا في الدنيا والآخرة يقول " أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم، وإبطائكم عن حقي: ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي، استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا، وأسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سرا وجهرا فلم تستجيبوا، ونصحت لكم فلم تستجيبوا"⁽¹⁾ فما قد انقلبت المعايير كما نرى؛ فأصحاب الباطل يجدون في طلبهم، ومن يمثلون الحق متقاعسون؛ لا ينفعهم النصح، ولا يبعثهم الزجر، ولا يثيرهم الباطل، ولا ينتصحون بنصيحة ولي الأمر؛ الذي أكد عليه الشرع الحنيف، ولكن لما فقدت المعايير الأخلاقية والسياسية والاجتماعية قد سيتها في نفوسهم، أصبح الخطاب الموجه إليهم كظنين الذباب، أو كحديث صبيان لا يعنيه من قريب أو من بعيد، رغم نزول الإمام إلى مستوى يترجاهم فيه وقد استشرع منهم ذلك الاستخفاف بالأمر فأغلظ لهم القول قائلا " أشهود كغياب، وعبيد كأرباب، أتلوا عليكم الحكم فتنفروا منها وأعظكم بالموعظة البالغة فتفرقون عنها، وأحثكم على جهاد أهل البغي فما آتي على آخر قولي، حتى أراكم متفرقين أيادي سبأ... أقومكم غدوة وترجعون إلي عشية كظهر الحنية، عجز القوم وأعزل المقوم"⁽²⁾ فهم يعصون من تجب عليهم طاعته، يحدثهم بالحكمة فيفرون منها، ويعرضهم بالحسنى فيعرضون، ويحثهم على جهاد عدوهم فيتفرقون، كأن المخاطب غيرهم، يقومهم في الصباح بالحكم فيعودون إليه في المساء أشد اعوجاجا مما كانوا حتى أجهدوا مقومهم ومعلمهم وقائدهم، والعلة في ذلك هي انهيار القيم الإسلامية الصحيحة في نفوسهم، وإذا انهارت القيم الضابطة للسلوك خربت العقول وضلت الأعمال، وماجت النفوس في غياهب الأهواء، ومع كل ذلك يظل حرص علي رضي الله عنه على السير قدما في تقويم اعوجاجهم صباحا و مساء عله يظفر منهم بما يسر، ولكن هيهات، يقول "أيها القوم الشاهدة أبدانهم، الغائبة عنهم عقولهم، المختلفة

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق- ص: 149.

(2) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 149.

الحنية: القوس.

أهواؤهم، المبتلى بهم أمراؤهم، صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه! لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم، فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلا منهم⁽¹⁾

إن حضور الشخوص وغياب العقول، وتباين الأهواء لدليل قاطع على أن القوم قد استراحوا إلى ما اختاروا من عصيان ولي الأمر، ومن ورائه نبذ القيم السليمة، والمعايير الحقة، إذ لم يغرههم بالحق طاعة أهل الباطل لصاحبهم، بل زادهم ذلك تشبيطا؛ حتى لقد تمنى لو أعطاه معاوية رجلا واحدا من أهل الشام، وأعطاه عشرة من الذين ابتلي بهم.

والمنتبغ للتاريخ يجد الناس بخير ما أطاعوا ولي أمرهم في غير معصية، فإذا نابذوه وجفوه حلت البلية، وانحلت عرى الروابط وانتكست الأمة كليا أو جزئيا، وقد كان من أمر هذه الأمة العجب؛ لا يغضبون الله، ويغضبون لأبائهم، ويمكنون لعدوهم ما يأنف منه الحيوان الأعجم، فكيف يقوم يسلمون قيادهم تدريجيا لمن سيسومهم العذاب الجسدي والنفسي، دونما حراكا أو ذبا، ولو على النخوة، والقوم والجهة، يقول الإمام علي "وقد ترون عهود الله منقوضة فلا تغضبون، وأنتم لنقض ذمم آبائكم تأنفون، وكانت أمور الله عليكم ترد، وعنكم تصدر، وإليكم ترجع، فمكنتم الظلمة من منزلتكم، وألقيتم إليهم أزمكتكم، وأسلمتم أمور الله في أيديهم يعملون بالشبهات، ويسيرون في الشهوات..."⁽²⁾ لقد أسمع لو نادى حيا ولكن لا حياة لمن ينادي، فمن يتنازل عن حريته طائعا غير مستكره، لقوم يسيرون بالشبهات لحري بهم الخزي في الحياة الدنيا والآخرة والله يقول "ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار"⁽³⁾ ولا شك أن هذه الآية غابت عنهم، كما غابت عنهم عقولهم، فليس هناك أعجز ممن يمكن عدوه من نفسه، وهذا من أشد أنواع الخنوع، وانقلاب المعايير في حياة هذه الجماعة.

وقد استوحش علي من أنصاره وحشة عظيمة لما ولوا على أدبارهم وقارن بينهم وبين أصحابه في أوائل الدعوة الإسلامية مع الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم

(1) المصدر نفسه ص: 149.

(2) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 154.

(3) هود - الآية 113.

فزادته المقارنة قرحا على قرح، وحزنا على حزن، حتى حن إليهم وتمنى لقياهم يقول "أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرؤوا القرآن فأحكموه.... وسلوا السيوف أغمادها وأخذوا بأطراف الأرض زحفا زحفا، وصفا صفا بعض هلك وبعض نجا، لا يبشرون بالأحياء ولا يعززون عن الموتى مره العيون من البكاء خمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء صفر الألوان من السهر، على وجوههم غبرة الخاشعين، أولئك إخواني الذاهبون، فحق لنا أن نظماً إليهم، ونعظ الأيدي على فراقهم..." (1) تلك هي صفات عبد الرحمن التي تمنى لو أنها وجدت في أنصاره وتحلى بها أتباعه، كما كانت في إخوانه الأوائل، عندما كان الحق باسقا، والعدل قائما، والجور مقموعا، ولكن كيف له بأناس مثل أولئك، فأتباعه أخذوا إلى الأرض فجذبته وأصحابه الأوائل رنوا إلى الأعلى فانخطفت أرواحهم إلى الملاء الأعلى، فمن يستطيع أن يسوي الثرى بالثرى، والماء الآجن بالماء الزلال، ولكن المؤمن لا يزال يأمل خيرا مهما كثرت الفتن، فلا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، لذلك نراه يبصر الناس في آخر هذه الخطبة بخطر أهل البغي على الدين والنظام، ليستنهض الهمم حتى يقيم دولة الحق بالحق يقول "إن الشيطان يسني لكم طرقه، ويريد أن يحل دينكم عقدة عقدة ويعطيكم بالجماعة الفرقة، وبالفرقة الفتنة، فاصدقوا عن نزعاته، ونفثاته واقبلوا النصيحة ممن أهداها إليكم واعقلوها على أنفسكم" (2) لقد كان يعلم - كما يعلم كل مؤمن - أن الأمة لا تصلح في أي مكان أو زمان إلا بما صلح بها أولها وهو الأخذ بالمرجعية الإسلامية كلها دون نقص أو تحريف، لأن بداية الفتن، فتنة واحدة، ومعظم النار من مستصغر الشرر، لذلك أكد على لزوم الجماعة، ونبذ الفرقة لأن الذنب لا يظفر إلا بالشاة القاصية، وعرى الإسلام وثيقة متصلة، فإذا نقض منها اليوم عقدة لحقتها عقد، وإذا انحل منها شيء تبعته أشياء، حتى يتسع الخرق على الراقع، وحينها تكون الداهية ومن ضاق عليه الحق اليوم فالباطل غدا عليه أضييق، وقد استبرأ لدينه بأخذ الوسطية، وترك اليمين والشمال، وما أقل من يفعل ذلك ؛ لأن الدنيا حلوة خضرة وأبناءؤها كثيرون، وأبناء الآخرة معدودون، وهم القابعون على الجمر في كل زمان.

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 162.

(2) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 162.

إن القابع على الجمر هو كل عبقرى حساس، عبقرى لإدراكه لحركية المجتمع الكلية وما تؤول إليه في النهاية عندما تكون محاطة ومصاحبة بشروط معينة، وهو حساس لصفاء ذهنه وروحه؛ فهو يقول ما يعتقد، ويتوق إلى تحقيق ما يحس ولذلك فإن العبقرى الموهوب هو أشد الناس مقاساة للألم⁽¹⁾، وكذلك هو فشرة ذكائه، ودقة معرفته، وبعد نظرة، كانت من أسباب تعاسته، لأنه يرى نتائج الأحداث قبل تحققها واقعياً، فينبه إليها، ويحث الناس على تجنبها إن كانت شراً، ويدعوهم إلى الأخذ بها إن كانت خيراً، والمتصفح لنهج البلاغة يجد كما هائلاً من الأفكار، فتراه مثلاً ينبه إلى خطر أهل الشام وقادتهم من بني أمية وغيرهم حيث يقول: "والله لا يزالون حتى لا يدعوا الله محرماً إلا استحلوه ولا عقداً إلا حلوه، وحتى لا يبقى بيت مدر ولا وبر إلا دخله ظلمهم"⁽²⁾ إن عبقرية الإمام علي تتضح من خلال فهم السلوك العام لأهل الشام مع ربط الحوادث وتسلسلها، فقد دعا معاوية إلى التخلي عن ولاية الشام، فأبى وجيش الجيوش لقتاله، فراسله ونهاه عن ذلك مراراً، ثم جدد له الدعوة إلى التخلي عن الفتنة فأبى، والتمس له الأعذار، وبعث إليه الرسل حقناً للدماء فأبى معاوية إلا المنابذة، وحتى قال علي "ولقد ضربت أنف هذا الأمر وعينه، وقلبت ظهره وبطنه فلم أر فيه إلا القتال أو الكفر بما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم..."⁽³⁾ فلما وقع القتال واستفحل وكادت الدائرة تدور عليه - معاوية - رفع القرآن على أسنة الرماح للتحاكم إليه، وكان له أن يفعل ذلك قبل أن تسفك الدماء لو كان صادقاً في دعواه، ولما رأى في الأمر حتفه لجأ إلى حيلة التحكيم، ليسترجع أنفاسه، ولم يغيب هذا عن دهاء الإمام علي، ولكن أصحابه خدعوا فكان ما كان من أمر الحكمين، وتفرق كلمة أهل العراق، لذلك أكد في النص السابق أن بني أمية أهل دنيا، وإذا تمكنوا من الاستحواذ على الحكم فلن يبق بيت إلا ودخله ظلمهم، وجورهم، لأنهم لا يعرفون الحق معرفتهم الباطل، ولن يرى الناس منهم - حسب رأيه - إلا ما يسوؤهم ويضرهم، ولكن تحليل العالم الشفيق والخليفة الصدوق لم يفلح في إقناع عريضي القفا من أصحابه، فنصحهم باللين وأغلظ لهم القول فكان عمله

(1) ينظر: ويل ديورانت قصة الفلسفة - مرجع سابق - ص: 261.

(2) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 150.

(3) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 152.

كله صرخة في واد، ونرى معاني ذلك وغيرها في خطبة ألقاها على مسامع أهل العراق حين أبوا مواصلة قتال أهل الشام، حيث كان النصر منهم قريبا، "يا أهل العراق إنما أنتم كالمرأة الحامل؛ حملت فلما أتمت أملت ومات قيمها، وطال تأيمها، وورثها أبعدها، أما والله ما أتيتكم اختيارا ولكن جئت إليكم سوقا، ولقد بلغني أنكم تقولون علي يكذب، قاتلكم الله تعالى! فعلى من اكذب؟ أعلى الله؟ فأنا أول من آمن به! أم علي نبيه؟ فأنا أول من صدقه"⁽¹⁾ لم يكن لأهل العراق المنطق العلمي، أو لنقل لا منطق لهم أصلا في هذا المقام، لقد حاربوا مع الإمام علي حتى غدا النصر أقرب إليهم من حبل الوريد، ثم توقفوا حيث يجب الإسراع، فكان مثلهم في ذلك مثل المرأة الحامل التي أتمت عدة حملها، فأسقط جنينها، وفقدت زوجها، وطال تأيمها، وورثها من تكره وهو الأبعد، وإذا كان أمر المرأة كذلك، فإنه ليس لها يد فيما حصل، أما أهل العراق فما حصل لهم كان برضى منهم وقناعة أو خنوع، ونكوص، فتحول الحق لديهم باطلا والباطل حقا، وأصبح إمامهم كاذبا-حسب زعمهم- وهو رأي والله وضيع؛ فكيف يكذب من كان أولى الناس إيمانا بالله ورسوله، وخبر السماء، واتبع نبيه تصديقا وتسليما، لا على وعد في الدنيا وإنما على وعد في الآخرة، فليس أمر علي وأمر الناس واحدا، فهو ثابت ثبات الرواسي والجبال في كينونة متغيرة وهو القائل "....أيها الناس إن الله أعاذكم من أن يجور عليكم، ولم يعذكم من أن يبتليكم، وقد قال جل من قائل (إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين)"⁽²⁾ فهو يعلم أن الدنيا نهج لا يتغير؛ فرح وقرح، صحة وسقم، وكل متضادين يتعاقبان إلى يوم القيامة، أما غيره فيريدها ثابتة على ما تحب النفس، وإن اضطره ذلك إلى الانحراف والانجراف نحوها حيث انجرفت، ولو دخلت جحر ضب لدخلوه، لقد اختلت المقاييس والمعايير، ولبسوا الأمور على أنفسهم، وما نههوا نفوسهم وما زجروها، فساقطهم مساق الظالمين. إن انهيار المعايير التي تضبط السلوك في مجتمعه -علي- قد فرغت اغترابه وأطالت أمدته، فما باله بقي وفيا لقيمة التي من أجلها رضي أن يكون خليفة للمسلمين، وغيروا وبدلوا وأعرضوا عما كانوا

(1) المصدر نفسه -ص: 132.

(2) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 152.

عليه أثناء مبايعته، إن هذا يعود في تقديري إلى التناقض القيمي بينه وبين الناس من حوله، وحتى تكون لنا الموضوعية التي نرجوها لهذا البحث، فإن أغلب من كان مؤازرا له في كل توجهاته- وهي توجهاتهم- قد قتلوا من أمثال عمار بن ياسر رضي الله عنه، ومحمد بن أبي بكر الصديق والأشتر النخعي، وهشام بن عتبة وغيرهم ممن كانوا أركاناً ولدعوته أنصاراً.

التناقض القيمي:

أورد محمد عباس في كتابه، الاغتراب والإبداع الفني، ما مفاده أن القيمة هي كل ما هو جدير بعناية الفرد، وتقديره، والقيم تتلون بطابع روحي أخلاقي، وتمثل ما ينبغي أن يكون عليه سلوك الإنسان، وهي - القيم - عندما يحملها الإنسان ويعتقها، تمثل بالنسبة إليه تفضيلات تملي عليه اختيارات معينة، من بين توجهات أخرى متنوعة، توجه يراه الفرد جديراً بتوظيف إمكاناته المعرفية والسلوكية والوجدانية. (1) إن الحياة وجود ثابت التغير- كما أشرنا سابقاً- ولكن القيم الروحية والأخلاقية ثابتة من حيث أنها موضوعات قابلة للاعتناق والتمذهب بها، ولكن قيمة الفرد تتحدد إزاء تمسكه بها بعد التحلي بها أو الدعوة إليها، وقليل هم من يفون بهذا الشرط الذاتي، لأن للشخصية جانبان، الشخصية الأصلية، والشخصية المزيفة؛ فالشخصية الأصلية هي من يقع عليها الاختيار الحر والالتزام به، لأن الحرية مسؤولية، والمسؤولية سلوك والتزام، ولذلك نجد الإمام علي قد تملأ القيم الروحية والأخلاق التي أوجبتها الديانة التي أختارها وآمن بها عن قناعة وحرية، وقد تجلت في مختلف مواقفه الدينية والدينية بلا زيف أو تحريف، وقد اختلف في ذلك عن كثير من الناس في عهده، والذين كانوا يصدرون عن الشريعة نفسها، والفرق بينهم وبينه؛ أنه عارف عالم وهو الذي كان يقول عن نفسه أسألوني قبل أن تفقدوني، فو الله ما من آية نزلت إلا وأنا أعرف أفي ليل نزلت أم في نهار، أفي سهل أم في جبل، وهو يشترك مع بعض الناس في هذا العلم، ويختلف عنهم في المعرفة، والمعرفة عندنا هنا معناها إدراك الحقائق عن طريق العلم اللدني، أو الكشف الصوفي عن حقائق ومجاري الأقدار، فالعلم كسب والمعرفة مواهب،

(1) ينظر: د. محمد عباس يوسف الاغتراب والإبداع الفني - مصدر سابق - ص: 27.

ولكن بينهما وشائج، فالعالم العامل بصدق قد يصبح عارفاً، والعالم بغير عمل كالجاهل، ولذلك نجد في الحياة علماء مثل الجهلة، ونجد أميين مثل العارفين؛ لأن الإيمان والعمل توأمان، فإذا تضافرا أنتجا عرفانا ومواهب، وقد كان رضي الله عنه عالماً عاملاً وعارفاً ربانياً مدة عمره، وقد كان للتناقض في سلوك الناس في عصره بين الشريعة التي ينتمون إليها، والأعمال التي يأتونها الأثر البالغ في نفسيته ومن ثم في خطبه وحكمه ومواعظه.

لقد كان الإسلام واضحاً في وضع معالم الدنيا، ومعالم الآخرة، وبين أن لكل واحدة منهما بنون، ودعانا إلى أن نكون من أبناء الآخرة، لا من أبناء الدنيا، لأن طريق الدنيا يناقض في كثير من الأحيان طريق الآخرة، بل يذهب أهل الدنيا أحياناً إلى تقويض طريق الآخرة؛ بمختلف السبل، وشعارهم في ذلك خدمة الإسلام.

لقد فهم الإمام علي حقيقة الدنيا فهماً جيداً وطلقها بالثلاث يقول: "يا دنيا يا دنيا، إليك عني، أبي تعرضت؟ أم إلي تشوقت؟ لا حان حينك هيهات غري غري" لا حاجة لي فيك، قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها، فعيشك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير، أه من قلة الزاد وطول الطريق وبعد السفر وعظيم المورد"⁽¹⁾ نعم طلقها بالثلاث ولكن لماذا؟ لأنها قصيرة المدى كثيرة الخطر، وقصر مداها يستدعي تحقير أملها، لأن ليلها يسفر عن المورد العظيم والوقوف أمام الجبار، لذلك استوحش منها، وأن فيها أنين التكلّي المفجوعة بواحدتها، لقلة زاده - فيما يراه - وقلة الرفقة والأعوان، في سلوك الطريق الطويل الذي لا ينبج إلا عن صبح القيامة، وقد استغرب رضي الله عنه سلوك كثير من الناس، وموقفهم من الآخرة، وتشبّثهم بالدنيا ومتاعها الزائل، ونعيمها الفاني يقول "ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء، في حلالها حساب وفي حرامها عقاب من استغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن، ومن ساعاها فائتته، ومن قعد عنها وانتته، ومن أبصر بها بصرتة، ومن أبصر إليها أعمته"⁽²⁾ لقد أبصر بها فبصرتة وفهمها تمام الفهم، فهي في نظره دار جهاز وقنطرة جواز، من عبرها سلم، ومن عمرها ندم، وهي إلى ذلك تذلل الحريص، وتعميه بعد أن تمنيه، وتفوته بعد أن تكون قد وانتته، فتعقبه

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 264.

(2) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 134.

الحسرة بعد الحسرة، وهي فوق ذلك كثيرة المتاعب للإنسان المؤمن لأن في حلالها حساب من أين اكتسب المرء - مثلاً - المال وأين أنفق، وهل أدى زكاته وشكره وأشرك الفقير فيه؟ وفي حرامها عقاب، عقوبة والله يعلمها الله، ولكن الإشارات الإلهية تبين عظم العقاب مع عظم الذنب والجرم فهذه هي الدنيا بدايتها تلك وآخرها فناء وإن طال الأمد، فما عسى يصنع من استشعر هذه الخصال في الدنيا والآخرة، إن المؤمن الحق سبله واضحة معالمها، يقررها حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم " كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل" ⁽¹⁾ إذن فالتخفيف من أعباء الحياة وتبعاتها هي قدر المؤمن، ولا يجور عن سبيل الحق في معاملة الناس، بل شأنه أن يكون في شأن، إذا كان الناس في شؤون، فمراعاة الله في اللفظ واللحظ ديدنه " ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد" ⁽²⁾

إن وعي الإمام علي بمسؤولياته تجاه نفسه وأمته، وكثرة مشاغله في أواخر حياته عندما فتحت عليه الدنيا أبواب الجحيم من كل صوب، لم يثته عن مناهجه في الحياة، بل زاده ذلك يقينا فقال يتبرأ من الظلم " والله لأن أبيت على حسك السعدان مسهدا، أو أجر في الأغلال مصفدا أحب إلي من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالما لبعض العباد وغاصبا لشيء من الحطام، وكيف أظلم أحدا لنفس يسرع إلى البلى قفولها ويطول في الثرى حلولها" ⁽³⁾ فإذا كان كثير من الناس في أزمان مختلفة وأماكن كثيرة يرعبهم الفقر والظلم والبغي، والمرض وغيره فإن عليا يرعبه أن يظلم أحدا من عباد الله، في أن يسلبه حريته أو قوته أو أن يرعبه بغير ما اكتسب، حاشا أن يكونه، قد يفعل ذلك من لا يرهب قدومه على الجبار.

إن الدنيا وكل نعيمها لا تعدو عنده جناح بعوضة، فهو سليل مدرسة النبوة مع الرعيل الأول من الصحابة رضوان الله عليهم، فلا عجب أن يقول : " وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها ما لعلي ولنعيم يفنى ولذة لا تبقى، نعوذ بالله من

(1) الإمام الزبيدي - مختصر صحيح البخاري، الشرة الجزائرية اللبنانية الجزائر ط1-2007 ص: 533.

(2) ق الآية 18.

(3) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 194.

سبات العقل، وقبح الزلل، وبه نستعين⁽¹⁾ إن سليل مدرسة النبوة يعلم كما يعلم كل المسلمين أن الدنيا لا تساوي قليلا أو كثيرا عند الله، وإنما هي دار ابتلاء وامتحان، والامتحان فيه نجاح أو رسوب، والنجاح يلزمه العمل الصالح، والتأخر عن المفاصد، ما ظهر منها وما بطن، ومن خاف أسرع إلى الطريق المستقيم أو كما قال عليه الصلاة والسلام " من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة"⁽²⁾ وقد استعاذ رضي الله عنه من غفلة العقل، وعظيم الجرم، في دار نعيمها نعيمها زائل ولذتها فانية، وبليتها قاسية وباقية.

وقد يظن الظأن أن الإمام علي أعرض عن الدنيا لإعراضها عنه كما يقول المعري عن نفسه:

ولم أعرض عن الذات إلا لأن خيارها عني خسنه⁽³⁾

وقد يظن الآخر أنما أعرض عن الذات لأنها تقنى ولا تبقى أبدا على حال واحدة اعتمادا على قوله السابق، فنقول بحمد الله؛ إن قوله السابق موجه لعامة المسلمين وخاصتهم، وكل واحد يفقهه بحسب علمه، والحق أن الإمام علي لم يعرض عن الدنيا - وقد كانت في يده - لأنها زائلة فقط، بل أعرض عنها لأن الله سبحانه قد حذر منها، ورسوله نبه إلى عظيم خطرها، وهو أحد رباني هذه الأمة يأتزم بما أمره الله حيث أمره، وينتهي حيث نهاه، ولذلك فهو يعجب ممن يخالف هذه القاعدة، وهنا يتجلى التناقض القيمي بينه وبين مجتمعه فهو يريد تطبيق كل الأوامر وكل النواهي المنتمية إلى الحقل المعرفي المشترك بينما يرى كثير من الناس وجوب غض البصر عن بعض الأمور، بيد أنه إن فعل ما يراه غيره فقد زيف نفسه وخان ذاته الأصيلة، وهذا ما لا يكون، فالحق عنده هو الحق لا يتبدل ولا يتغير، والجور هو الجور لا يتغير ولا يتبدل مهما غير من جلابيبه، لذلك نراه يصر على إرجاع ما أخذ من بيت مال المسلمين في عهد سلفه؛ مهما كلفه الثمن، لأن إرجاعه حق وتركه ظلم وزيف يقول " والله لو وجدته

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 196.

(2) رواه الترمذي - 2452 نقلا عن النووي - رياض الصالحين - تحقيق شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط 4 - 1984 - ص: 214-215.

(3) اللزوميات المجلد الثاني ص: 527.

قد تزوجت به النساء، وملك به الإماء، لرددته، فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق⁽¹⁾ فهو يجد كل الجد في استرداد أموال بيت مال المسلمين إلى خزينة الدولة، ولو صرفت تلك الأموال، واقتنيت بها أشياء، لأن العدل يقتضي ذلك، ومن أسمائه تعالى الحكم العدل، وحظ العبد من هذين الاسمين أن يحكم بالعدل حتى يتسنى له التخلق ولو بجزء بسيط من ضياء المشكاة الإلهية، وقد كان النص السابق جواباً لمن سألته الإبقاء على الأمر كما هو فأنكر ذلك في إصرار، ومن مقابلة الموقفين، موقف من يسعى لإبقاء الأمور على حالها، وموقفه الرافض لذلك والداعي إلى رد الحقوق إلى نصابها، يتبين بجلاء التناقض القيمي بين الطرفين.

وقد أفضى إليه بيت مال المسلمين لما بويع بالخلافة، وكان بإمكانه أن يأخذ منه ما يشاء متى شاء، ولكن حال دون ذلك، معرفة الرجل بالله وسننه في الكون ولا يزال العارف قدوة للسالكين، في كل دهر وحين، فالإمام علي ظاهرة قلما تتجدد إلا بعد مئات السنين لا في العلم والعمل فحسب ولكن في الحكم أيضاً، فهو قطب العلم بشهادة كل المسلمين، فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لولا علي لهلك عمر، ويقول: لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو حسن، وكان رضي الله عنه زاهدا مشهورا ومشهودا له بذلك، عازفا عن الدنيا وزخارفها وبهرجتها، شغل نفسه بحب الله ورسوله، وشغل عقله وقلبه بالطاعات وقد شهد له الخليفة الزاهد والإمام العادل عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه حين تذاكر من عنده الزهد، فقال: أزهّد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب. ⁽²⁾ نعم كان زاهدا في كل شيء؛ في ملبسه وفي فراشه وفي طعامه وكان يقول: رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وإني لأربط الحجر على بطني من الجوع، وإن صلتني اليوم تصل أربعين ألف دينار ⁽³⁾ وعلى الرغم من هذا المال الوفير إلا أنه كان يوزعه في سبيل الله؛ على الفقراء والمساكين وعابري السبيل؛ ولا يبقى منه إلا النزر القليل؛ لينتقوت به، فهو كان يملك الدنيا، ولكن لم تستطع الدنيا أن تملكه، وكان

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 105.

(2) ينظر: البداية والنهاية لابن كثير ج 8 - مرجع سابق - ص: 6.

(3) ينظر: حلية الأولياء ج 1 ص: 86.

يقول عن الدنيا " الدنيا جيفة فمن أراد منها شيئا فليصبر على مخالطة الكلاب"(1) وكان يلبس الثوب المرقوع ويأكل الأكل الجشب، وقد يصل الثوب الذي يلبسه إلى نصف ساقه، يشتريه بثلاثة دراهم، فيستكر عليه بعض أفراد الرعية ذلك فيقول: أردي هذا ليقندي بي المؤمن، ويخشع له قلبي(2). ومما يؤكد هذا قوله لأحد الرجال من رعيته اعتزل الناس، ولبس الثوب المرقع لا تفعل هذا وأنكر عليه مسلكه، فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين إنك مثلي لا تلبس إلا خشن الثياب، ولا تأكل إلا جشب المأكّل فقال له الإمام: إنما أفعل ذلك ليقندي بي الفقير ولا ينظر إلى الغني حتى لا يفتن في دينه.(3)

ومما يدخل في التناقض القيمي في مجتمعه، أنه كان يكره المغالاة في كل شيء، فقد دخل دار العلاء بن زياد الحارثي بالبصرة، وهو من أصحابه - يعوده في مرضه - فلما رأى سعة داره قال له: " ما كنت تصنع بسعة هذه الدار، وأنت إليها في الآخرة كنت أحوج؟ وبلى إن شئت بلغت بها الآخرة: تقري فيها الضيف وتصل فيها الرحم، وتطلع منها الحقوق مطالعها، فإذا أنت قد بلغت بها الآخرة"(4) فعلي رضي الله عنه كما نرى لا يغفل أمر الخاصة أو العامة في التوجيه والإصلاح، والإشارة النافعة التي توصل صاحبها إلى الجنة وتباعد بينه وبين النار، فهو مرة ينهى عن اعتزال الناس وتحريم الطيبات " قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده"(5) ومرة ينهى عن الترف وذلك هو الإسلام الصحيح، والوسطية الإسلامية، تلك الوسطية التي غفل عنها الناس، فذهبوا ذات اليمين أو ذات الشمال وهي - الوسطية - معناها عام يشمل كل شيء في الحياة، ومن خلال هذين الموقفين نلاحظ مرة أخرى التناقض القيمي بينه وبين أفراد مجتمعه فهو يريد الوقوف عند الإسلام دائما، في كل صغيرة وكبيرة، فليس من الإسلام أن يصبح شخص مشلولا في المجتمع خاليا بنفسه، وليس من الإسلام أيضا التطاول على الناس والانغماس في الترف، لأن القرآن ذم المترفين في مواضع كثيرة فعدول

(1) أسد الغابة ج 4 ص: 23

(2) ينظر: حلية الأولياء ج 1 ص: 83.

(3) ينظر: نهج البلاغة - تحقيق و توثيق صبري ابراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 191.

(4) المصدر نفسه ص: 190.

(5) الأعراف - الآية 30.

الناس عن القرآن والسنة، وهما المرجعية الشاملة للمسلمين، يوقعهم في التناقض في إضفاء القيمة على الأشياء أو السلوك.

وقد صور لنا رضي الله عنه صورة متكاملة للإنسان المؤمن التقى الذي ينشده ويتمناه في المجتمع، وهي صورة مشكلة من أي القرآن الكريم، وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، وقد رسم هذه الصورة حينما سأله أحد أصحابه ويدعى همام، أن يصف له المتقين، حتى كأنه ينظر إليهم، فتناقل عن إجابته، ثم قال يا همام اتق الله وأحسن (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)، فلم يقتنع همام وأصر على طلبه، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم⁽¹⁾، ثم ألقى خطبة وعظية تحار فيها العقول وتقف دونها النفوس، والخطبة طويلة، ولا يمكن الاستغناء فيها عن جملة واحدة، وردت في فقرة من فقراتها، ولذلك أورد جزءا منها، وهو جزء طويل نسبيا، ولكنه يناسب موضوعنا مناسبة تامة، إذ يوضح فيها صفات المؤمن الحق كما يراه يقول: " فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين، وحزما في لين، وإيمانا في يقين وحرصا في علم، وعلمًا في حلم، وقصدا في غنى، وخشوعا في عبادة، وتجملا في فاقة، وصبرا في شدة، وطلبا في حلال، ونشاطا في هدى، وتحرجا عن طمع، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسي وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر، يبیت حذرا، ويصبح فرحا، حذرا لما حذر من الغفلة، وفرحا لما أصاب من الفضل والرحمة، إن استصعبت عليه نفسه فيما تكره، لم يعطها سؤلها فيما تحب، قرّة عينه فيما لا يزول، وزهادته فيما لا يبقى، يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل، تراه قريبا أمله، قليلا زلله، خاشعا قلبه، قانعة نفسه، منزورا أكله، سهلا أمره، حريزا دينه، ميتة شهوته، مكظوما غيظه، الخير منه مأمول، والشر منه مأمون، إن كان من الغافلين كتب في الذاكرين، وإن كان من الذاكرين لم يكتب من الغافلين يعفو عن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، بعيدا فحشه، لينا قوله، غائبا منكزه، حاضرا معروفه، مقبلا خيره، مدبرا شره، في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور، لا يحيف على من يبغيض ولا يأثم فيمن يحب، يعترف بالحق قبل

(1) ينظر: نهج البلاغة - تحقيق و توثيق صبري ابراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 186-187.

أن يشهد عليه، لا يضيع ما استحفظ، ولا ينسى ما ذكر، ولا ينابز بالألقاب، ولا يضار بالجار، ولا يشمت بالمصائب، ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق، إن صمت لم يغمه صمته، وإن ضحك لم يعل صوته، وإن بغي عليه صبر، حتى يكون الله هو الذي ينتقم له، نفسه منه في عناء والناس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه، بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة، ليس تباعده بكبر وعظمة ولا دنوه بمكر وخديعة قال فصعق همام صعقة كانت نفسه فيها، فقال أمير المؤمنين: أما والله لقد كنت أخافها عليه، أهكذا تصنع المواعظ البالغة بأصحابها؟، فقال له قائل: فما بالك يا أمير المؤمنين؟ فقال: ويحك إن لكل أجل وقتا لا يعده، وسببا لا يتجاوزه، فمهلا، لا تعد لمثلها فإنما نفت الشيطان على لسانك" (1)

يمكن أن نحدد نقطتين هامتين من هذا النص، فالنقطة الأولى هي غياب النموذج الإسلامي الأرقى في تلك الفترة التي عاش فيها همام، لذلك سأل الإمام علي عن مواصفات الإنسان التقي.

أما النقطة الثانية التي يمكن استنتاجها من النص، وملابساته، هي أن الإمام علي استبطن نفسه وبدأ في وصفها بقصد أو دون قصد، لأن كل ما ورد في النص من إيجابيات يحوزها سلوك الإمام علي، وكل ما ورد في النص من سلبيات كان عنها نائيا، فالخطاب بإيجابياته يمثل الجانب المشرق في تلك الفترة والتي يمثلها علي ومن على شاكلته، أو من يرجو أن يكونها، أما السلبيات، فتمثل ذلك الحشد الذي كان يسمع الخطاب، ولم يفعل له إلا همام، وكان أسوأ هؤلاء من سألته كيف أصيب همام بالصعق ولم تصب أنت لأن هذا يجمع بين الجهل والصفاقة والحق، وإلا فالناس ليسوا سواسية في رقة القلوب وصفاء الأذهان والتوجه بالكلية نحو الملأ الأعلى ولعل السائل لا يعرف أو - أكيد - أنه لا يعرف هذا الفرق.

ولنحلل بعض الفقرات لاستبيان التناقض القيمي في سلوك الناس من خلال النص، فعندما يقول: قرّة عينه فيما لا يزول (الآخرة) وهي قيمة إيجابية وعكسها قرّة عينه فيما يزول (الدنيا) وزهاده فيما لا يبقى قيمة إيجابية وعكسها وزهاده فيما يبقى

(1) نهج البلاغة - تحقيق و توثيق صبري ابراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 186-187.

وهي قيمة سلبية، ومثل قوله تراه قليلا آمله وهي قيمة إيجابية وعكسها تراه كثيرا آمله وهي قيمة سلبية (قليلا زلله) إيجابية وعكسها (كثيرا زلله) وهي سلبية ومثل (قاعة نفسه منزورا أكله سهلا أمره) وهي قيم إيجابية بالنظر إلى المرجعية الإسلامية الجامعة للفريقين، وعكسها (غير قاعة نفسه، كثيرا أكله، صعب أمره) وهي قيم سلبية في سلم الإسلام، ومثل (يعفو عن ظلمه، ويعطي من حرمه ويصل من قطعه) وكل هذا من الخلق الإسلامي الرفيع وعكسه (لا يعفو عن ظلمه ولا يعطي من حرمه، ويقطع من قطعه) وهي قيم سلبية تجافي الإسلام.

وإن فاعلي في تقديرهم لم يذكر الإيجابيات فقط في هذا الخطاب وإنما ذكر السلبيات ضمنا، لأن كل صفة إيجابية لها نقيضها، ولما مات همام شوقا إلى مثل هذه القيم، التي يتمناها علي رضي الله عنه، ولم ير لها همام مثالا في عالم الواقع من أصحابه دل ذلك على أن عليا ذكر قيمه صراحة وذكر قيمهم ضمنا وبذلك يتضح مرة أخرى التناقض القيمي بينه وبين مجتمعه فهو يعتقد أن قيمه قيم أساسية، لأنه قبل أن تكون له، فهي قيم المرجعية الإسلامية السليمة المشتركة بينه وبين الناس، ولكنه يرى في الناس افتقارا واضحا لتدعيم هذه القيم مما أوقعه في الاغتراب لأن مفهومه للتدين اعتقادا وسلوكا يختلف عن اعتقاد وسلوك أغلب الناس - الحشد - لأنهم ينظرون إلى الدين نظرة بسيطة خالية من العلم العميق والمعرفة الربانية، والعبادات عندهم لا تعدو أن تكون إيماءات وحركات لا أشواق للروح فيها، أو هي صبر على جوع، صبر الأسير أو المسجون، والتصدق إن حدث فهو عن غنى وبحبوة عيش، والحاصل أن المسلم لم يرتق بنفسه لا في زمن الإمام علي ولا في غيره - باستثناء فترة الرعيل الأول من المسلمين إلى أواخر عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه - المرقى الذي يرجوه الإسلام، إلا ما شذ من عباد الرحمن، الذين لا يخلو منهم زمان، وإن فمعايير الإسلام كثيرة؛ علم، وحلم، وصبر وإيثار وعبادة في خوف وقيام الليل، والصوم في الهواجر، وبذل المعروف، والإنفاق ولو في خصاصة، والبعد عن الغيبة والنميمة، والشتم والسباب، والتوكل على الله حق التوكل، والتفويض إليه في كل الأمور، وغير ذلك مما حث عليه الدين أو أمر باجتنابه، إلا أننا نجد هذه القيم العليا في جانب، وعموم المسلمين

في جانب آخر، بل إننا نجد في تلك الفترة، وفي غيرها من الفترات، من يؤمر بالمعروف فلا يأتيه، وينهى عن المنكر فيأتيه، فوقع اختلال بين الفكر والواقع ومن اختلال الفكر مع الواقع ينتج الاغتراب، فلا عجب أن نجد الإمام علي يكثر من توجيه الناس ووعظهم، فهو يعلم أن ما يقوله للناس معلوم عندهم، ولكنهم تاهوا عنه، لأن عقولهم غائبة عن الآخرة وذكر المعاد، وحاضرة في الدنيا تبحث في الأسباب؛ الأسباب التي توصلها إلى الغنى والرياسة، والعلو والسمعة، وغيرها، أو هي منهمكة فيما لا يعنيه بل ويعنيها إذا اتبع الإنسان نفسه هواها، يقول رضي الله عنه واعظا " من نظر في عيب نفسه، اشتغل عن عيب غيره، ومن رضي برزق الله لم يحزن على ما فاتته، ومن سل سيف البغي قتل به، ومن كابد الهموم عطب، ومن اقتحم اللجج غرق، ومن دخل مداخل السوء اتهم، ومن كثر كلامه كثر خطؤه ومن كثر خطؤه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه ومن مات قلبه دخل النار، ومن نظر في عيوب الناس فأنكرها، ثم رضيها لنفسه فذلك الأحمق بعينه، والقناعة مال لا ينفذ، ومن أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه"⁽¹⁾ لم يكن كلامه هذا موجها لأنصاب وأصنام، وإنما كان موجها للبشرولو لم يكن هؤلاء البشر-أو أغلبهم- على ما ذكر ، لما ذكر بهذا الكلام ولما نفر من هذه المسالك، فما أكثر من يبغي، ويدخل مداخل السوء، وما أكثر من قل حياؤه، وهجم على كل مهلك من أعمال وأقوال وهي أعمال تتافي الحق والصواب وتورد صاحبه موارد التهلكة في الدنيا والآخرة، ولو أخذ بعكسها لأراح واستراح، وهي موعظة تبين التناقض القيمي بين ما هو كائن وبين ما ينبغي أن يكون.

ومن ذلك قوله وهو يعظ أيضا، مركزا الفكر على الواقع " لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل، ويرجي التوبة بطول الأمل يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين، إن أعطي منها لم يشبع وإن منع منها لم يقنع، يعجز عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي، ينهى ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي، يحب الصالحين ولا يعمل عملهم، ويبغض المذنبين وهو أحدهم، يكره الموت لكثرة ذنوبه،

(1) نهج البلاغة- تحقيق و توثيق صبري ابراهيم السيد- مصدر سابق -ص: 288.

ويقيم على ما يكره الموت من أجله، إن سقم ظل نادما وإن صح أمن لاهيا، يعجب بنفسه إذا عوفي، ويقتط إذا ابتلى، إن أصابه بلاء دعا مضطرا، وإن ناله رخاء أعرض مغترا، تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن...⁽¹⁾ إن الأديب ابن بيئته، ينطق عنها ويترجم لها، فهو في هذا الخطاب يحدثنا عن فئة تتكبت الحق في كل شيء، وخالفت المعايير الأخلاقية والسلوكية السائدة كلية، وهي تعمل ذلك لا عن قلة علم، ولكن عن قلة ورع وتقى، وقلة الورع نتيجة لإتباع الهوى، والركون إلى الدنيا، والتسويق في العمل الصالح بطول الأمل؛ وتلك خدعة من خدع النفس، التي طالما أهلكت من كان قبلنا من الأمم، ولكن الناس ما اعتبروا يوما- إلا قليلا منهم- وترجمانهم يقول كما أخبر القرآن " وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء"⁽²⁾ لم يأل الإمام علي جهدا في تغيير الواقع وتحويل الواقع إلى سلوك ولم يدع مسيبا للداء إلا وفحصه وأشار بالدواء المناسب له؛ فمنهم من أخذ بكلامه، وكثير منهم ساء ما كانوا يعملون.

وقد أعطى من نفسه مثالا في مواطن كثيرة، ففي موقعه صفين برز رجل من أهل الشام، وطلب المبارزة من أهل العراق فخرج إليه رجل فقتله، ثم خرج إليه ثان فقتله ثم خرج إليه ثالث فقتله، ثم أحجم أهل العراق عن الخروج إليه، فخرج إليه الإمام علي فقتله، ثم طلب المبارزة فخرج إليه ثان فقتله، ثم ثالث فقتله، ثم رجع إلى مكانه لأن الرجل الشامي قتل ثلاثة من أصحابه، فقتل هو الآخر ثلاثة، ثم رجع ولم يستمر في طلب المبارزة لأنه رجل وقاف عند كتاب الله وسنة رسوله الكريم، فلم يرد أن يقتل من الشاميين أكثر مما قتل الشامي من العراقيين، وتلك هي أخلاق فرسان الإسلام الحق، لقد جسد العدالة في موطن لا يستطيع أحد أن يجسدها فيها إلا هو أو من كان على شاكلته، وتلك هي قيمه العليا التي أراد أن يغرسها في الناس طوال حياته.

ومن مواقفه أيضا قي تعليم الناس الفضيلة في كل المواطن ما قاله رضي الله عنه، عندما سمع جيشه يسب أهل الشام، قبل وقائع صفين، حيث نهاهم عن السب والشتم وقال "إني أكره لكم أن تكونوا سبابين، ولكن لو وصفتكم أعمالهم، وذكرتم

(1) نهج البلاغة- تحقيق و توثيق صبري ابراهيم السيد- مصدر سابق -ص: 276-277.

(2) الأعراف- الآية 94.

حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقتلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم واصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي من لهج به" (1)

هاهنا تتجلى القيم العليا، فليس من الإسلام عنده أن يسب المسلم المسلم وإن كانا في خلاف وحرب، لأن الله سبحانه يقول " وإن طائفتان من المؤمنين اقاتلتا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلتا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله" (2) إن الله لم يسقط الإيمان والإسلام عن المسلمين حتى وإن اقاتلتوا لذلك أخذ بما أمر به الإسلام، وحث جيشه على الأخذ به، لأنهم تقطعت بهم سبل الحق ولم يراعوا حقه في عباده، فالمسلم قد يكون باغيا ولكن ذلك لا يخرج من الإسلام، وإن حث على إجباره بالعودة إلى أحكامه ولو بالقوة، ويتجلى التناقض القيمي هنا في وقوفه - علي - مع الحق؛ حق المسلم، وإن كان باغيا، مع تجافي أصحابه عن المعايير الإسلامية الحقة التي تحثهم على الدعاء لإخوانهم من أهل الشام حتى يرجعوا إلى الحق، وحتى لا تسفك دماء هؤلاء ولا هؤلاء، ولكن لما استحکم فيهم الشنآن صدروا عن حقد الأنفس، ولم يصدروا عن المنهج الإلهي، فكان ذلك التعارض بين من تمسك بأحكام السماء، ومن صدر في مسلكه عن الهوى.

قهر الاغتراب:

لقد تعددت الأحاديث عن الاغتراب، بتعدد دارسيه، كما رأينا، ابتداء من الفلاسفة، وعلى رأسهم هيجل، مروراً بعلماء النفس، وعلماء الاجتماع، وأصحاب تيار الوجودية ومع كل هؤلاء تعددت وتنوعت مفاهيمهم لظاهرة الاغتراب، ومسبباتها ومحتواها، كما تحدثوا وأسهبوا في سلبات الاغتراب، باعتباره مرضاً نفسياً أو اجتماعياً عند كثير من هؤلاء الدارسين.

بيد أن ما استرعى انتباهي هو قول الناقد الأمريكي والتر كوفمان في مقدمة كتاب الاغتراب لريتشارد شاخنت ليس الاغتراب مرضاً كما أنه ليس نعمة، إنه ملمح

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد مصدر سابق - ص: 189 .
يرعوي: يكلف، لهج به: ثابر عليه.
(2) الحجرات - الآية: 9.

رئيسي للوجود الإنساني⁽¹⁾، والأمر كذلك فيما أرى - وأرجو أن يكون صواباً - فالمتأني في ملاحظاته لهذه الظاهرة وما كتب حولها، لا يجدها دائماً كما يزعمون، بأنها ملمح مرضي سلبي في عمومها، لأن الظاهرة يحس بها ويعيشها كثير من عقلاء الإنسانية، في السياسة والاجتماع والفكر والأدب، وهؤلاء هم صفوة المجتمع، فليس من المنطق أن يكون معلوم الإنسانية مرضى، وتكون الدهماء وغوغاء الناس أصحاباً من الناحية النفسية والفكرية والسياسية والاجتماعية، والأمر كما يترأى لي هو أن المجتمع أو الجماعة أو الفئة هي التي تكون في كثير من الأحيان على غير صواب، ويكون المغترب على أعلى درجات الحق ونصاعة الفكر ونضج الإحساس ووضوح الإدراك.

إن الاغتراب كما يقول مجاهد عبد المنعم مجاهد " إن الاغتراب انفصال عن الوجوب والوجود"⁽²⁾ فكيف يكون الانفصال بين الوجوب والوجود يا ترى؟ إن المغترب - الاغتراب الايجابي - يصدم في واقع الأمر بالواقع المقلوب - كما هو كائن - لا كما ينبغي أن يكون، في ظل الحياة السياسية أو الاجتماعية أو في حركة الأمة في صيروتها، فيغدو الوجود المقلوب مألوفاً، ويبقى ما ينبغي أن يكون عليه الوجود غريباً وهذه هي المفارقة التي لاحظتها من خلال اطلاعي على نصوص نهج البلاغة، إن في السياسة وإن في الاجتماع والفكر وإن في العرف والتقاليد.

فعلي رضي الله عنه رجل عالم؛ فهو ربيب النبوة رضع صريحها فأنبت منه اللحم والعصب، وغذى العقل، وأسبغ عليه الفطنة، والذكاء، والحكمة، وغير ذلك مما وقفنا عنده فيما سلف.

إن شخصية الإمام علي قد نمت نمواً طبيعياً، في حضن النبوة، حتى ترسخت فيها كل قيم ومعايير الإسلام، فكونت شخصيته الأصلية الوفية لهذا الدين، لذلك وجدناه في كل أفعاله وأقواله - وفي مختلف مجالات الحياة - يستقي من هذا المعين الذي لا ينضب، وكان ذلك ديدنه، بل كانت حياته كلها قبل استخلافه وبعد استخلافه، مثلاً يحتذى به في تجرده لحماية وخدمة هذا الدين وأهله، وكان يؤلمه كل سلوك ينحرف عن مبادئه، وقيمه، حتى ليتصور المرء أن هذا الدين قد كلف به دون غيره من الناس؛ إذ لم

(1) ينظر: ريتشارد شاخنت الاغتراب - مرجع سابق - ص: 7.

(2) ينظر: مجاهد عبد المنعم مجاهد - الإنسان والاضتراب - مرجع سابق - ص: 37.

يأل جهدا في إرشاد الناس، وتذكيرهم وإصلاحهم، وهديهم إلى الصواب، أينما كان
وحيثما كان لا يتوانى عن قول الحق أو فعله، أو الدعوة إليه، وعلى الرغم من ذلك فإنه
لما شغب الناس على عثمان رضي الله عنه، وانتهى الأمر باستشهاده، قدمت عليه
العامة والخاصة لمبايعته فأبى، وبسطوا يده فقبضوها، وأعادوا الكرة عدة مرات حتى ألح
عليه كبار الصحابة لقبول الأمر، ولم يكن رفضه إلا لعلمه بصعوبة المهمة التي ستلقى
على عاتقه، والتي سيقوم بها كما أمر الدين، دون مداراة لأحد سواء منهم القريب أو
البعيد، والناس ليسوا كمثله؛ لذلك قال للناس الذين أرادوا مبايعته في المرة الأولى "
دعوني والتمسوا غيري، فإننا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب، ولا
تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت، والمحجة قد تنكرت، واعلموا أنني إن أجبتكم
ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل، وعتب العاتب، وإن تركتموني فأنا
كأحدكم ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيرا خير لكم مني
أميرا" (1) لقد كان يعي ما يقول وعيا تاما؛ لأنه إن أجابهم حملهم على الدين السليم
والطريق السوي، وهذا لا يرضي بعض الناس؛ الذين يثيرون الفتن وهو ينأى بنفسه عن
ذلك، لأنه إن سمع لهم خان ذاته الأصيلة، وهو لا يريد تزييف نفسه، يضاف إلى ذلك
أن مقتل سيدنا عثمان رضي الله عنه لن يمر بسلام، وهو يعلم ما سيواجهه من متاعب؛
ممن سيطالبون بدم عثمان رحمه الله، ومن سيتخذ مقتله مطية لإثارة الناس عليه، ولكن
الناس ألحوا عليه، وطالبوه بقبول الخلافة، لأنه لا بد لكل أمة من حاكم بر أو فاجر،
يصون الأمة من الضياع، فقبل الأمر، وقد وصف ذلك في خطبته التي يقول فيها "
وبسطتم يدي فكففتها، ومددتموها فقبضتها ثم تداكتم علي تذاك الإبل الهيم على
حياضها يوم وردها، حتى انقطعت النعل، وسقط الرداء، ووطئ الضعيف، وبلغ من
سرور الناس ببيعته إياي أن ابتهج بها الصغير، وهدج إليها الكبير، وتحامل نحوها
العليل وحسرت إليها الكعاب" (2) ولما بويع بالخلافة وابتهج الناس بذلك، سارع إلى
إعفاء بعض الولاة من مناصبهم وتعيين ولاية جدد ارتضاهم لمساعدته في إرساء حكمه،
ولكن معاوية بن أبي سفيان رحمه الله أبى التنازل عن ولاية الشام، وأبى أن يبايع هو

(1) نهج البلاغة - تحقيق و توثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 147.

(2) المصدر نفسه - ص 196.

ومن معه، بل واتهمه بقتل عثمان رضي الله عنه وأوى قتلته، وخرج طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام رضي الله عنهما، إلى مكة لأداء العمرة، بعد أن بايعا مع المبايعين، من أهل المدينة- وتلك سنة متبعة إذ عندما يبايع أهل المدينة خليفة فإن كل الأمصار تتبعها وتتأسى بها ويبايع أهلها جميعا- ولكن هذه المرة أبى أهل الشام أن يبايعوا بأمر من معاوية، ونقض الزبير وطلحة بيعتهما وألبا الناس عليه، إن هذين التصرفين أشعرا الإمام علي باستلاب جزء من حرите التي شرعها الله لكل من تولى أمر المسلمين- إلا أن تكون أعماله مخالفة لروح الإسلام- وما كان للإمام علي أن يسكت عن هذا الأمر، فأرسل رسالة إلى طلحة والزبير يذكرهما بمبايعتهما له، وأنهما بخروجهما عنه قد أخلا بدينهما أولا، وخالفا طاعته ثانيا، وهذا ليس من حقهما ولا من أخلاق الفضلاء، يقول في رسالته تلك "أما بعد فقد علتما، وإن كتمتما، أني لم أرد الناس حتى أرادوني، ولم أبايعهم حتى بايعوني، وإنكما ممن أرادني وبايعني، وإن العامة لم تبايعني لسلطان غالب ولا لعرض حاضر، فإن كنتما بايعتmani طائعين، فارجعا وتوبا إلى الله من قريب، وإن كنتما بايعتmani كارهين فقد جعلتما لي عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة وإسراركما المعصية، ولعمري ما كنتما بأحق المهاجرين بالتقية والكتمان، وإن دفعكما هذا الأمر من قبل أن تدخلا فيه كان أوسع من خروجكما منه، بعد إقراركما به..." (1) يبرز من خلال هذا النص شعوره بالاغتراب؛ نتيجة انتقاص حرите؛ فالرجلان بايعاه في من بايع، غير مكرهين ثم خرجا وأعلنا العصيان، بل واتهماه بقتل عثمان رضي الله عنه، فحكم بينه وبينهما من تخلف عن البيعة في المدينة، يقول في الرسالة نفسها "وقد زعمتما أني قتلت عثمان، فبيني وبينكما من تخلف عني وعنكما من أهل المدينة، ثم يلزم كل امرئ بقدر ما احتمل، فارجعا أيها الشيطان عن رأيكما، فإن الآن أعظم أمركما العار، من قبل أن يتجمع العار والنار والسلام" (2) بيد أن الأمور سارت على غير ما أراد، فراح الرجلان يؤلبان عليه الناس ويدعونهم إلى الثورة ضده، وأقنعا أم المؤمنين عائشة بالأمر، فكثر أتباعهما، ودعواهما المطالبة بدم عثمان رضي الله عنه، فأحزنه ذلك وأشعره ذلك السلوك بالاعتداء على ما هوله، والاعتداء على المرجعية

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق -ص: 246.

(2) المصدر نفسه- ص: 247.

الإسلامية الواضحة في مثل هذه الأمور، فدعا الله عليهما قائلاً " اللهم إنهما قطعاني وظلماني ونكثا بيعتي، وألبا الناس علي، فاحلل ما عقدا، ولا تحكم لهما ما أبرما، وأرهما المساءة فيما أملا وعملا، وقد استثبتهما قبل القتال واستأنيت بهما أمام الوقاع فغمطا النعمة وردا العافية"⁽¹⁾ لقد نكص إلى ذاته الأصيلة، فرأى جزءا منها ينتقص، وإلى أمره فإذا هو غير نافذ، وممن؟ من أصحابه؛ من الذين هاجروا مثله، وجاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاهد، فهاله الأمر، وامتنع لنقض عروة من عرى الإسلام- الخروج على الخليفة المبايع- فعزم على قهرهم ليعود الحق إلى نصابه، لأن في تركهم إخلال بامن الدولة وإذهاب لهيبتها وقبل هذا وذاك فهو يلبي نداء ذاته الأصيلة التي لا ترى بغير الحق عوضا فخطب في أصحابه وهو يتحسر على حال الإسلام والمسلمين، وما آلت إليه خاصتهم من العدوان، والعدول عن الحق يقول عن طلحة والزبير أيضا " فخرجوا يجرون حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله كما تجر الأمة عند شرائها، متوجهين بها إلى البصرة، فحبسا نساءهما في بيوتهما وأبرزوا حبيس رسول الله صلى الله عليه وآله لهما ولغيرهما، في جيش ما منهم رجل إلا وقد أعطاني الطاعة وسمح لي بالبيعة طائعا غير مكره، فقدموا على عاملي بها وخزان بيت مال المسلمين وغيرهم من أهلها، فقتلوا طائفة صبورا، وطائفة غدرا، فو الله لو لم يصيبوا من المسلمين إلا رجلا واحدا معتمدين لقتله بلا جرم جرّه لحل لي قتل ذلك الجيش كله، إذ حضروه فلم ينكروا ولم يدفعوا عنه بلسان ولا بيد، دع ما أنهم قد قتلوا من المسلمين مثل العدة التي دخلوا بها عليهم"⁽²⁾ يتضح لنا من هذه الخطبة أن الإمام علي أصيب في مقتل وأحس بضياغ المسلمين وخراب قلوبهم، وانكفائهم على أوجههم، فمن أحل لهؤلاء قتال أهل البصرة، وقتل أعوان الدولة الذين عينهم حاكم الأمة، ومن أجاز لهم تجييش الجيوش بدل الخليفة المبايع، ومن أين لهم هذه الفتوى وهم يعلمون حرمة دم المسلم إلا بثلاث النفس بالنفس، والشيب الزاني والمرتد عن دينه، نعم هناك من أهل البصرة من شارك في الشغب على سيدنا عثمان رضي الله عنه، ولكن لا يحل لأحد أن يأخذ بالقصاص منهم إلا ولي الأمر، وولي الأمر هو خليفة

(1) المصدر نفسه - ص: 170.

(2) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 180.

المسلمين المبايع وهو لم يأمر بهذا بل حذر طلحة والزبير وجماعة من الصحابة - عندما طلبوا منه أن يوقع القصاص على قتلة عثمان رضي الله عنه - من أن يتصرفوا تصرفاً يضر الدولة ويوهنها، ووعدهم بأنه سيقوم بالقصاص من قتلة الخليفة الشهيد عندما تهدأ النفوس، ويعود الناس إلى حالتهم الطبيعية، ولكن هؤلاء خالفوه وقتلوا من أهل البصرة أكثر من ستمائة كما مر بنا، وهل يعقل أن ستمائة رجل كلهم باشر قتل عثمان، لذلك أنكر عليهما أشد النكر ما أقدمنا عليه من قتل للأبرياء، والاستخفاف بأمر أمير المؤمنين، لقد كان إنكاره لهذا المسلك اعتماداً على المرجعية الإسلامية - القرآن والسنة - حيث يقول تعالى " ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً " ⁽¹⁾ ولئن استقرت هذه الأحداث إلا أنها لم تزلزله، ولا أبعدته عن المنهج الرباني، الذي آمن به وعقله، ولم يحد عنه قيد أنملة فيما نعتقد فلقد استأذنه الزبير وطلحة والزبير في الخروج إلى مكة لأداء العمرة، كما مر بنا، فنهاه بعض أصحابه أن يسمح لهم بذلك، لأنهما يضمران شراً، فأبى ذلك وأذن لهما بالخروج، وقال ما كنت لأخذ رجلاً بجريرة لم يرتكبها بعد ⁽²⁾ و من هنا تتضح لنا القدرة على القيادة الشاملة التي يتميز بها العظماء، لأنها تحتاج معرفة عميقة بالدين تلك التي تخدم الإنسان باعتباره مكلفاً ومسؤولاً عن كل أعماله، ويعتبرها (المارودي) أولى وأفضل طرق المعرفة، والمراد منها معرفة الأوامر والنواهي وحقوق الله وحقوق العباد وصفات الله العظيمة، وترشيد الله للإنسان لكي يعيش حياة دنيوية وأخروية سعيدة ⁽³⁾

وقد كانت دراسة أصحابه صحيحة، فخرجوا وألبا عليه الناس، واصطحبوا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وآتوا البصرة، فأنحاز إليهم قوم وأنحاز إلى دعوته قوم على الرغم من أنه لم يصل إلى البصرة، واتفق الجانبان على الصبر وعدم الاقتتال حتى يصل هو (علي) لعل الله يحدث صلحاً بينهما، وقد أتى البصرة بعد أن غدر

(1) النساء - الآية 92.

(2) ينظر: محمد رضا - علي رابع الخلفاء الراشدين - دار الكتاب الحديث الجزائر - د. ط. 2004 - ص: 53.

(3) ينظر: د. علي خليل مصطفى قراءة تربوية في فكر أبي الحسن الماوردي من خلال كتابه أدب الدنيا والدين، دار الوفاء ط 1 1990 - ص: 193.

أصحاب طلحة والزبير بأصحابه وقتلوا منهم أربعين رجلاً، وأسروا واليه على البصرة عثمان بن حنيف⁽¹⁾

ولما خرج من الكوفة متوجهاً إلى البصرة، استعد الخارجون عليه لقتاله، ولما وصل البصرة أرسل الرسل والرسائل إلى طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، ليثنيهم عن التمرد، فأبوا إلا الحرب، ولما كان عالماً بحق الله وحق العباد في الحياة أمهلهم وحاورهم، واستطاع أن يثني الزبير عن رأيه، فاعتزل القتال، وثبت الآخرون، واصطف الجيشان، وهو يرجو أن لا يقع القتال، حتى لا تسفك دماء المسلمين، ولكن أصحاب الجمل أطلقوا سهماً فقتلوا رجلاً من جيشه ثم ثانياً وثالثاً، فغضب عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وطالبه بالسماح لهم بالقتال، فأذن لهم بعد أن يؤس من رجوعهم إلى جادة الصواب، فاقتتل الناس، وكثر من وقع صريعاً أثناءها، ولم تتوقف هذه الفتنة حتى وقع الجمل الذي يحمل أم المؤمنين عائشة وعندها تفرق الناس وانتهت الحرب.⁽²⁾

وقد طالب عمار بن ياسر رضي الله عنه بقتل الأسرى، فأبى ذلك لعلمه بتفاوت الناس في فهم وإدراك هذه الفتنة، وما أحاط بها من غموض والتباس.⁽³⁾ ثم أمر الأسرى بمبايعته، ففعلوا وبعد هذه الواقعة خاطب أهل البصرة قائلاً " كنتم جند المرأة، وأتباع البهيمة؛ رغا فأجبتم، وعقر فهربتم، أخلاقكم دقاق، وعهدكم شقاق، ودينكم نفاق، وماؤكم زعاق، والمقيم بينكم مرتين بذنبه، والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربه"⁽⁴⁾

والملاحظ أن الإمام قد أشار في هذه الخطبة إلى ظاهرة الحشد، أو العامة، أو الجمهور، الذي لا منطق له ولا رأي، فهو - الحشد - مطية لكل راكب، وغوغاء لكل من دعا إلى حق أو باطل، أما هو فهو على يقين من ربه من أنه على صواب، لأنه كان دائماً وفيما لذاته الأصيلية، المانعة له من الزيف أو التزييف فإما أن يكبح وقوع الحرب وإذا وقعت على رغم إرادته فإنه إما أن ينتصر وإما أن يستشهد، ولا يمكن له

(1) ينظر: الإمامة والسياسة - ج 1 - ص: 101-104.

(2) ينظر: الإمامة والسياسة ج 1 - مرجع سابق - ص: 114-116.

(3) المرجع نفسه ج 1 - ص: 114-116.

(4) نهج البلاغة - تحقيق و توثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 104.

أن يتحول إلى حالة ثالثة، لأن ذلك رضوخ لغيره وسلب لحريته وبالتالي الوقوع في الاغتراب عن ذاته الأصيلة.

ويشير إيريك فروم إلى أن القيم الإنسانية الراقية كالتغلب على الجشع والأنانية، والعدالة والحب، والرغبة في الوصول إلى الحقيقة كانت أهدافا عامة لكل الفلسفات الإنسانية والأنظمة الدينية في الغرب أو في الشرق.

وهو في هذا لا يفرق بين مفكر أخلاقي وآخر، أو بين فلسفة أو دين، بل يرى أن الأخلاق الإنسانية الحقة مهما كان مصدرا هي الأخلاق التي يكون فيها الخير مرادفا لخير الإنسان، والشر فيها مرادفا لشر الإنسان⁽¹⁾

إن أصالة الإنسان تتضح من خلال تمسكه بسبل الخير التي تفرضها عليه مرجعيته الفكرية، ولما كان الإمام علي رجلا مسلما؛ يستلهم الخير من القرآن والسنة، فإن أغلب ما كان يصدر عنه لا يجافي الأخلاق الإسلامية، التي هي أخلاقه، فكان لا يسمع لعتب العاتب أو لوم اللائم فيما يسلك من سلوك، محافظا على ذاته الأصيلة دوما؛ فقد استعجله أصحابه في قتال أهل الشام، فأبى حفاظا على دماء المسلمين، ورجاء أن يعود بهم إلى سبل السلام، حتى بلغه أن أصحابه يتهمونه بالخوف من الوقاع، فقام فيهم خطيبا حيث قال " وقلتم أكل هذا مخافة الموت فوا لله ما أبالي دخلت إلى الموت أو خرج الموت إلي، وأما قولكم شكنا في أهل الشام، فوا لله ما دفعت الحرب يوما إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهتدي بي، وتعشوا إلى ضوئي، وذلك أحب إلي من أن أقتلها على ضلالها، وإن كانت تبوء بآثامها"⁽²⁾ إن مثل هذا الكلام لا يصدر إلا عن رجل ذي بعد واحد؛ بعد الأصالة والوفاء لاختياره الحر الملتزم بالشريعة سرا وعلانية؛ فلا عدوانية جاهلية ولا انتصار للذات بطرق ملتوية أو بآراء تأويلية، فأهل الشام في رأيه مسلمون بغوا عليه، فألمه ذلك، ولكنه لم يقطع الرجاء منهم كلية، فهو يسعى ويتمنى أن يعودوا إلى الصواب وطريق الرشd للاستمرار في بناء الدولة الإسلامية التي أمر بها الإسلام، فما عساه يفعل بقتلهم ومحاربتهم، إن القتل ليس هدفه، إن القتل هدم، والهدم عنه بعيد، والحرب مفسدة، وهو يدفع الفساد ما استطاع إلى ذلك سبيلا، أما

(1) ينظر: د. حسن محمد حسن حماد، الاغتراب عند إيريك فروم - مرجع سابق - ص: 35.

(2) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 127.

اتهمهم له بكراهية الموت فتضليل وإسفاف في الفكر والقول، فكل الناس يعرفون من هو علي المجاهد؛ فبدر تعرفه وأحد تذكره، والخندق يشفع له وخيبر تاجه، إن القوم يستعجلون الحرب، وهو يستعجل السلم، وشتان بين الموقفين، موقف يدعو إلى الحياة والمصالحة، وموقف يدعو إلى المنابذة والفوضى، وكل إناء بما فيه ينضح، ليس علي هيباً للموت ولا جزعاً منه، فهو الذي يقول: " وإن علي من الله جنة حسنة، فإذا جاء يومي انفرجت عني وأسلمتني فحينئذ لا يطيش السهم ولا يبرأ الكلم" (1)

إنها لعقيدة راسخة لا يزيغ عنها، إذا زاغ عنها كثير من الناس، فلكل أجل كتاب، ولكل إنسان موعد لا يعدوه" فكل نفس ذائقة الموت" ، إن الموت من المسلمات والبديهيات فما رأى الناس أحداً قد خلد، والخوف منه أو من وقعه تزييف للحياة ذاتها لقد سعى رضي الله عنه إلى حقن دماء المسلمين، وبذل جهده، حتى أجهدته تعنت أهل الشام، ويئس من رجوعهم إلى الحق، فعزم على قتالهم، وعلى الرغم من ذلك فإنه نصح جيشه بأن لا يبدأ بالقتال، حتى يبدأ العدو، يقول " لا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم، فإنكم بحمد الله على حجة، وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى لكم عليهم، فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم" (2) إن التثبت والتحكم في النفس وإلزامها الحق المبين لمن صفات أمير المؤمنين التي اقتبسها من مشكاة النبوة، فما كانت الأناة في شيء إلا زانته، وما كانت الشدة والتسرع في شيء إلا شانته، فما أعجب أمر أمير المؤمنين في هذا الموقف المهيّب؛ فهو لا يني في الوفاء لنفسه الأصيلة مهما ادلهمت الخطوب، وعظم الأمر وفدح؛ فلا قتل للمدبرين أو الجرحى ولا التفات إلى أقاويل النساء وإن آذنين بأقبح الكلام، لأنهن ضعيفات القوى والأنفس، وليس للضعيف إلا الصراخ والشتم، وهو لا يقدم ولا يؤخر فالإعراض عنه أولى، حتى لا تكثر البلوى، فمنهجه هو رد الحق إلى نصابه، وليس الجري وراء التنكيل بأعدائه.

(1) المصدر نفسه - ص 129.

(2) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق ص: 199.

وبقي وفيما لكل مبادئه، حتى بعد أن تخاذل عنه أصحابه بعد التحكيم وأصر على معاييرهم في الحياة؛ استجابة لذاته الأصيلة، غير مبدل ولا مراوغ واستمر أتباعه على العناد، فتمنى الموت مع مبادئه على أن يزيّف نفسه فقال : " ... اللهم إني ملّتهم وملّوني، وسئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم خيرا منهم، وأبدلهم بي شرا مني..." (1)

من هنا يتضح لنا تفرد الإمام علي كشخصية واعية مفكرة قادرة على الحب والإحساس والعدل والتمسك بأخلاقيها التي اختارتها، والتفرد هو أبرز ما يميز الكائن البشري كما يقرر إيريك فروم، فيه نستطيع أن نعرف الإنسان بأنه الكائن الوحيد القادر على الانفصال وعلى الإحساس بالهوية، لأنه ينفرد بالعقل والخيال وهو غير قابل للتكرار (2)

وهو كذلك قد يتشابه شخصان في أمور كثيرة ولكن تبقى هناك فوارق بينهما تطبع كل ذات بإنيتها المتميزة بين أنواء كثيرة، مثل البصمة بين البصمات.

(1) المصدر نفسه - ص: 112.

(2) ينظر: د. حسن محمد حسن حماد، الاغتراب عند إيريك فروم - مرجع سابق - ص: 68.

الفصل الرابع

الدراسة الفنية

المبحث الأول: استراتيجيات الخطاب في نصوص الاغتراب

أ- الإقناع بالحجاج

ب- بالإطراد

ج- بالأفعال

د- بالنهي

المبحث الثاني: الألفة بين اللغة والفكر

- السلب والإيجاب

المبحث الثالث: التصوير في نصوص الاغتراب

1- التصوير الوصفي والمجازي

2- التصوير التشبيهي والمجازي

المبحث الأول: إستراتيجيات الخطاب في نصوص الاغتراب

إن اللغة كما هو شائع هي وسيلة الاتصال بين الناس؛ والاتصال بين الناس قد يكون لغاية الإخبار، أو السؤال، أو النهي عن أمر ما، أو الأمر بإتيان عمل ما، أو قد يكون الكلام محاوره؛ فيها أخذ ورد بين متحاورين، حول موضوع ما، وقد يكون التحوار من أجل السمر وتمضية الوقت، وهكذا تكون اللغة في عموم استعمالها لدى عامة المجتمع.

أما الكلام الذي نريده هنا فهو الخطاب الموجه من شخص إلى جماعة أو فرد ويكون المرسل واعيا كل الوعي بما يقول ، وإلى ماذا يرمي بقوله، فقد يريد الإقناع وقد يريد التوضيح، أو النصح أو التهديد أو الدعوة إلى الصلح، واستتفاض الهمم وغيرها من الموضوعات، ويكون هذا الخطاب فنيا يعتمد الأساليب اللغوية والبلاغية في تقرير ما يريد، وغالبا ما يسيطر في النصوص النثرية ما يسمى بالإقناع، والإقناع يعتمد الحجاج عادة كأسلوب، لما له من فعالية تجاه المرسل إليه.

ويقسم بعضهم الحجاج قسمين، حجاج توجيهي، وحجاج تقويمي، فالحجاج التوجيهي يقوم أساسا على إقامة الدليل على الدعوى بالبناء على فعل التوجيهي الذي يختص به المستدل، والتوجيه هنا يقوم على فعل إيصال المستدل لحججه إلى غيره⁽¹⁾. فالمرسل هنا ينشغل فقط بإلقاء وإيراد حججه دونما توقع لاعتراض المتلقي، ولذلك فهو لا يضع شأنا كبيرا للمتلقي إما ناسيا وإما عاجزا عن توقع ما يمكن الرد به عليه.

أما الحجاج التقويمي فيقوم على خطاب متوقع من مرسل إليه متخيل، فهو يفترض هنا اعتراضات قد يواجه به خطابه استنادا إلى معرفته بعناصر السياق، من ذلك حججه المفترضة، فهو يراعي في خطابه أمرين هما الهدف الذي يريد تحقيقه، وهو الإقناع والحجج التي يمكن أن يعارض بها من المتلقي والتي يضعها في حسابه في أثناء بناء خطابه فيستحضرها ويحاول تقييدها ويعارضها بما لديه من أدلة⁽²⁾، وبمعنى آخر فإن

(1) ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتب الوطنية بنغازي ليبيا ط1 2004، ص:470.

(2) المرجع نفسه - ص: 473.

المرسل مجرد من نفسه ذاتا معترضة على مضمون خطابه، فيحاول دفع تلك الاعتراضات بحجج أقوى وأعم وأدق بحسب ما يقتضيه الموقف. وكلا الحجاجين يعتمدان على اللغة والبلاغة والمنطق العقلي، فقد نجد المرسل، يستعمل أسلوبا لغويا أو بلاغيا أو هما معا وقد يعتمد على المنطق العقلي، وعلى المسلمات والبديهيات وما لا يختلف عليه الناس، من أمثال التأكيد بالقرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف وأقوال العلماء الأعلام، وعلى الأمثال والحكم، وكل ما لا ينكره العقل.

وإذا رجعنا إلى نصوص نهج البلاغة، التي هي مدار هذه الدراسة فإننا نجد كثيرا من النصوص هي وليدة صراع، وتدافع لسانی ولساني، من أجل كسب المعركة في الموقفين، ولما كانت الخطابة هي الغالبة على نصوص الاغتراب ارتأينا أن نبدأ بها، ونخصها باهتمام أكبر يليق بقيمتها بين هذه النصوص.

I. أ. الإقناع بالحجاج

اعتمد الإمام علي في كثير من خطبه الاحتجاج أسلوبا للإقناع، ولكن قبل أن نخوض في طرق الحجاج هذه، يجدر بنا أن نشير إلى أن الخطابة تسعى بصفة عامة إلى الإقناع والاستمالة والنصيحة وذلك حسب ما يقتضيه المقام، أو بمراعاة مقتضى الحال بتعبير البلاغيين العرب، فقد تكون الخطبة دينية بحتة، أو سياسية محضة، أو تكون سياسية دينية، أو سياسية قومية، إلى غير ذلك، وقد تكون الخطبة من جهة أخرى موجهة إلى الأصدقاء، وقد تكون موجهة للأعداء، وعليه فإنه لا يمكن حصر مقامات الخطاب، وما يتخللها من مواقف حصرا عمليا تاما لا يشذ عنه شيء.

والخطابة العربية وإن حاول كثير من الناس حصرها في الخطابة الدينية والسياسية في أغلبها، وفي العصور الإسلامية بالذات، وهي خطابة أخلاقية سلوكية، متجهة مرة إلى الدنيا ومرة إلى الآخرة، لضبط الوسطية التي يتميز بها الإسلام، أو هي سياسية تدعو لطاعة السلطان وتتوعد مناوئيه، أو هي خطابة مناوئة للحاكم وتدعو إلى شق عصا الطاعة والخروج عليه (الخوارج نموذجاً). إلا أن مقاماتها مختلفة، وميزاتها متباينة من خطيب إلى آخر، ومن قضية إلى أخرى، وقد ذهب أحد الدارسين إلى " أن الخطابة العربية هي خطابة منافرة ومفاخرة، ميالة إلى المدح والهجاء، ولم تعتمد الحوار الهادئ

القائم على الحجة إلا في مناسبات محدودة، ولذلك ينتظر أن يكون عنصر الحجاج والبرهنة أضعف عناصر بنائها، غير أنه ينبغي أن ينظر إلى القضية حسب المقامات والموضوعات المتناولة⁽¹⁾.

غير أن الدارس وخلال عرضه لنماذج من الخطباء في القرن الأول للهجرة لم يعرض للإمام علي مطلقا وهو الخطيب الأول بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخطبه ورسائله سميت بنهج البلاغة، وفيها من الحجاج ما يدعو إلى الدهشة حيث أغفله الدارس ولا ندري ما السبب الذي دعاه إلى ذلك ! وإذن فضعف الحجاج في الخطابة العربية قول فيه نظر، وسيوضح ذلك من خلال إيراد بعض النصوص من نهج البلاغة للتدليل على ذلك.

ولكن قبل أن نمضي إلى قصدنا يجدر بنا أن نقف عند أرسطو الذي تحدث كثيرا عن الخطابة، وأفرد لها كتابا خاصا أسماه "الخطابة" - كما أشرت إلى ذلك سابقا - وقد تحدث فيه عن موضوعات شتى، نذكر منها ما يهمننا في مبحثنا هذا، وهو الخطيب، والمتلقي، والخطاب، فأما عن الخطيب فيرى أرسطو أنه يكون مقنعا إذا كان كلامه يلقي على نحو يجعله خليقا بالثقة، لأننا نستشعر الثقة على درجة أكبر، وباستعداد أوسع بأشخاص معتبرين في كل الأمور بوجه عام. أما الخطاب فيجب أن يكون مقنعا عن طريق ما يقوله الخطيب، لا عن طريق ما يظنه الناس عن خلقه قبل أن يتكلم، ولكن الطيبة الشخصية للخطيب التي يكشف عنها خلال كلامه تعد من أقوى عناصر الإقناع، وأما المتلقي فيقتنع أو يتجاوب مع الخطاب إذا كان مثيرا لمشاعرهم، فأحكام الناس حين يكونوا مسرورين ودودين ليست هي أحكامهم حين يكونوا مغمومين ومعادين، وأخيرا فإن الإقناع يحدث عن الكلام نفسه إذا أتيت الناس حقيقته بواسطة حجج مقنعة مناسبة للحالة المطلوبة.⁽²⁾

(1) د. محمد العمري - في بلاغة الخطاب الإقناعي - إفريقيا الشرق - الدار البيضاء - المغرب - ط2 2002 - ص26.

(2) ينظر: الخطابة لأرسطو - ترجمة عبد الرحمن بدوي - ص 29-30. نقلا عن د. محمد العمري - في بلاغة

الخطاب - مرجع سابق - ص 24-25.

وإذن فوسائل الإقناع هي خلق الخطيب، ومصادقية الخطاب بالنسبة للواقع، ومراعاة أحوال المتلقي، من حزن أو فرح أو غيره، ومن يملك هذه الوسائل لإحداث الإقناع، يجب أن يكون قادرا : أ) على التفكير المنطقي، ب) وعلى فهم الخلق الإنساني والخير في مختلف أشكالهما. جـ) وأن يفهم الانفعالات، أعني أن يسميها ويصفها، ويعرف أسبابها، والطرق التي بها تستثار، ومن هنا يبدو أن الخطابة فرع من الجدل، وهي أيضا فرع من علم الأخلاق، يمكن أن يدعى بحق علم السياسة.

إن هدف الخطيب غالبا ما يكون الإقناع إذا كان الموضوع متعلقا باختلاف في الرؤى بينه وبين الجمهور أو المتلقين، وهذه النقطة بالذات تستوقفنا عند الإمام علي إذ اعتمد عليها كثيرا في إبلاغه بإبلاغية حاجية كما سنرى.

اتخذ الإمام علي الحجاج في خطباته ديدنه، فهو لا يترك طريقة من طرق الحجاج المؤدية إلى الإقناع أو لتوضيح فكره ورأيه، أو محاولة دفع الشبهات حول موضوع أو شخص ما إلا وسلكتها، وطرق الحجاج في خطباته متنوعة، تنوع أساليب العربية، وتنوع ما يلقاه من عداوة أو مساءة، أو جهل الجاهل، أو بغي الباغي، وهي — الأساليب الحجاجية — موزعة بين الأساليب العقلية المنطقية والأساليب البلاغية والنحوية والصرفية، وبين الأساليب الشرعية — القرآنية والسنية — ولنأخذ نموذجا من خطبه تتجلى فيها معظم هذه الأساليب، والخطبة قالها في أصحابه لما خذلوه وعصوا أو امره لما أمرهم بالخروج إلى قتال أهل الشام بعد قصة التحكيم، وسنورد هذه الخطبة على شكل فقرات، حتى يتسنى لنا الكشف بجلاء عن المراد، يقول : "أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم، وإبطائكم عن حقي، ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي، استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا، وأسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سرا وجهرا، فلم تستجيبوا، نصحتكم فلم تقبلوا، أشهود كغياب ؟ وعبيد كأرباب ؟ أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها، وأعظمكم بالموعظة البالغة فتفرقون عنها، وأحثكم على جهاد أهل البغي فما آتي على آخر قولي حتى أراكم متفرقين أيادي سبأ، ترجعون إلى مجالسكم،

وتتخادعون عن مواعظكم، أقومكم غدوة وترجعون إلى عشية كظهر الحنية، عجز المقوم، وأعضل المقوم ⁽¹⁾.

إن بؤرة معنى النص تتمثل في أن انتصار أهل الشام قضية لا شك فيها، ولكن كيف تم التوصل إلى هذا الحكم ؟ توصل إلى ذلك عن طريق التقابل الفكري والواقعي؛ المنطوق من الحكم والواقع المصدق؛ يتمثل ذلك في إسراع أهل الشام إلى باطل صاحبهم، وتقاس أصحابه عن حقه، ففي هذه المقابلة نلاحظ الملفوظات التالية (ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم وإبطائكم عن حقي) .

إن إسراع أهل أصحاب معاوية لمؤازرته يعني أن روح معاوية هي روح جماعته، وروح جماعته هي روحه، فهم إذن كالبنيان المرصوص، وأما قوله (وإبطائكم عن حقي) فيشير بوضوح إلى الانفصال بينه وبين جماعته، على الرغم من أن العقل في مثل هذه الحالة يرشد إلى أن يكون صاحب الحق أولى بالمؤازرة، ولكن الذي حدث هو العكس، ومن هنا كانت المفارقة العجيبة، وهذه المفارقة هي حجة الإمام علي على أصحابه، فلا يمكن لصاحب الحق أن يخذل بكل المقاييس، الشرعية، والعقلية والإنسانية، لأن فكرة نصرة الحق فكرة إنسانية عامة، لا تختص بأمة دون أخرى أو بدين دون دين، أو بفئة دون أخرى، فمن اعتدي عليه دون أن تسلف منه سلفة ظلم، فهو مظلوم بكل مقاييس السماء والأرض، وحق على من شهد الأمر أن يقف مع صاحب الحق من منظور إنساني محض.

ويعضد فكرة ظهور أهل الشام على أهل العراق فكريا وواقعا، أن عليا رضي الله عنه أصبح يخاف ظلم رعيته وهو من مظاهر الاغتراب حيث يتضمن سلب حريته، في حين أضحت الأمم تخاف ظلم رعاتها وحكامها، ولنتأمل هاتين الجملتين (لقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم ريعتي) ففي الجملة الأولى أكد الخبر بمؤكدتين، اللام وقد ، ليؤكد هذا الأمر لمن ينكره، بينما جاءت الجملة الثانية خالية من المؤكدات، لأن الحال تغني عن التأكيد، فالقابع على الجمر لا يحتاج إلى تأكيد حر النار،

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق- ص 149.
أيادي سبأ: أي متفرقين، وهو مثل عربي. الحنية: القوس. أعضل: اشتد وصعب.

والمقابلة بين الجملتين تكشف مفارقة أخرى، وهي أن الشعوب ترهب ظلم ملوكها وحكامها، بينما يرهب هو ويخاف من رعيته، وهي حجة أخرى على أصحابه، حيث أتوا من السلوك ما لم يكن مسبقا بين الراعي والرعية، وللتدليل على ذلك بالحجة البالغة، يورد وصفا لحاله معهم : "استنفرتكم فلم تنفروا، وأسمعتكم فلم تسمعوا، ودعوتكم سرا وجهرا فلم تستجيبوا، ونصحتكم فلم تقبلوا" . إن كل الحركات الإيجابية الصادرة من الإمام علي الموجبة للوحدة والنصر (استنفرتكم، أسمعتكم ، دعوتكم ، نصحتكم) قابلتها حركات سلبية من أصحابه (فلم تنفروا، فلم تسمعوا ، فلم تستجيبوا ، فلم تقبلوا) وهذه الحركات السلبية أشعرتة وأشبعته اغترابا، لأن هذه الأفعال هي اعتداء على ما هو له وهو حق الطاعة ، فإذا سلبها فقد السيطرة وفقد حرّيته، وإذا فقد حرّيته أصبح تحت طائلة الاغتراب بامتياز ! وهو ما كان.

وهذه الحركة السلبية من أصحابه هي إعلان واضح عن العصيان ليس باللسان، ولكن بالفعل، والفعل هنا أبلغ من القول، ولذلك استشاط منهم غضبا فصرخ فيهم : (أشهود كغياب ؟ ، وعبيد كأرباب ؟) فالاستفهام في الجملتين تعجبي، ولا يتعجب إلا من شيء أو فعل يخالف سنن الكون والحياة، فالمطابقة في قوله (أشهود كغياب ؟) توحى باللامبالاة التامة، وكأن الأمر لا يعنيه، من قريب أو من بعيد، وأما المطابقة الثانية (وعبيد كأرباب ؟) فهي تبين غطرستهم وتمردهم، وهم عبيد، ليس بمعنى الرق، ولكن بمعنى أنهم رعية لهم حاكم لا بد لهم أن يطيعوه، ولكنهم علوا بأنفسهم من مرتبة الرعية إلى مرتبة الراعي، فكان سلوكهم بذلك سلوك النذ للند، فأمرهم يأمرهم وينصّحهم فلا يأتَمرون ولا يطيعون ولماذا يفعلون ذلك فهم وإياه سواء!! وهذا مناط اختلال القيم الذي يجعل الإمام علي في قمة الاغتراب.

ويؤكد على فكرة عصيانهم له - الموجب لخسرانهم وخسرانه معهم - قوله (أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها، وأعظكم بالموعظة البالغة فتنفرون عنها، وأحثكم على جهاد أهل البغي، فما آتي على آخر قولي حتى أراكم متفرقين أدي سبأ) إن هذه المقابلات الثلاث تكشف عما يختلج في أنفسهم، فهو إذ يتلو عليهم الحكم فينفرون منها معناه (لا عقول لهم) وإذ يعظهم بالموعظة البالغة فيتفرقون عنها معناه (ضعف إيمانهم) وإذ

يأمرهم بجهاد أهل البغي فيتفرقون عنه معناه (عصيانهم المستمر له) وهو عصيان لا يرجى ولا يمكن إصلاحه، أما قوله (أراكم متفرقين أيادي سباً) ففيه استعارة تمثيلية، فكما تفرقت قبائل سباً بعد سيل العرم، وتباعدت في منازلها، من اليمن إلى الشام إلى العراق، فكذلك حال هؤلاء القوم، يتفرقون، ولكل شغل، وآمال وهموم، وتماتل هذه الصفات المختلفة من شخص لأخر، منازل قبائل سباً في التباعد، بمعنى أو وجودهم في مكان واحد لا يعني الوحدة، وذلك لاختلاف الآراء بينهم إذ يمكن أن نقول : وجودهم عدم !

إن من ألغى عقله واتبع هواه، وأخذ إلى الأرض ولزم الدنيا فليس إليه سبيل، إن نكوص أهل العراق عن نصرة الإمام علي، مرجعه حب الدنيا - وكلنا كذلك - ولكن موقعهم في الزمان والمكان، كان يوجب عليهم الطاعة لا المعصية، ولذلك كان تعجب الإمام علي في هذا الخطاب لا يني يتوالى، فهو يرسم لهم صورة هي أقرب إلى صور الحمقى والمغفلين، أو لنقل المتحامقين المتغافلين، والمتخاذلين، فهم لم يعدموا حقاً يؤازرهم، فصاحبهم صاحب حق ومناوئوه بغاة، ولم يعدموا علماً، فعلي من أعلم الناس في عصره، ولم يعدموا العدد، فهم كثيرون في الباحات ولكنهم قليلون تحت الرايات، ولم يعدموا النصح والإرشاد، ولكنهم لا يمتثلون وإن امتثلوا سرعان ما يعودون إلى المخالفة والعصيان، يبين ذلك قوله (أقومكم غدوة وترجعون إلى عشية كظهر الحنية، عجز المقوم وأعزل المقوم) إنها مقابلتان، يقومهم في الصباح فيعودون إليه في المساء كظهر القوس، أي كأشد ما يكون الاعوجاج فينطق صارع الأبطال بعجزه وإقراره بفشله، لقد أعزل المقوم، والإقرار بالعجز من مظاهر الاغتراب بل هو أحد أعمدته كما يقرر " سيلفن سيمان " كما مر بنا في موضعه.

ويمضي في وصف أصحابه في الخطبة نفسها إذ يقول " أيها القوم الشاهدة أبدانهم، الغائبة عنهم عقولهم، المختلفة أهواؤهم، المبتلى بهم أمراؤهم، صاحبكم يطيع الله، وأنت تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه، لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم فأخذ مني عشرة منكم، وأعطاني رجلاً منهم " (1). فأول ما نلاحظ في هذا الجزء من الخطبة توالي الجمل الإسمية (أيها القوم الشاهدة

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص 149.

أبدانهم ... المبتلى بهم أمراؤهم) ومعلوم أن الجملة الاسمية تدل على الثبات والدوام، وهي تناسب تماما هنا ثبات صفات هؤلاء القوم، تلك الصفات التي تورث الغم والهم، ومن ثمة الاغتراب، وهي مقابلات أيضا، فأبدانهم شاهدة وعقولهم غائبة، وما تغني أخا الحرب شخوص ألبابها غائبة، وآراؤها مختلفة، بل على العكس من ذلك تماما، فهي تنكي قلب أمرائها وتدميها، وتجرحها الأسى والأسف، والمتأمل في هذه الجمل الاسمية يدرك سبب استحضار الإمام علي ذهنيًا لتلك الصفات التي تفصح عنها هذه الجمل، لأنها صفات لا تليق بهم أبدا وما كان لهم أن يرتضوها لأنفسهم، لأنها مفارقة عجيبة، ولماذا هي كذلك في رأي الإمام علي؟ والجواب منه مباشرة (صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه) إنها حجة بالغة عليهم، فمن يطيع الله أولى أن يطاع من رعيته، ومن يعصي الله فعصيانه أولى، وقد اعتمد في إبراز هذه الحجة على المقابلات الحية، الموحية بفداحة الخطب عن الفريقين (أهل العراق وأهل الشام)، فهو - علي - ولي أهل العراق يطيع الله وهم يعصونه، ومعاوية ولي أهل الشام، يعصي الله وهم يطيعونه، وليس وراء هذا الكلام غاية في البلاغة، والملاحظ أن الخبر في الجملتين جاء جملة فعلية، ولذلك دلالة لا تخفى، فطاعة علي متجددة، وعصيانه متجدد من أصحابه، وعصيان معاوية متجدد، وطاعته متجددة من لدن أصحابه، وهذا الموقف يثير الاغتراب لدى الإمام علي، نتيجة التناقض القيمي.

ونمضي مع الخطبة في مقطعها الموالي، يقول رضي الله عنه: "يا أهل الكوفة منيت منكم بثلاث واشنتين: صم ذوي أسماع، وبكم ذوي كلام، وعمي ذوي أبصار، لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء، تربت أيديكم يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها، كلما جمعت من جانب تفرقت من آخر، والله لكأنني بكم فيما إخالكم: أن لو حمس الوغى، وحمي الضراب، قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج المرأة عن قبلها، وإني على بينة من ربي ومنهاج من نببي، وإني لعلى الطريق الواضح ألقطه لقطا".⁽¹⁾

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص 150.
 انفراج قبلها: عند الولادة. اللقط: أخذ الشيء من الأرض. وسمى أتباعه لمنهج الحق لقطا لأن الحق واحد، والباطل أنواع مختلفة، فهو يلقط الحق من بين دروب الباطل. ينظر هامش شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ص 143.

يوصل في هذا المقطع تبيان حججه على أصحابه من أهل الكوفة، الذين جعلوه غريبا في وطنه وسكنه، وقد توسل أسلوب الطباق للتعبير عن التناقض في البنية النفسية لأهل الكوفة، فهم صم ولكن يسمعون! وبكم ولكنهم يتكلمون، وهم عمي ولكنهم يبصرون وليس هذا زخرفا لفظيا أو فكريا، بل هو تعبير عن واقع حقيقي مفعم بالأسى والحزن، فهم صم لأنهم لا يستجيبون لأوامر ونواهي إمامهم، وما سوى ذلك فهم يسمعون مما يكون بينهم من معاملات كالبيع والشراء وغيره من الأمور الدنيوية، وهم بكم لعدم إقرارهم بالحق والدعوة إليه، والمنافحة عنه، ومن كان في مثل هذه الحالة فهو كالأبكم بل هو أشد وأضل، وهم عمي ذوي أبصار، لأن عمى البصيرة يتلوه عمى البصر، فمن لا يمتثل للحق الواضح فهو كالأعمى، وإن كان الأعمى ليس عليه حرج، والمسكوت عنه في هذا الخطاب هو أن وجودهم عدم، يؤيد هذا قوله (لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء) فمن لا يثبت مع أميره وقائده في الحرب، ولا هو بموضع ثقة عند نزول النوازل) ليس يعتد به، بل وجوده أخطر من غيابه، لأن من كانت خصالهم على مثل هذه الشاكلة لا يعدم منهم الغدر والخيانة وقد أحسها منهم حيث يقول (يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها كلما جمعت من جانب تفرقت من آخر، والله لكأنى بكم فيما إخالكم : أن لو حمي الوغى وحمي الضراب، قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج المرأة عن قبلها) فكيف يركن إليهم وأهواؤهم مختلفة، وآراؤهم مشتتة، كالإبل كلما جمعت من جهة تفرقت من جهات. إن وجه الشبه بين الإبل وأهل الكوفة هو التفرق، فهذه بالأجسام وهؤلاء بالآراء والأهواء والعصيان، فليسوا إذن إخوان ثقة، فمن ركن إليهم كان كالمستجير من الرمضاء بالنار، لأنه يعتقد أن لو خاض بهم حربا وحمي أوارها لانهمزوا وتفرقوا عنه يمينا ويسرة، ولأورثوه الغصة بعد الغصة، وكان تشبيهه إياهم عند التفرق عنه بانفراج قبل المرأة عند الولادة لإظهار دناءتهم وجبنهم⁽¹⁾ ، وقد أكد ما ذهب إليه بعدة مؤكدات منها القسم، وأن، وقد التحقيقية، إن هذا السلوك الذي يتوقعه من أهل الكوفة هو انعكاس نفسي وفكري لما اختبره فيهم، فليست لهم رؤية واضحة، وغم عليهم الأمر فتاهوا، وما أبو إلى رشدكم.

(1) ينظر نهج البلاغة- شرح محمد عبده هامش- ص 149.

أما هو فيقر بثباته، وأنه اليوم مثله أمس (وإني على بينة من ربي ومنهاج من نببي، وإني لعلى الطريق الواضح ألقطه لقطا)، وقد أكد موقفه بأن في الجملة الأولى، وبأن ولام الابتداء في الجملة الثانية، وكما بين وأكد ثباته على الطريق الأوحى بالاستعارة التبعية في قوله (ألقطه لقطا) أي أتبعه اتباعا، فجاء باللقط مكان الاتباع، لأن فعل (ألقط) أبلغ هنا لأنه يدل على اختيار الحق وهو واحد بين أصناف متعددة من الباطل كلها تؤدي إلى غير الهدى، ويمكن أن نلاحظ تناسبا معنويا مع القرآن الكريم في مثل قوله تعالى (ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) ⁽¹⁾، فسبيل الله واحد والزيغ سبله كثيرة، وبثباته على موقفه انتصر لذاته الأصلية وقهر الاغتراب.

ويقول رضي الله عنه يذكر أصحاب الجمل (طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة) ومن كان معهم "فخرجوا يجرون حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما تجر الأمة عند شرائها متوجهين بها إلى البصرة، فحبسنا نساءهما في بيوتهما، وأبرزنا حبس رسول الله صلى الله عليه وآله، لهما ولغيرهما في جيش ما منهم رجل إلا أعطاني الطاعة وسمح لي بالبيعة طائعا غير مكره، فقدموا على عاملي بها وخزان بيت مال المسلمين وغيرهم من أهلها، فقتلوا طائفة صبرا وطائفة غدرا، فوالله لو لم يصيبوا من المسلمين إلا رجلا واحدا معتمدين لقتله، بلا جرم جره لحل لي قتل ذلك الجيش كله، إذ حضروه فلم ينكروا، ولم يدفعوا عنه بلسان ولا بيد. دع ما أنهم قد قتلوا من المسلمين مثل العدة التي دخلوا بها عليهم!" ⁽²⁾ ففي هذه الفقرة من الخطبة يريد الإمام علي إيصال رسالة لمخاطبيه على أن أصحاب الجمل ومن معهم على ضلال مبين، معتمدا على مختلف الحجج الإقناعية، فطلحة والزبير خرجا يجران حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تجر الأمة متجهين بها نحو البصرة فهذه أول حجة عليهم فقد أمر الله نساء النبي بلزوم بيوتهن فخالفا أمر الله أولا، ثم صور هذه المخالفة في أفصح صورة وهي أنهم يجرونها كما تجر الأمة لها عند شرائها وهي حجة إقناعية يحاول من خلالها إثارة استهجان واستقباح ما أتاه الزبير وطلحة ومن معهما، ثم ثنى على هذه الجملة

(1) الأنعام الآية 154.

(2) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 180.
صبرا: صبر الإنسان أن يحبس ويرمى حتى يموت.

بحجة أخرى في السياق نفسه؛ إذ تركا زوجاتهما في بيوتهما وأبرزوا زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم لهما ولغيرها، وهذا من أشنع ما يسلكه المسلم؛ أن يحافظ على أهله ويجعله في منأى عن الأذى، ويرضى لأهل رسوله صلى الله عليه وسلم المهانة والتعرض للأذى. وهذا من أنكر النكر، وهذا الجيش الذي خرج معهما ما فيهم رجل إلا وقد بايعه طائعا غيره مكره؛ ومعنى هذا أنهم جميعا قد نكثوا العهد ونقضوا البيعة، وهذه فعلة موجبة لغضب الله ورسوله، وحجة له (عليه) لقتالهم، وقدم هذا الجيش إلى البصرة واستولى أفراداه على بيت مال المسلمين وأسروا عامله عليها وقتلوا جماعة قتل الحيوانات، إذ حبسوه ورموهم بالحجارة أو النبال حتى قضوا نحبهم وغدروا بجماعة أخرى فقتلوا وهي غير مستعدة للقتال، وهذه حجة تغضب رب العباد، ومن لا يغضب الله فليس بشيء، وهؤلاء يعلمون أن لكل غادر لواء يوم القيامة، وقتل المسلم محرم والغدر محرم وهؤلاء الناس قد اتوهمما فما أجدر أن يلحاهم الأقرب والأبعد. وفي الجزء الثاني من هذه الفقرة يعلن قراره والهدف الذي يسعى إليه بعد أن قدم من الحجج ما يكفي لتسويغ هذا الهدف (قتالهم) فيقسم بالله أن قتل هؤلاء يقرب إلى الله ويرفع الدرجات؛ ولو لم يصيبوا إلا رجلا واحدا بلا ذنب سلف منه يستوجب القتل إذ لم يدفعوا عنه بيد ولا بلسان ولم ينكروا هذا الأمر الشنيع أضف إلى ذلك قتلهم من المسلمين مثل العدة التي دخلوا بها، وقد أشرنا فيما سبق إلى أن عددهم ستمائة.

ونلاحظ أن الأفعال الواردة في الجزء الأول من هذا النص، تشير في مجملها إلى فساد نية ومسلك هؤلاء الناس من مثل (خرجوا يجرون حرمة رسول الله صلى الله عليه وآله) ومثل (ما منهم إلا أعطاني الطاعة) وفي الجزء الثاني جاءت الأفعال منقسمة بين (عليه) ومناوئيه) فما نسبه من أفعال لنفسه يشير إلى التهديد والوعيد، وإنفاذ الأمر الحق فيهم، وما نسب إلى مناوئيه يدل على الذم من مثل (لم ينكر، لم يدفعوا، قد قتلوا) وهي كلها تستوجب العقاب، وهو هدف الخطاب.

ومما يدخل في الحجاج الإقناعي ما قاله لطلحة والزبير وقوم من الصحابة حين خاطبوه أن يعاقب قوما ممن أجلب على عثمان رضي الله عنه حيث قال لهم: "يا إخوانه إني لست أجهل ما تعلمون، ولكن كيف لي بقوة والقوم المجلبين على حد شوكتهم،

يملكوننا ولا نملكهم، وما هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، والتفت إليهم أعرابكم، وهم خلائكم يسومونكم ما شاؤوا وهل ترون موضعا لقدرة على شيء تريدونه! إن هذا الأمر أمر جاهلية، وإن هؤلاء القوم مادة. إن الناس من هذا الأمر - إذا حرك - على أمور: فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا ذاك، فاصبروا حتى يهدأ الناس، وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق مسمحة، فاهدؤوا عني، وانظروا ماذا يأتيكم به أمري، ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة، وتسقط منة، وتورث وهنا وذلة، وسأمسك الأمر ما استمسك، وإذا لم يجد أجد بدا فآخر الدواء الكي⁽¹⁾ إن أول ما يلقانا في هذا الخطاب هو وعي الإمام علي بوجوب معاقبة المجلبون على عثمان رضي الله عنه، قبل أن يحدثه أولئك النفر من الصحابة، ولكنه لما قلب الأمور على وجوها أدرك صعوبة الموقف، فأراد أن يقنع من أتاه طالبا للقود بحجية رأيه وقوة وشدة التأثيرين، التي ازدادت بميل عبيد أهل المدينة إليهم ومؤازرة الأعراب لهم، وهم خلال أهل المدينة وبينهم يفعلون ما شاؤوا ثم يكرر الحجة الأولى عن طريق الاستفهام الإنكاري (وهل ترون موضعا لقدرة على شيء تريدونه) وإن فحجه؛ هي ضعف ما يملك من قوة وهي الحجة الأولى أما الثانية فقوة وشدة التأثيرين، والثالثة انضمام العبيد والأعراب إلى صفوفهم؛ وكل هذا يكشف عن عجزه في الحال وبالتالي لا يمكن انفاذ طلبهم بمعاقبة هؤلاء المشاغبيين في الوقت الراهن، ثم أردف في الجزء الثاني من الخطبة حججا أخرى تمضي في تقوية رأيه وهي: أنه إذا أثير أمر القصاص فسيتفرق أمر الناس إلى ثلاثة فرق، ففرقة مع القصاص، وأخرى ضده، وثالثة لا ترى هذا الأمر أو ذاك، فهي على الحياد، ومعنى ذلك أن قوته في المدينة تنقسم إلى ثلاثة أقسام قسم واحد معه، وقسمان ضده، مما يجعل القصاص مستحيلا في هذه الحالة، وهو هدف الحجاج في هذا الموضع، وفي الجزء الثالث من الخطبة يلجأ إلى أفعال الأمر التي يؤازر بها رأيه، ولأنه خليفة المسلمين فإن أوامره حقيقية تهدف إلى أن يكف الناس عن التفكير أو المضي في هذا الأمر، لأن ذلك سيورث وهنا وفرقة، فمن تلك الأفعال (فاصبروا، فاهدؤوا، وانظروا ما

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 117.
شوكتهم: الشوكة الشدة والبأس: مادة: المادة العون والمدد. منة: المنة القوة.

يأتيكم) وكذلك فعل المضارع الذي دخلت عليه (لا) الناهية (لا تفعلوا) فهناك أمر بمعنى الكف، وهنا نهى بمعنى الكف أيضا.

وكلها تصب في حجية الإقناع باستحالة القود حاليا من المجلبين، وكذلك جاءت الأفعال في المضارع لخدمة إستراتيجية الإقناع؛ (فلا تفعلوا فعلة تضعف، وتسقط، وتورث) مع مفاعليها تؤكد استمساكه بخيار المهادنة إلى أن تتقلب الأمور وتهدأ القلوب فعندها يؤخذ الأمر بسهولة، ثم يختم خطابه بحجة تقويمية، لأنه يتوقع من مخاطبيه سؤالا مفاده ماذا لو لم تهدأ الأمور كما تقول فكان الجواب، آخر الدواء الكي وهو معاقبة المجلبين. على ما هم عليه، ويفعل الله ما يشاء، ولكن طلحة والزبير رضي الله عنهما لم يمتثلا لهذا الأمر، وخرجا إلى مكة وألبا الناس عليه، فدخلت الأمة في الفتنة الكبرى، وما أخذت الأمور مسمحة كما أرادها. وقتل الآلاف بسبب التهور وعدم الاحتكام للعقل، وتستوقفنا هنا الأدوار المؤسسة فمنزلة المتلفظ غير منزلة المخاطب المشارك، فالمتلفظ ينزل نفسه منزلة المعلم ومعنى ذلك أن المتلقي ينزل منزلة المتعلم⁽¹⁾. غير أن هذا المتلقي قد يرفض أن ينزل هذه المنزلة لذلك رأينا طلحة والزبير رفضا بخروجهما إلى البصرة أن يكونا في منزلة المتعلم وأن يكون علي في منزلة المعلم.

ومما قاله في الوعظ والارشاد وسلك فيه مسلك الحجاج خطبته في أصحابه وقد ذكر فيها فناء الدنيا "أيها الناس إنما أنتم في هذه الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا، مع كل جرعة شرق، وفي كل أكلة غصص، لا تتألون منها نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يعمر معمر منكم يوما من عمره إلا بهدم آخر من أجله، ولا تجدد له زيادة في أكله إلا بنفاذ ما قبلها من رزقه، ولا يحيا له أثر إلا مات له أثر، ولا يتجدد له جديد إلا بعد أن يخلق له جديد، ولا تقوم له نابتة إلا وتسقط منه محصودة، وقد مضت أصول نحن فروعها، فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله!!" (2)

(1) ينظر: دومينيك مونقانو المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ترجمة محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، ط1 2005، ص: 89

(2) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق- ص: 171 تنتضل: النضلة السبقة، غصص: الغصة: الشجرا وما اعترض الحلق فأشرق، يخلق: خلق الثوب بلي.

إن موضوع الخطاب هو التنفير من الدنيا؛ لأنها إلى زوال، فكيف بنى صاحبه حججه الإقناعية؟ فأول ما بدأ به هو الإقرار بأن الناس غرض تتسابق فيهم المنايا! ولكن كيف ذلك؟ إن ذلك لواضح ففي كل جرعة يتجرعها الإنسان شرق، وإن لم يحس بذلك وفي كل أكله غصة وإن لم ينتبه لذلك؛ لأن كل أكلة أو جرعة هي نقصان من رزقه وبالتالي نقصان من حياته، والحجة في ذلك أنه لا ينال نعمة إلا بعد أن يكون قد فارق أخرى، وهي لا تعود أبداً، ولا يعمر يوماً إلا بانقاص يوم من أجله ولا يأتيه رزق جديد إلا بعد أن يكون قد استهلك ما قبله من رزق وهو لا يعود أبداً ولا يحيا له أثر من آثار الدنيا كامتلاك شيء أو تقلب في سرور أو فرح إلا ويكون قد انقضى له مثل ذلك، ولا يتجدد له جديد من ملك أو صحة أو سرور إلا بعد ذهاب مثل ذلك إلى يوم القيامة، (ولا تقوم له نابتة إلا بسقوط محصودة) وفي الكلام استعارة لما يتجدد له مما يفرحه وما ينوبه مما يترحه. وقد مضت الأصول (وهم الأسلاف) ونحن فروع منها، فأني يبقى الفرع بعد ذهاب أصله والهدف إذن من هذا الحجاج هو التنفير من الدنيا ووجوب الزهادة فيها.

ومما قاله في شأن الحكمين وذم أهل الشام قوله "جفاة طغام، وعبيد أقزام جمعوا من كل أوب وتلقطوا من كل شوب، ممن ينبغي أن يفقه، ويعلم ويدرب ويولي عليه، ويؤخذ على يديه، ليسوا من المهاجرين والأنصار ولا من الذين تبؤوا والدار والإيمان.

ألا وإن القوم اختاروا لأنفسهم أقرب القوم مما يحبون، وإنكم اخترتم لأنفسكم أقرب القوم مما تكرهون، وإنما عهدكم بعبد الله بن قيس بالأمس يقول "إنها فتنة فقطعوا أوتاركم، وشيموا سيوفكم" فإن كان صادقا فقد أخطأ بمسيره غير مستكره، وإن كان كاذبا فقد لزمته التهمة فادفعوا في صدر عمرو بن العاص بعبد الله بن عباس، وخذوا مهل الأيام وحوطوا قواصي الإسلام، ألا ترون إلى بلادكم تغزى وإلى صفاتكم ترمى⁽¹⁾.

إن حجج ذم أهل الشام لواضحة في الخطاب، فهم أوغاد الناس وجفاة غلاظ، لا أثر للتربية السليمة فيهم، جمعوا من أطراف شتى ومن أعراق مختلفة، ليس لهم نسب صريح، هؤلاء الذين ينبغي لهم أن يتفقهوا في الدين ويعلموا أصوله، ولذلك فهم أولى أن يؤخذ

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 198، جفاة الجافي، الغليظ، طغام: أوغاد الناس، أوب: الأوب الجهة، شوب: الشوب الخلط، شيموا: شام سيفه أغمده

على أيديهم، بعدم تركهم تصدر الناس وقيادتهم، إذ ليسوا من المهاجرين والأنصار الأوائل، فمن أين يأتيهم تزعم الناس وقيادتهم، فنلاحظ في هذا الجزء الأول تقرير حالة عن طريق الوصف، وهي أن أهل الشام ليسوا بشيء في الإسلام، وهم من أراذل الناس، فلا ينبغي أن يتركوا لسياسة الناس.

وفي الجزء الثاني من الخطبة نلاحظ تنبيه الإمام علي لأصحابه، بأن أهل الشام اختاروا عمرو بن العاص، وهو من الدهاء بمكان، وهو ما ينبغي أن يتوفر فيمن يمتلككم، ولكنكم اخترتم من الناس، ما تكرهون صفاته؛ عبد الله بن قيس (أبو موسى الأشعري) فهو ليس في مقام عمرو بن العاص من حيث الذكاء والدهاء، وقد لزم بيته واعتبر ما يجري بين المسلمين فتنة ينبغي أن لا يشارك فيها العاقل، فإن كان ذلك كذلك، فقبوله بتمثيل أهل العراق ليس من الحكمة فما أجدره أن ينحاز إلى أهل الشام، دع أنه لم يستكره على قبول هذا التمثيل، فإن كان صادقا في دعواه الأولى بأنها فتنة، فإن مسيره لتمثيل أهل العراق خطأ فادح منه، وإن كان كاذبا في دعواه الأولى (بأنها فتنة) فهو موضع اتهام، بمعنى أنه يعرف أين الحق ولكنه خذله... وإذا كان ذلك كذلك فما أحرأه أن يخذل أصحاب الحق مرة أخرى، وترى حجج الإمام علي هنا تقضي كلها إلى نبذ أبي موسى الأشعري إن كان صادقا في دعواه الأولى أو كان كاذبا.

وفي الجزء الأخير من الخطبة يشير على أصحابه بتحصيل القوة؛ وإعداد السلاح والخيول، والدفاع عن ثغور الإسلام منبها بالاستفهام التقريري إلى أن بلادهم عرضة للغزوة وقوتهم عرضة للهدم.

ونلاحظ أنه راعى المقامات في خطاباته المختلفة في هذا النص، فقد استعمل الجملة الاسمية في قوله (جفاة طغام، وعبيد أقزام) للدلالة على لزوم هذه الصفة لهم، والجملة الاسمية تدل على الثبات والدوام، ثم استعمل بعدها مباشرة الجملة الفعلية التي تدل على التحول في قوله جمعوا من كل أوب، وتلقطوا من كل شوب ممن ينبغي أن يفقه ويعلم ويدرب ويولي عليه ويؤخذ على يديه" فالجملة الأولى والثانية جاء الفعل فيهما مبنيا للمجهول للدلالة على أن من جمعهم لا يقل عنهم في الضعة والمنزلة الحقيرة، فهم سواء الجامع والمجموع، وأما الجمل التالية لها فقد جاءت الأفعال فيها أيضا مبنية للمجهول

"أي أن يفقه ويعلم، ويدرب ويولي عليه، ويؤخذ على يديه" للدلالة على أنهم نكرات لا علم لهم ولا أدب وأن أي إنسان من أصحابه مهما قل علمه يمكنه أن يعلمهم ويفقههم ويؤلى عليهم ويأخذ على أيديهم، لأنهم جهلة بسبل الحق وسبل الباطل فهم -حشد- أتباع كل ناعق، ويعود مرة أخرى إلى الجملة الإسمية ليؤكد هذه الصفات ويثبتها (ليسوا من المهاجرين والأنصار، ولا من الذين تبؤوا الدار والإيمان) فالجملتان تؤكدان قدر هذه الفئة من الناس وأنهم في أسفل سلم المجتمع، فكيف يصح في العقل أن يكونوا ولاية أمر المسلمين وفي الجزء الثاني من الخطبة يؤكد الخبر بـ (ألا) الاستفتاحية و (إن) التوكيدية، ليبين حرص ودهاء قادة أهل الشام، وفي الجملة الثانية (وإنكم اخترتم لأنفسكم أقرب القوم مما تكرهون) حيث أكد الخبر بـ (إن) وإن كان أغلبهم ممن أيد هذا المسعى بمجرد أن اختاره القراء من جيشه، وهذا الذي جعلهم يستدلون على الحق بالرجال، بينما الصواب أن يستدل على الرجال بالحق.

ومن استراتيجيات الخطاب في هذا النص اعتماده على أسلوب الشرط؛ في حديثه عن أبي موسى الأشعري (فإن) كان صادقا فقد أخطأ بمسيره غير مستكره، وإن كان كاذبا فقد لزمته التهمة، فعن طريق الشرط جعل الإمام علي عبد الله بن قيس موضع تهمة في الحالتين، لينبذ أصحابه إلى خطر وضعه موضع المفاوض عنهم، وقد أصاب في تقديراته إذ لعب به عمرو ابن العاص كما مر بنا، ثم استعمل في الجزء الأخير أفعال الأمر؛ وهي صادرة من الأعلى إلى الأدنى ومعنى ذلك أنها أوامر حقيقية في قوله (فادفعوا في صدر عمر بن العاص بابن عباس، وخذوا مهل الأيام، وحوطوا قوامي الإسلام) وهي أوامر - لو أطيع فيها لكان فيها الخير - تحت على دفع شبهة الخذلان، وتبعد الطريق للقوة التي لا غنى عنها في حفظ ثغور الإسلام، ولاستشعاره رضي الله عنه إلى ما سيؤول إليه التحكيم من الفساد وقد كان.

ومن الخطاب الحجاجي ما كتبه إلى معاوية الذي رفض بيعته يقول: "إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماما كان ذلك لله رضي، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى

ما خرج منه فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، ولعمري يا معاوية لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان، ولتعلمن أنني كنت في عزلة عنه إلا أن تتجنى فتجن ما بدا لك والسلام⁽¹⁾ إن الحجة الأولى التي يمكنها إسكات معاوية هي أن من بايعوه (علي) هم من بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان، وبهم انعقدت البيعة لهم، وإن فليس للشاهد - بعد ذلك - أن يختار و لا للغائب أن يعترض، والحجة أن الشورى للمهاجرين والأنصار وهم "في المدينة" فإذا اختاروا رجلا وأعلنوه خليفة فقد أرضوا الله وهذه حجة أخرى. فإن خرج عليهم خارج بطعن في البيعة ردوه إلى صوابه، فإن أبى قاتلوه، وهذه نتيجة حتمية وهي هدف للحجج الإقناعية المقدمة، وهي في الوقت نفسه تحذير لمعاوية من استمراره في التمرد. ثم يردف مستعملا سلطة الخطاب لا خطاب السلطة قائلا لئن استعملتك عقلك وأبعدت عنك الهوى - لمكانة عثمان منك - لتجدني من أبرأ الناس من دم عثمان، لأنني كنت في عزلة عنه عندما قتل فإن أبيت إلا التعتن والإصرار على اتهامي فافعل ما بدا لك.

وقد دعم الحجاج العقلي بالأدوات البلاغية واللغوية؛ فمن ذلك تأكيد الخبر بـ (إن) في قوله (إنه بايعني...) وأكد الخبر بالنفي في قوله (فلم يكن للشاهد أن يختار) أي لا يجوز ذلك في المرجعية الإسلامية القائمة، والجملة مؤكدة بأن أيضا (للشاهد أن يختار) وكذلك في الجملة المعطوفة (ولا للغائب أن يرد) وكذلك فقد أكد حجاجه بأسلوب القصر في قوله، (وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار) وهي قصر صفة على موصوف، أي لا تكون الشورى إلا لهؤلاء، وأكد حجبيته مرة أخرى بأسلوب الشرط في قوله (فإن اجتمعوا على رجل و سموه إماما كان ذلك لله رضى) وكذلك قوله (فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه) وكذلك بالشرط أيضا في قوله (فإن أبى قاتلوه) وأكد الخبر مرة أخرى بلام التوكيد ونون التوكيد الثقيلة وأن في الجمل التالية: (لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان، ولتعلمن أنني كنت في عزلة عنه، إلا أن تتجنى...) كما استعمل أفعال التفضيل لإبعاد التهمة عنه في قوله: (لتجدني أبرأ الناس) وهكذا نرى الإمام علي ما ترك حجة عقلية أو إبلاغية أو لغوية إلا استعملها في خطابه الإقناعي.

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 203

ومنه- الحجاج- ما ورد في وصيته رضي الله عنه لأحد أصحابه، الذي يدعي كميل بن زياد، حيث أخبر أن الإمام علي أخذ بيده وأخرجه إلى الجبان (الأرض الواسعة) فلما أصحرت تنفس الصعداء ثم قال: " يا كميل بن زياد إن هذه القلوب أوعية، فخبرها أوعاها، فأحفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج راع اتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق"⁽¹⁾ فأول ما بدأ به تنبيهه إلى أن يعي ما يقوله له، لأن القلوب أوعية، وخبرها أوعاها وأحفظها لما توعض به، ثم يمضي إلى تقسيم الناس باعتبار العلمي الإلهي الشرعي إلى ثلاثة أقسام، فالفرد من الناس إما أن يكون عالما بالله علما يقينيا مبنيا على العزيمة الثابتة والمعرفة الراسخة التي لا تميل بها الشبهات ولا تقف أمامها العوارض، مما ينقذ في قلوب وعقول كثير من الناس، من الحيرة والشكوك، وإما أن يكون هذا الإنسان قد شرع في تعلم العلم وهو مازال في طريق تحصيله، ليقى نفسه مواقف السوء، وإما أن يكون من الدرجة الثالثة حيث لا علم له، ولا هو ساع في تحصيله، لا يهمله الأمر كله فهو أقرب إلى العجماوات منه إلى الإنسان، لذلك نرى من مثله من الناس همج لا يعرفون الحق من الباطل، يتبعون كل من دعا إلى دعوة سواء كانت حسنة أو غير حسنة، لأن معرفة الحسن من القبح يحتاج إلى علم وهؤلاء خلوا منه، فهم لم يستنيروا بنور العلم لا من كتاب الله عز وجل ولا من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وإذا أمعنا النظر في هذا التقسيم وجدناه يسع الناس جميعا، ولا يمكن أن نجد قسما رابعا غير هذه الأقسام الثلاثة، العالم الرباني، والمبتدئ في تحصيل العلم، والدهماء من الناس (الحشد) مثير الغربة والاعتراب ثم يمضي في نصح كميل بن زياد قائلا: " يا كميل العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، وصنيع المال بزواله"⁽²⁾ يقرر في الفقرة فكرة غاية في الأهمية، وهي أن العلم خير من المال، ونتساءل لماذا فتأتي الحجة على ذلك فالعلم يحرس الإنسان ويرشده ويأويه حتى يورده إلى الآخرة، فينال مناه، وأما المال فهو مشغلة يتعبه في تحصيله والمحافظة عليه وحراسته من الضياع، فيكون بذلك عبدا له، وهو إلى ذلك ينقص

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 274-275، همج: همج الحمقى، راع: من لا فؤاد له، ناعق: نعق: صاح

(2) المصدر نفسه - ص: 275 ، يزكو: ينمو .

بالإنفاق، بينما ينمو العلم بتعليمه للناس؛ لأن العالم في هذه الحالة يجتهد في تمحيص علمه والازدياد منه أفقياً وعمودياً هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه ينقل علمه إلى غيره من طلاب العلم فيكثر حملة العلم، ومع كثرة حملة العلم يكثر من يستتير بنوره ويعمل بهداه، فيعم الفضل ويستمر العلم والعرفان، أما صنيع المال؛ فهو عادة ما يعلق بشهوات الدنيا، فإذا ذهب المال انقطعت السبل بصاحبه، وفارق معيشته المترفة مما قد يسيره في طرق تؤول به إلى الضياع في الدنيا والآخرة كأن يسرق أو يسطو على مال غيره وقد يجره ذلك إلى الانتحار ويمضي الإمام علي في تبين فضله - (العلم) قائلاً لكميل " يا كميل بن زياد، معرفة العلم دين يدان به، به يكسب الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحدثه بعد وفاته، والعلم حاكم والمال محكوم عليه"⁽¹⁾ إن معرفة العلم مما يؤدي إلى التدين الحقيقي والمستمر لأنه يفصل المحامد و يدل عليها و يفضح المفساد ويشير إليها، فله ميزتان، التلذذ بالعلم وتحصيله والاستغراق فيه، والعمل بموجبه وما يوجبه له في الآخرة من أجر عظيم، وما يبقى له من أثر حسن في نفوس العلماء الذين حذوا حذوه فيكون لهم بمثابة المنارة التي يهتدي بها الناس في الظلام، وإذن فالعلم خير كله أو هو خير محض ومن خيريته أنه حاكم أي أنه يدل صاحبه على الخير فيأتيه، ويدله على الشر فيتقيه، وهو إلى هذا حاكم أيضاً على المال نفسه، فالإنسان العالم يعرف أين يضع المال وأين ينفقه، وأين يقف به عند الإنفاق فلا إسراف أو تبذير، ولا تقتير ولا بخل، وإذا لم يكن هناك علم ليحكم على المال فسنعود إلى القسم الثالث من البشر؛ رعا ع الناس الذين يجمعون المال من حله وحرمة وينفقونه عادة على الملاهي وأفراح الترف، فيكون لعب ساعة وخراب دهر.

والملاحظ أن الإمام علي قد استلهم المنطق العقلي الذي لا يختلف فيه اثنان في هذه الوصية، وكفيينا أن النتيجة حجة مقنعة فالعلم حاكم والمال محكوم عليه وقد استعمل الجمل الاسمية في أغلب النص، وهي كما نعلم تدل على الثبات والدوام، وهو كذلك فالعلم دائم النفع والمال دائم التآرجح بين النفع والضرر، وبين الدوام والزوال؛ وكل متحرك لا يثبت!

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 275.

ب. الاطراد:

يلاحظ القارئ لخطب ورسائل الأمام علي كثيرا من الظواهر الأسلوبية المطردة، المتتابعة المفسرة أو المؤكدة، المسببة والنتيجة السلبية والإيجابية، النافية أو المثبتة.

فإذا أخذنا مثلا خطبته التي قالها بعد التحكيم حيث يقول " فأجمع رأي ملئكم على أن اختاروا رجلين، فأخذنا عليهما أن يجعجا عند القرآن، ولا يجاوزاه، وتكون ألسنتهما معه وقلوبهما تبعه، فتاها عنه، وتركها الحق وهما يبصرانه، وكان الجور هواهما : والاعوجاج رأيهما، وقد سبق استثنائنا عليهما في الحكم بالعدل والعمل بالحق، سوء رأيهما وجور حكمهما، والثقة في أيدينا لأنفسنا، حين خالفا سبيل الحق، وأتيا بما لا يعرف من معكوس الحكم ".⁽¹⁾

فأول شيء يلقانا بروز وثبات نسق الإمام علي في تفكيره وسلوكه، فقد كان ضد التحكيم، فأرغم عليه بطرق شتى حتى إذا رضي به على مضض اقترح حكما له وهو ابن عباس، فأبوا عليه إلا أن يحكم أبا موسى الأشعري، لذلك استل نفسه من هذه الخطوة وجعل الاختيار لهم وحدهم (فأجمع رأي ملئكم على أن اختاروا رجلين) ثم عاد إلى مسرح الأحداث وأشرك ذاته معهم؛ لأنه - رغم تحفظه على الحكومة - شاركهم في المقاييس التي بها يتم التحكيم الصحيح. وهنا يبرز الاطراد في كلام الإمام، (فأخذنا عليهم أن يجعجا عند القرآن) أي الوقوف عنده، ومعنى الوقوف عند القرآن (لا يتجاوزاه) ومعنى لا يتجاوزاه أن (تكون ألسنتهما معه وقلوبهما تبعه) لكنهما (تاها عنه) ومعنى تاها عنه (تركها الحق وهما يبصرانه) ومعنى ذلك أنهما حكما (وكان الجور هواهما) والارتكان إلى الجور هو أن يكون (الاعوجاج رأيهما) وإذن فالحكم باطل، (وقد سبق استثنائنا - عليهما في الحكم بالعدل والعمل بالحق - سوء رأيهما وجور حكمهما)، وإذن (فالثقة في أيدينا لا نفسنا) لماذا الثقة في أيديكم يا أبا الحسن ؟ الثقة في أيدينا (حين خالفا سبيل الحق) ومخالفة سبيل الحق أنهما (أتيا بما لا يعرف من معكوس الحكم).

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 182.
يجعجا: الجعجة: بركوك البعير، والمراد الوقوف عنده.

لقد عكسا الحكم إذن، فجعلنا المحق مبطلا والمبطل محقا، وهذا ما تأباه العقول. وقد توصل الإمام إلى هذه النتيجة الواضحة بإتباع الحجاج عن طريق الاطراد والتتابع في المقدمات والنتائج حتى أسفرت الحقيقة لكل ذي عينين.

ومما يدخل في هذا الباب ما قاله في وصف عمرو بن العاص، حيث بلغه أنه يقول لأهل الشام إن علي بن أبي طالب رجل لعب ولهو وزهو، يقول " عجا لابين النابغة! يزعم لأهل الشام أن في دعابة، وأني امرؤ تلعباة أعافس وأمارس! لقد قال باطلا، ونطق آثما، أما وشر القول الكذب - إنه ليقول فيكذب، ويعد فيخلف، ويسأل فيبخل، ويسأل فيلحف، ويخون العهد، ويقطع الإل، فإذا كان عند الحرب فأبي زاجر وأمر، هو ما لم تأخذ السيوف مأخذها، فإذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنح القرم سبته، أما والله إني ليمنعني من اللعب ذكر الموت، وإنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة، إنه لم يبايع معاوية حتى شرط أن يؤتية أتيه ويرضخ له على ترك الدين رضىخة ".⁽¹⁾

ونلاحظ أن أول ما يلقانا في هذا الخطاب هو تعجب علي من عمرو بن العاص، ومن كلامه لأهل الشام، وهو تعجب له دلالاته نكتشفه في آخر الخطاب، لقد عقب على كلام ابن العاص بقوله (لقد قال باطلا، ونطق آثما) لأنه ليس أهلا لأن يحكم على الناس، فكيف له بذلك، فهو يقول فيكذب، والكذب يهدي إلى الفجور (ويعد فيخلف) وهي إحدى صفات النفاق، (ويسأل فيبخل) والشح أهلك من كان قبل من الأمم، (ويسأل فيلحف)، (ويخون العهد) وهي إحدى صفات النفاق الأربعة، (ويقطع الإل) أي لا يصل الرحم، ومن لا يصل الرحم قطعه الله، فهذا القسم الأول فيه مما وسمه به من صفات تجعله أبعد الناس عن الإسلام الحق فكيف يتجنى على من يفضل، وهذا نصف جواب التعجب. وفي المقطع الثاني يصور الإمام علي حالة عمرو بن العاص أثناء وقبل بدء المعارك، فعند الاستعداد للمعركة يكون من أشد الناس حثا على الحرب والقتال يأمر الجيش ويزجره، فإذا وقعت المعركة ظهرت حقيقته، فما إن يلقي عظيما من الرجال حتى يسقط نفسه من على حصانه ثم يكشف عورته، فينصرف عنه الرجل حياء (وهنا يشير الإمام إلى نفسه عند ما بارزه

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 142.
تلعباة: كثير اللعب. أعافس: المعافسة: المضاربة والمصارعة. أمارس: مارس ضارب. الإل: القرابة. القرم: المعظم من الرجال. السبة: الإست. يرضخ: رضىخ أعطى.

عمرو، فلما حمل عليه ألقى نفسه إلى الأرض وكشف عن (استه فولى عنه الإمام علي)، وهذا المقطع يكشف التقابل في أسلوب الإمام علي، ويرمي من خلاله في هذا الموضع إلى بيان إيجابية عمرو في الموقف الذي لا يقتضي الإيجابية، وبيان سلبية في الموقف الذي يقتضي الإيجابية، فهو كثير القول قليل العمل، بمعنى أنه يأمر ولا ياتمر، يحث على خوض الحرب بشجاعة وإقدام، فإذا كانت ولي الأديار على طريقته!! فهو إذن جبان.

وفي المقطع الثالث تتغير نبرة الخطاب لدى الإمام فيضع القارئ بين موقفين واضحين، موقفه هو وموقف عمرو بن العاص، وينفذ من خلال ذلك إلى إبطال مزاعم عمرو، وقد عمد إلى أسلوب الإنكار عن طريق توالي مؤكّدات الخبر في الموقفين، (أما والله إنني ليمنعني من اللعب ذكر الموت) لقد نفى عن نفسه اللعب الذي وسمه به عمرو بـ أما الاستفتاحية والقسم، وإن، ولام الابتداء الداخلة على فعل المضارع، وتوالي هذه المؤكّدات يشير إلى إنكاره الشديد لما وسم به، وبمؤكّدات الخبر أيضا أو ضح موقف عمرو في هذه الفتنة (وإنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة) فقد أكد الخبر بـ أن ولام الابتداء أيضا الداخلة على فعل المضارع (وإنه ليمنعه) ومن نسيانه الآخرة اشترط على معاوية شرطا (وإنه لم يبايع معاوية حتى شطر عليه أن يؤتية آتية، ويرضخ له على ترك الدين رضىخة)، الخبر في الجملة الأولى مؤكّد = (إن، وأن) والجملة الثانية تأكيد معنوي، الجملة الأولى، لأن إتيان الآتية هي إعطاء عطية، ثم إن ترك الدين الحق من أجل عطية في الدنيا لهي أعجب العجائب لمن يدعي أنه يدافع عن عثمان رضي الله عنه ويطالب مع المطالبين بدمه، فالمؤمن بالقضية لا يشترط المزية، وهذا هو النصف الثاني من تعجب علي من سلوك عمرو، والملاحظ في هذا النص دقة الاطراد والانتقال من مسألة إلى أخرى عن طريق خيط رفيع يربط بينهما بوضوح تام، عن طريق إظهار الحجج والأدلة، يقول أحد الدارسين "إن التستر عن المنطلقات والمرجعيات والمقاصد يكاد يكون القانون الذي ينتظم الخطاب عامة لا الأدبي فحسب.. وكأن المتكلم مقتنع بأنه متى لم يظهر الحياد ولم يوهم بالموضوعية - انقلب عليه القول، واتهم بالخوض في المحذور والتفكير في ما لا تسمح الإيديولوجيا السائدة بالتفكير فيه والتعبير عنه" (1)

(1) عبد الله البهلول - في بلاغة الخطاب الأدبي - مطبعة التفسير - صفاقس - تونس - ط1 - 2007 - ص: 53.

يردنا النص إلى المسكوت عنه في النص السابق، أو إلى الصمت فيه، وإن كنا أشرنا إليه، وعودتنا إليه لنكتة مهمة، فعلي لم يقل مباشرة إن عمرو بن العاص منافق، ولكن كل الدلائل والإشارات الملفوظة تشير إلى ذلك، وأراد أن يجعل المتلقي أو السامع هو الذي يصدر ذلك الحكم، ومعلوم أن الثقافة السائدة حينذاك هي ثقافة دينية إسلامية والناس مشبعون بهذه الثقافة في أصولها العامة في مختلف ميادين الحياة، وحين يقول الإمام علي عن عمرو بن العاص رحمه الله "إنه ليقول فيكذب، ويعد فيخلف، ويسأل فيبخل، ويسأل فيلحف، ويخون العهد، ويقطع الإل". هذا وصف لشخص عمرو بن العاص، والصوت المنبعث من داخل النص هو بالضرورة صوت المؤلف.⁽¹⁾

ولكن هذا الصوت المتمثل في شخص علي رضي الله عنه الذي له وجوده التاريخي يحيلنا أيضا إلى ثقافة مجتمعه وعلى ثقافة مشتركة، ومن الشائع فيها، القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والناس يحفظون الحديث المشهور " آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا اتهم خان"⁽²⁾ فعلي لم يصدر الحكم حتى لا يتهم بالمبالغة، فعمد إلى وصف خلق عمرو، فكان مطابقا للصورة التي صنعها الحديث الشريف.

ومن الرسائل التي يتضح فيها الاطراد ما كتبه إلى معاوية حول بيعته، يقول : "إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماما كان ذلك لله رضي، فإن خرج عنهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على إتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه ما تولى، ولعمري يا معاوية لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان، ولتعلمن أني كنت في عزلة عنه إلا أن تتجنى، فتجن ما بدا لك والسلام".⁽³⁾

يتضح لنا من خلال هذا الخطاب أن الإمام علي انطلق من فكرة كلية أو مقدمة كبرى، وهي أنه بايعه من بايع الخلفاء الثلاث الذين كانوا قبله، ثم بدأ في تجزيء الفكرة

(1) ينظر: عبد الله البهلول- في بلاغة الخطاب الأدبي- مرجع سابق- ص: 55.

(2) الإمام الزبيدي- مختصر صحيح البخاري- الشركة الجزائرية اللبنانية- الجزائر- ط2007-ص: 24.

(3) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 202.

الكبرى إلى إمكانات الاعتراض|، من شخص أو جهة ما، فقال لم يكن للحاضر أن يختار وليس للغائب حق في ذلك أيضا، لماذا ؟ لأن ذلك لم يحدث مع الخلفاء السابقين، ثم تدرج مرة أخرى إلى قضية مهمة وهي أن الشورى للمهاجرين والأنصار وهي قضية معلومة عند جميع الناس، فعندما يعينون خليفة يكون في ذلك إرضاء لله، حتى لا تتمزق الأمة، فإن حاول محاول خرق هذا المبدأ بالعصيان حاربوه وقاتلوه، - بعد استتابته - لأنه اتبع هواه وفارق الجماعة، ونلاحظ من التحليل أن مبايعة معاوية لعلي واجبة وجوبا شرعيا، فإن أبى جاز له أن يقاتله حتى ينزله على حكم الله، ويمكن أن نتصور القضية كما يلي :

من بايعه المهاجرون والأنصار صار خليفة للمسلمين (المقدمة الكبرى) وكل ما خالف وجب استتابته فإن أبى قاتلوه (مقدمة صغرى علي بايعه الناس، ومعاوية يأبى أن يبايع، النتيجة : وجب قتال معاوية.

وفي الجزء الأخير من الرسالة التي يقول فيها (ولعمري - يا معاوية لئن نظرت بعقلك دون هواك، لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان، ولتعلمن أنني كنت في معزل عنه إلا أن تتجنى فتجن ما بدا لك)، يطالبه أن يعمل عقله (والعقل سلطان الحكمة) وأن يدع الهوى (سلطان البغي والشرور) فإنه يجده (علي) بريئا من دم عثمان، الذي يطالبه به. ثم كيف يصح في العقل - حسب الإمام علي - أن يطالب بدم عثمان وهو كان في عزلة عنه ولم يدع إلى مناوئته، ولم يؤازر مناوئيه.

ويمكن أن نتصور القضية هكذا : بحكم العقل يبرؤ علي من دم عثمان تحكيم الهوى يتهم علي، إذ معاوية رمى بعقله وراء ظهره وأبدل به هواه، فأصبح علي متهما لا عن طريق العقل ، لكن عن طريق الهوى، إذن فهو متجن عليه.

وعلي يعلم بهذا التجني فحاول أن يدفعه مطالبا معاوية بإعمال عقله وطرح هواه جانبا كما سلف الكلام، ثم عمد إلى تأكيد براءته بالقسم (ولعمري) ولام الابتداء ونون التوكيد الثقيلة (ولتعلمن) وإن (إني).

إن إتباع الهوى مما يكشف عن اختلال الشخصية، وعدم انسجامها مع الحق، وهو حال معاوية وعمرو بن العاص رحمهما الله وغيرهما كما يراهما الإمام علي، فهم لا

ينسجمون في سلوكهم مع الإسلام الحق، وهذا يوقعهم في التناقض، وهذا التناقض القيمي من مظاهر الاغتراب، فالإمام علي يرى أن كل مسلم يجب أن يخضع لمر الحق وحلوه، والأمر كذلك كما يقرر العقل، فإذا خالف امرؤ ما هذا الخلق الإسلامي الصميم جعله في قمة الاغتراب ، وهو ما كان.

ج. الأفعال في الماضي و المضارع و الأمر:

1. في الماضي:

تنوعت أفعال الماضي في نصوص نهج البلاغة تنوع المواقف والسياقات التي جاءت فيها، فمنها ما جاء للوعظ، ومنها ما جاء للاعتبار، ومنها ما جاء للوصف، ومنها ما جاء للإنكار وهكذا، وسنقف عند بعض النصوص التي غلبت عليها أفعال الماضي، من ذلك قوله رضي الله عنه في الوعظ " من نظر في عيب نفسه، اشتغل عن عيب غيره، ومن رضي برزق الله لم يحزن على ما فاتته، ومن سل سيف البغي قتل به، ومن كابد الأمور عطب، ومن اقتحم اللجج غرق ، ومن دخل مداخل السوء اتهم، ومن كثر كلامه كثر خطؤه، ومن كثر خطؤه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار، ومن نظر في عيوب الناس فأنكرها، ثم رضيها لنفسه، فذلك الأحمق بعينه، والقناعة مال لا ينفد، ومن أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير، ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه"⁽¹⁾

والملاحظ على هذا النص التنسيق الدقيق بين المقدمات المتوالية والنتائج التي أفضت إليها، وهو تنسيق وضع الأمور مواضعها وفرض الأفعال في مواقعها، في البدء والمنتهى وما بينهما، فما أجلها من حكم وقعت موقعها وحلت منازلها باختيار أفعال مناسبة، فأول ما يهم الإنسان نفسه؛ لذلك بدأ بها الإمام علي مستعملا الماضي الذي يكشف عن تجربة واسعة وعلم غزير وبداهة واضحة؛ لكنها بداهة العارفين؛ فمن نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، وهو عين العقل، ومن رضي برزق الله لم يحزن على ما فاتته لأن الأمر كله بيده، ومن سل سيف البغي قتل به، فالفعل الأول مبني للمعلوم

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 288.
كابد: قاس. عطب: هلك. اللجج: اللجة معظم الماء.

والثاني مبني للمجهول والأول سبب في الثاني، ومن كابد الأمور عطب فالفعل الثاني نتيج الأول ومن اقتحم اللجج غرق فالفعل الثاني مسبب عن الأول، ومن دخل مداخل السوء اتهم، فالأول مبني للمعلوم والثاني مبني للمجهول ومؤداه، كثر متهموه، وقد جعل نفسه موضع اتهام والنتيجة واحدة وهي السوء، ومن كثر كلامه كثر خطؤه والفعل الثاني سليل الأول، ومن كثر خطؤه قل حياؤه وهي نتيجة لا مفر منها فليحذر الإنسان نفسه، ومن قل حياؤه قل ورعه، إن قلة الورع من قلة الحياء وهما كالظل وصاحبه ومن قل ورعه مات قلبه، وهو جدير بذلك لأن كل المواعظ تشير إلى ذلك، ومن مات قلبه دخل النار، وهي نتيجة لا بد منها بعد مقدمات تشير في مجملها إليها، ومن نظر في عيوب الناس فأنكرها ثم رضيها لنفسه؛ فما أشد حمقه، فهو قد نظر، ثم أنكر ثم رضي لنفسه ما أنكر لذلك لم يخطئه الوصف، والقناعة مال لا ينفد، فقد استعمل المصدر (القناعة) بدل الفعل للدلالة على الثبات والدوام، وقد ناسبه الفعل المضارع المنفي (لا ينفد) ومن ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير وهو به حقيق، ومن علم أن كلامه من عمله (الذي قد يسوءه) قل كلامه إلا فيما يعنيه، وهكذا نرى أن الموعظة كلها جاءت باستعمال الماضي الذي عادة ما يستعمل في الإخبار ذكر الأحداث، وإن الأمر أخص بالموعظة من الماضي، ولكن الإمام علي وهو عربي خالص كان في عصر الاحتجاج قد استطاع باستعمال الفعل الماضي إلى استدراجنا إلى حيث شاء، فإذا نحن أمام قطعة تعد مقياسا يعرض عليها كل إنسان نفسه.

ومن النصوص التي غلبت عليها الأفعال في الماضي قوله في الوعظ "فوا لله لو حننتم حنين الوله العجال، ودعوتهم بهديل الحمام، وجأرتهم جوار متبتلي الرهبان، وخرجتم إلى الله من الأموال والأولاد التماس القربة إليه في ارتفاع درجة عنده، أو غفران سيئة أحصتها كتبه، وحفظتها رسله، لكان قليلا فيما أرجو لكم من ثوابه، وأخاف عليكم من عقابه، وتالله لو انماثت قلوبكم انميئا، وسالت عيونكم من رغبة إليه أو رهبة منه دما، ثم عمرتم في الدنيا، ما الدنيا باقية ما جرت أعمالكم عنكم - ولو لم تبقوا شيئا من جهدكم - أنعمه عليكم العظام، وهده إياكم للإيمان" (1)

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 125.
الوله: شدة الحزن والجزع. العجال: العجل. التكلي: هديل الحمام: صوت الحمام. وقيل خاص بالوحشي منه. جار: رفع صوته بالدعاء، وتضرع واستغاث. انماث: ماث خلط وقيل أذابه.

إن أول ما يلقانا عند تفحص هذا النص هو ورود عشرة أفعال بصيغة الماضي (حننتم، دعوتهم، وجأرتهم وخرجتم، أحصتها، حفظتها، انماثت سالت، عمرتم، ماجزت) إن استعماله للأفعال الماضية في هذه القطعة لاستحضار صورة ممكنة لمخاطبيه لتدل على نباهته وقوة إدراكه، وبلاغة إبلاغيته، فعن طريق هذه الصور المتخيلة - المرجوة- استطاع أن يجعل الأفعال الماضية ذات قوة إيحائية، وإغرائية، وفعالة في رسم المشهد الذي يوقظ الإحساس، وينبه الهمم، ليرتفعوا حيث أراد، وقد توالى هذه الأفعال في قوتها المشتركة في إثارة الانفعال تواليًا يصحبه التوتر الشديد لحمل المستمع على التكيف والانصياع، وتلك إحدى صفات سلطة الخطاب، لأن الوصف هنا يؤول إلى الفعل المبتغى والسلوك المرجو، لتحقيق الهدف- التجرد لله- الذي من أجله صيغ هذا النص، فحنين التكالى وما يصحبه من اضطراب، وصوت الحمام البري وما يثيره من أشجان، ورفع الصوت بالدعاء والتضرع الذي يمتزج فيه الحزن والحرقة مع شدة الرغبة، لحرية أن تخرجهم من بين الأولاد والمال والأنعام، رجاء القربة ورفع درجة عند الله، درجة واحدة أو غفران سيئة واحدة، حطتها الأقدار في صحفهم، وحفظتها رسله من الكاتبين الكرام، ولو فعلوا ذلك كله، لكان قليلا فيما يرجو لهم من مثوبة ويخاف عليهم من عقاب، والملاحظ أنه استعمل هنا أرجو وأخاف، وهي من المضارع والحاضر المستمر للتنبية إلى أن الخالق لا يغفل ولا يسهو، ولينقل هذا الإحساس والشعور بالمراقبة إلى مخاطبيه، وهي من أهداف الخطاب أيضا، ثم ينثني إلى الماضي مرة أخرى، فيقسم بالله- لتأكيد الخطاب- أن لو ذابت قلوبهم، وسالت عيونهم رغبة إليه أو رهبة منه، بالدماء- بعد نفاذ الدموع- ثم عاشوا الدنيا ما بقيت، ما جزت أعمالهم كل تلك المدة، ما أنعم الله عليهم من النعم العظام- التي لا يمكن حصرها- وهده إياهم للإيمان، وقد اعترض بالفعل المضارع المنفي (ولو لم تبقوا شيئا من جهدكم) في نهاية الخطاب للإيحاء بتقصيرهم في حق الله المتفرد بالعبودية وبحقه في الأنعام عليهم وهدايتهم للحق المبين ويبدو أنه استبطن نفسه فنقل تجربته لمتلقيه لعلها تفعل في أنفسهم ما ابتغاه من تقوى الله وإجلاله.

وهذا نص آخر في الوعظ والإرشاد أيضا غلبت عليه أفعال الماضي يقول فيه: "أوصيكم بتقوى الله، الذي أعذر بما أنذر، واحتج بما نهج، وحذركم عدوا نفذ في

الصدور خفيا ونفت في الآذان نجيا، فأضل وأردى، ووعد فمنى، وزين سيئات الجرائم وهون الموبقات العظام حتى إذا استدرج فريسته، واستغلق رهينته، أنكر ما زين واستعظم ما هون وحذر ما امن⁽¹⁾

بدأ الخطاب بفعل المضارع أوصيكم وله دلالة خاصة سنقف عندها، ثم توالى كل الأفعال بصيغة الماضي، وهي (أعذر، أنذر، احتج، نهج، حذر، نقد، نفت، أضل، أردى، وعد، منى، زين، هون، استدرج، استغلق، أنكر، استعظم، حذر، أمن) والملاحظ على هذه الأفعال أن بينها مناسبة، فكل فعل له بتاليه علاقة معينة فأعذر نتيج أنذر، لأنه لكي يكون الإنسان معذورا أن يتقى ما أنذر الله به، واحتج نتيج نهج، لأن الله نهج نهجا وهو الإسلام، ومعالمه معروفة فمن خالفها، ليس له أمام الله حجة، بل الحجة لله إذ نهج، (وحذركم عدوا)، والتحذير من العدو يوجب الحيطة منه في كل شيء، وبخاصة إذا كانت له القدرة على النفاذ في الصدور، والنفت في الآذان، وهذا العدو قد أضل وأردى، فالهلاك مرده الضلال وبينهما مناسبة فالثاني مسبب عن الأول (ووعده فمنى) وعده أماني، والأمانى لا تتحقق كما منى آدم عليه السلام بالخلد في الجنة وزين سيئات الجرائم بنفته في الآذان ووسوسته في الصدور حيث له القوة في النفاذ (وهون موبقات العظام) لأنه ألى على نفسه أن يضل أبناء آدم، فلا بد أن يفى بوعده إرضاء لكبريائه، (حتى إذا استدرج فريسته واستغلق رهينته) فإذا استحوذ على الإنسان واستغلق عليه كل السبل (أنكر ما زين، واستعظم ما هون وحذر ما هون) وهذا التقابل والتطابق في الأفعال يكشف عن أهم مزايا إبليس، وهو الكذب لأنه شر محض وليس في قاموسه الصدق أبداً، وهو الذي عصى الله علانية وأكد نيته في تضليل خلق الله ما استطاع إلى ذلك سبيلا، والإمام علي قد استلهم الإسلام في هذا النص، فكشف عن عورات إبليس كلها والتي أشار إليها القرآن الكريم في مواضع كثيرة من مثل قوله (يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكما من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سواتهما، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم)⁽²⁾

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 140.
نجيا: من تساره وتناجيه. موبقات: مهلكات. استغلق: استغلقه لم يجعل له خيارا في رده.
(2) الأعراف- الآية: 83.

ونعود إلى فعل المضارع في أول النص (أوصيكم بتقوى الله) فتقوى الله هي الائتثار بأوامره والانتهاه عن نواهيه، ولا يكون ذلك إلا بعصيان إبليس عصيانا كلياً كما عصى هو الله عصياناً كلياً وهذه هي إستراتيجية الخطاب هنا، إذ تعتبر هذه الجملة جملة المضارع هي مركز النص وبالتالي مركز الأفكار والمعاني المتوالية عن طريق توالي الأفعال في الماضي كما رأينا.

ومن الاحتجاج على أنصاره وتنبههم إلى ما ينتظرهم من أمر الله العظيم بعد الموت ما قاله لهم تنفيرا لهم من الدنيا التي أصبحت تشغلهم، ويومئ إلى الفرار إلى الله تعالى يقول " فإنكم لو قد عاينتم ما قد عاين من مات قبلكم لجزعتم وولهتم، وسمعتهم وأطعتم، ولكن محجوب عنكم ما قد عاينوا، وقريب ما يطرح الحجاب ولقد بصرتهم إن أبصرتهم، وأسعتهم إن سمعتهم، وهديتم إن اهتديتم، وبحق أقول لكم: لقد جاهرتكم العبر، وزجرتهم بما فيه مزدجر وما يبلغ عن الله بعد رسل السماء إلا البشر"⁽¹⁾ فقد جعل جملة الفعل الماضي (لو قد عاينتم ما قد عاين من مات قبلكم) مركز الفكرة ومنطلق العبرة، وسبيل الإرشاد، لأنهم لو عاينوا ذلك حقا لكان ما قرره ذلك واقعا ولذهل كل إنسان عن أخيه، ولاستبد الجزع بكل واحد منهم ولشغلته نفسه عن غيره، ولسمعوا وأطاعوا، ولكن لما لم يكن ذلك مقدورا لهم، ولم يشاهدوا ما شاهده غيرهم مما طواه الزمان، ولكن سيحدث عما قريب، عندما يرفع لهم الحجاب حين الوفاة فيروا ما يزلزل الألباب ويذهل الكبير ويشيب الصغير، ثم يعقب كلامه بتوجيه فيه غير قليل من التقرير متوسلا الماضي دائما للاحتجاج لرؤياه منبها على أنهم قد أبصروا من العبر ما يجعلهم أهلا للاعتبار، وسمعوا من الحكم والقوارع ما يروضهم، وشاهدوا من آيات الله ما فيه حكمة بالغة لمن أراد الاهتداء والاقتداء، ففي كل يوم عبرة تدعو بغير لسان إلى الهدى وترك المنكرات والشهوات، والإقبال على الخيرات والأعمال الصالحات، يعضد ذلك ما يصيب الظالمين من القوارع والبطش الشديد الذي جرى أمامهم، أو حكى عنه القرآن وأخبر به المصطفى عليه الصلاة والسلام، مما أصاب الأمم السابقة من الويلات حين عصوا رسل الله، أو حين مالوا عن جادة الصواب فأصابهم ما أصابهم من المحق والخسف وما هو من

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 109. وله: ضعف وجزع.

الظالمين ببعيد، ثم يختم خطبته بتقرير بالغ! وهي أن الرسالات قد ختمت ولا يبلغ عن الله بعد الرسل والأنبياء إلا البشر فمن شاء أن يعتبر بمن مضى فعليه أن يدع ما كان سببا في هلاكهم، وان يتمسك بأسباب النجاة التي بينها الإسلام في القرآن والسنة، فإن ذلك سيوصله إلى بر الأمان، ومن أبى كان مصيره كأسلافه؛ ممن أغرق أو خسف به الأرض، أو أخذته الصيحة، أو ممن أملى لهم حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذهم بغتة فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين.

ولو عدنا إلى تسلسل الأفعال في المقطوعة لوجدناها مطردة فإن من عاين ما لاقاه غيره فإنه يفزع، ومن كان كذلك سمع وأطاع، وفي الجزء الثاني يورد الأفعال حسب أهميتها ولقد بصرتم لو أبصرتم (وأسمعتم لو سمعتم) لأن البصر مقدم على السمع، وليس الخبر كالعيان!! والاهتداء يكون بعد السمع والبصر، وأما في الجزء الثالث فيورد الأفعال بحسب قوتها في الفعل (جاهرتكم العبر وزجرتم ما فيه مزدجر) فالمجاهرة اخف وقعا من الزجر، وهي طريقة تحمل الفهم السليم والإدراك العميق لدور الكلمة وطبقات الناس، فمنهم من يكفيه الجهر بالقول حتى ينتفع ومنهم من لا ينفع معه إلا الزجر والقهر، ويختتم النص بفعل المضارع المنفي (وما يبلغ عن الله بعد رسل السماء إلا البشر) ليقرر حقيقة معلومة، وهي أن عهد الرسالات والمعجزات انتهى، وليس ينفع إلا العمل، وماهية الأعمال وكيفياتها معلومة من الكتاب والسنة.

ولم يأت هذا النص للترف الفكري، فقد كان صاحبه - الإمام علي - يعاني من أمته الولايات إن في السياسة وإن في الاجتماع وإن في التدين بمعناه الواسع أو الضيق، فالتناقض القيمي بينه وبين مجتمعه هو مصدر هذا النص، فالرجل قد تملأ الإسلام وتشربه حتى لم يبق فيه لغيره موضع، في حين كان مجتمعه متباينا في الفهم والسلوك والانقياد على الرغم من مرجعيتهم الإسلامية الواحدة، فأراد أن يبين لهم أن النفوس إذا لم يشغلوها بالحق شغلتهن بالباطل، وما كان أغناه عن التذكير لو أن واحدا أعمل عقله وفكره كما أمر الله، ولكن البلية مرتبطة بالفهم والإرادة، وحيث أن الإرادة هي من يسوق الإنسان في كثير من الأحوال، فإن التباين حاصل بين فكر الإمام الذي لا يتغير، وموقف غيره من

أتباعه وأعدائه الذين تقودهم شهوة العصيان أو العداوة دون النظر بإيجابية إلى المرجعية الإسلامية، الأمر الذي أوقعه في التناقض القيمي معهم.

2. في المضارع:

نجد بعض النصوص في نهج البلاغة يغلب عليها أفعال المضارع، وهي تأتي تارة في سياق الوعظ والإرشاد وتارة في سياق التهديد، وتارة في سياق العتاب وأخرى في سياق التقرير والتوبيخ وغيرها.

ومن هذه النصوص التي غلب عليها المضارع قوله في الوعظ " يا ابن آدم الرزق رزقان: رزق تطلبه، ورزق يطلبك، فإن لم تأتِه أتاكَ، فلا تحمل هم سنتك على هم يومك، كفاك كل يوم على ما فيه، فإن تكن السنة من عمرك فإن الله تعالى سيؤتيك في كل غد جديد ما قسم لك، وإن لم تكن السنة من عمرك فما تصنع فيما ليس لك، ولن يسبقك إلى رزقك طالب، ولن يغلبك عليه غالب ولن يبطئ عنك ما قدر لك" (1)

جاء في هذا النص أحد عشر فعلاً مضارعاً (تطلبه، يطلبك، لم تأتِه، فلا تحمل فإن تكن، سيؤتيك، وإن لم تكن، فما تصنع، ولن يسبقك، ولن يغلبك، ولن يبطئ) هذه الأفعال المثبتة أو المنفية مع سياقاتها أنتجت موعظة بليغة لمن استيقن بالله ومن كانت مرجعيته الإسلام، فالأفعال في المضارع جاءت مساوقة للفكر الإسلامي في أبعاده الدنيوية والآخروية، فالرزق يأتي صاحبه إذا كان الله قد قدره له، ولن يأتيه إن لم يكن من نصيبه فما له يعنيه مالا يعنيه، فإن كانت السنة من عمره فإن رزقه سيأتيه كل يوم ولن يسبقه سابق إليه، ولن يغلبه مغالب له عليه، ولن يبطئ عنه ما كان من نصيبه، وإن فمقاساة الهم من أجل الرزق من غباء البشر، وكل العلماء والعظماء ينظرون إلى الرزق بهذا المنظار وها هو أبو العلاء المعري يجمل كل ما مضى في بيت شعر واحد

سيطلبني رزقي الذي لو طلبته لما زاد والدنيا حظوظ وإقبال (2)

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 290.

(2) أبو العلاء المعري - ديوان سقط الزند - دار صادر بيروت د. ط 1980 ص: 233.

وهكذا نرى ان الحكمة واحدة مهما تبدلت الأزمان والأمكنة، مع بقاء المرجعية الإسلامية منها للمرتادين.

ومن الأفعال التي جاءت في المضارع كأسلوب للمحاجة قوله رضي الله عنه مخاطبا جيشه المتخاذل عن قتال أهل الشام " ما تكفونني أنفسكم، فكيف تكفونني غيركم، إن كانت الرعايا قبلي لتشكو حيف رعاتها وإنني اليوم لأشكو حيف رعيتي، كأني المقود وهم القادة أو الموزع وهو الوزعة"⁽¹⁾، لقد وردت أربعة أفعال على صيغة المضارع وهي على ثلاثة أنواع فعل منفي، وفعلين مؤكدين بلام التوكيد، وفعل مسبوق باستفهام إنكاري، ففي قوله (ما تكفونني أنفسكم فكيف تكفونني غيركم؟) حجة تهكمية ساخرة عمل على إبرازها نفي الفعل الأول (وما تكفونني أنفسكم) وذلك بعصيانهم إياه وعدم الامتثال لأوامره، ثم يعقب بالفعل المسبوق بالاستفهام الإنكاري (فكيف تكفونني غيركم؟) والحجة هنا واضحة فمن لا يكف أذاه من نفسه عن غيره كيف له أن يكف أذى غيره عن الشخص نفسه، فهذا محال في القياس العقلي، وأما الفعلان المؤكدان الواردان في قوله " إن كانت الرعايا قبلي لتشكو حيف رعاتها وإنني اليوم لأشكو حيف رعيتي" فهي حجة له على استقامته واعوجاجهم وعمله بالحق وازورارهم عنه، حتى أصبح غريبا في نظر نفسه، إذ كيف كانت الرعية قبل حكمة تخاف حكامها، ولما قام فيهم بالحق والعدل، عدلوا عن طاعته والائتمار بأوامره، كما بدا له كأنه المقود وهم القادة وهو الموزع وهم الوزعة والملاحظ أنه استعمل اسم المفعول واسم الفاعل في الجملتين، للدلالة على استحكام تمردهم عليه في كل حال لأن اسم الفاعل واسم المفعول، يدلان على حدث من الموصوف أو على الموصوف على وجه الحدوث والتجدد⁽²⁾ ومن هنا فهما يشبهان الفعل الذي يدل على الحدث والتجدد، وهو ما كان ملازما لسلوك أصحاب الإمام علي خلال الفترة الأخيرة من حكمه.

ومنه في الحكمة قوله " الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك، على الكذب حيث ينفعك، وألا يكون في حديثك فضل عن عملك، وأن تتقي الله في حديث غيرك"⁽³⁾ فمن

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 283.

(2) ينظر: مصطفى الغلابيني- جامع الدروس العربية- دار الكتب العلمية بيروت ج 1 ط 4 2002 ص: 134-137.

(3) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 293.

التوجيه الإقناعي في هذه القطعة استعمال المضارع الدال على التجدد في الحاضر والمستقبل وقد وردت منه خمسة أفعال وهي (تؤثر، يضرك، ينفعك، يكون، تتقي) والملاحظ أن ثلاثة منها جاءت مؤكدة (أن تؤثر الصدق، وألا يكون في حديثك... وان تتقي الله) وحجية هذه الأفعال تأتي من وجهين، فالأول دلالتها على الحدث مع الزمن، والثاني تأكدها والفعالان الواردان في قوله (... حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك) فبالإضافة على دلالاته المتجددة فهي مؤكدة معنويا بـ (حيث الظرفية) لأن معنى الكلام أن تلزم الصدق في كل مكان أو زمان ولو كان في صدقك ما يعود عليك بالضرر، وفي كذبك ما يعود عليك بالمنفعة؛ لأن الصدق من الأخلاق الإسلامية الفاضلة، بل هو من الأخلاق الإنسانية العامة عند كل الأمم وهو تاج على رؤوس أصحابه، وأما الكذب فهو آفة الإنسان، والمسلم لا يكون كذابا، وهو خلق تزمه أيضا كل الفلسفات الأخلاقية في العالم.

ومن إستراتيجية الخطاب باستعمال المضارع ما قاله في شأن استخلافه وما كان يرجو منهم وما كانوا يرجونه منه " لم تكن بيعتكم إياي فلتة، وليس أمري وأمركم واحدا إني أريدكم الله وأنتم تريدونني لأنفسكم، أيها الناس أعيونني على أنفسكم، و أيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزامتة، حتى أوردته منهل الحق وإن كان كارها" ⁽¹⁾ أراد من خلال هذا النص توجيه الناس الوجهة الصحيحة التي من أجلها قبل الخلافة متوسلا الأفعال في المضارع لإيصال رسالته وقد بدأ الفكرة الأولى بفعل مضارع منفي في قوله (لم تكن بيعتكم لي فلتة) فقد نفى أن تكون بيعته ليست لها تبعات، منبها إلى أنه لاحظ سلوكهم فإذا أمره غير أمرهم، فهو يريدهم الله وهم يريدونه لأنفسهم، ومعنى ذلك أنه يشرق وهم يغربون، هو يريد رعية تتحكم فيها المرجعية الإسلامية الشاملة، حيث العدل والحق والصواب، وهم يريدون منه غض الطرف عن أشياء، وإيثارهم أو بعضهم بمناصب أو بأموال بغير استحقاق، وهو ما يتأباه عليه الإسلام، وإذن فهو يريدهم للدار الآخرة، وهم يريدونه للحياة الدنيا وشتان بينهما وقد بين هذه الفكرة بالفعلين الواردين في قوله (أريدكم الله وأنتم تريدونني لأنفسكم) ولما بين لهم

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 169.
خزامتة: الخزامة وهي حلقة من شعر توضع في أنف البعير ويوضع فيها الحبل و يقاد بها.

الوجهة الصحيحة التي ينويها لهم، طالبهم بإعانتته على إنفاذ أمره، والكف عما يريدون، والاستمساك بالحق، متوسلا أفعال المضارع في قوله أعينوني على أنفسكم وايم والله لأنصفن المظلوم من ظالمه، ولأقودن الظالم بخزامتته حتى أوردته منهل الحق ولو كان كارها، فبدأ في مطلع هذا المقطع لين الخطاب (أعينوني) ثم استولت عليه سطوة العدل والحق فأكد الفعلين التاليين بلام الابتداء ونون التوكيد الثقيلة (لأنصفن المظلوم.... ولأقودن الظالم) على إمضاء حق الله فيهم وذلك بأخذ حق المظلوم من ظالمه مهما كانت مكانته، والأخذ على يد الظالم والتضييق عليه حتى يقر بالحق، أو يورده عنوة وإن كان كارها ومن تصميمه على ذلك اعتماده (حتى) التي للغاية في قوله (حتى أوردته منهل الحق) وهكذا يتبين لنا اعتماد الإمام علي على وسائل إبلاغية متعاضدة لتبين مقصديته من الخطاب.

ومن المضارع ما يتبوأ بؤره النص فمنه وإليه تعود كل الحركات والأحداث في الخطاب لأنه مناط ما يأتي بعده وسبب فيه من ذلك قوله في الوعظ والإرشاد "أوصيكم بتقوى الله الذي أعذر بما أنذر واحتج بما نهج، وحذركم عدوا نفذ في الصدور خفيا، ونفت في الآذان نجيا، فأضل وأردى، ووعد فمنى، وزين سيئات الجرائم، وهون موبقات العظام حتى إذا استدرج قرينته واستغلق رهينته، أنكر ما زين، واستعظم ما هون وحذر ما هون"⁽¹⁾ فمفتاح النص جملة المضارع (أوصيكم بتقوى الله) فتقوى الله حسب المرجعية الإسلامية هي الوسيلة والغاية في آن واحد؛ فهي وسيلة لإرضاء الله وغاية لأنها منتهى العبادة، ولا تكون كذلك إلا بالامتثال له، والامتثال له يكون - حسب النص - بما أمر وسن فقد أعذر إلينا بما اندرنا به من العقوبة إن لم نمثل لما أمر، واحتج علينا بما نهجه من أوامر ونواهي، وبما حذر من كيد إبليس، عدو بني آدم الأزلي، هذا العدو الذي ينفذ في الصدور بخفة وخفاء، ويوسوس في الأنفس حتى إذا استدرجها حيث يريد وسد عليها كل الطرق، أنكر عليها أن يكون قد زين لها ما استقبحه الله أو هون ما استعظمه الله وحذر منه، وقد توسل العرض بأفعال بين المضارع والماضي، إذ استعمل المضارع كوسيلة لاستدعاء الماضي، لأن التوصية بتقوى الله، يستلزم إيضاح موجبات هذه التقوى، ولما

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 140.
نجيا: النجي من تناجيه، استغلق: استغلقه لم يجعل له خيارا في رده.

كانت موجبات التقوى سابقة في الوجود الشرعي على الدعوة إليها، أو ردها بصيغة الماضي ليتناسب ذلك مع المنطق العقلي، إذ الحاضر مبني على الماضي في كل ما ينتاب الإنسان من حوادث ولا يكون التكيف إلا بمراعاة ما سبق لمن أرادته إيجابيا، ومن أرادته سلبيا تنكب الماضي في الحاضر فتفرقت به السبل المختلفة.

إن مما جعل الإمام علي على توسل المضارع أسلوبا في كثير من نصوصه هو ما كان يراه من طفرات في سلوك الناس تبتعد بهم رويدا رويدا عن سبل الحق ونهج الصواب، وهو ينأى بهم عن ذلك ويأباه، فكل سلوك يفارق الإسلام في جوهره يريكه ويولجه عالم الاغتراب، أو لنقل يمعنه في الإحساس بالاغتراب، وما أكثر ما كان ذلك، لأنه من الرعيل الأول من المهاجرين والأنصار، الذين كان سلوكهم إسلاما محضا، فلما فتحت البلدان، ومصرت الأمصار، ودخلت الأجناس المختلفة في الإسلام بالإضافة إلى الأعراب، خف الوازع الديني عند أغلب الناس، بل وتهافت كثير منهم على الدنيا واتخذوها مقرا ومستوطنا كأنها خالدة وأغفلوا ما زجروا عنه وما أوعدهم به الله من العذاب والنكال، فكان يأسى لذلك ويتألم، نتيجة التناقض القيمي بينه وبينهم وعجزه عن تقويمهم بعصيانهم له ومخالفتهم إياه فيما يأمر ويرى.

3. في الأمر:

يلحظ القارئ لنهج البلاغة ظاهرة ورود أفعال الأمر بكثرة في نصوصه، وهي ظاهرة تسترعي الانتباه، وتحتاج إلى تفسير، وإذا علمنا أن صاحب نهج البلاغة كان خليفة للمسلمين وعلماء من أعلامها في العلم والدين، أمكننا على ضوء ذلك تفسير هذه الظاهرة، فمن ذلك قوله في الوعظ والإرشاد " أفيضوا في ذكر الله فإنه أحسن الذكر وارغبوا فيما وعد المتقين فإن وعده أصدق الوعد، واقتدوا بهدي نبيكم فإنه أفضل الهدى، واستنوا بسنته فإنها أهدى السنن، وتعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص، وإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله، بل الحجة عليه أعظم، والحسرة له ألزم، وهو عند الله ألوم"⁽¹⁾ إن الأفعال (أفيضوا، وارغبوا، واقتدوا واستنوا، وتعلموا، وأحسنوا) كلها أفعال أمر، وعلى الرغم من أنها صادرة من الأعلى إلى الأدنى فإنها جميعاً تدل على النصيحة والإرشاد، لأن الخليفة ليس منصباً سياسياً فحسب، ولكنه كذلك مع إضفاء الصبغة الإسلامية على سلوكه وحكمه، وها هو يرشد عباد الله وينصحهم باستعمال الأمر وهو من أكثر أدوات اللغة إبلاغية في هذا المجال، والملاحظ في هذه الموعظة أنه استعمل إلى جانب فعل الأمر، أفعال التفضيل للمبالغة في الإرشاد والنصح حتى ليتخيل المرء أن الأمر حقيقي وهو من أسمى درجات البلاغة، وقد جاءت أفعال التفضيل كأنها مؤكدة للأفعال من مثل (فإنه أحسن الذكر... فإن وعده أصدق الوعد... فإنه أفضل الهدى... فإنه أهدى السنن... فإنه أحسن الحديث... فإنه أنفع القصص...) وقد جاءت (أفعل التفضيل) كلها مسبقة بان التوكيدية، التي تبين حرصه على أن ينتفع الناس بوعظه من مثل قوله (فإنه أحسن الذكر، فإن وعده أصدق الوعد، فإنه أفضل الهدى، فإنها أهدى السنن، فإنه أحسن الحديث... فإنه ربيع القلوب... فإنه شفاء الصدور... فإنه أنفع القصص) وهكذا كانت إبلاغية الأمر مشفوعة بأفعل التفضيل و (إن) التوكيدية، من أسمى أدوات النصيحة والإرشاد التي حرص عليها رضي الله عنه عند إهدائه لها لمن وعاهها، وقد ختم هذه الموعظة ببيان العامل بغيره علمه ومصيره عند ربه فقال (وإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 159.

جهله) فتأكيد الجملة الأولى بـ (إن) وتشبيهه بالجاهل الحائر واستعماله لأفعل التفضيل في قوله (بل الحجة عليه أعظم، والحسرة له ألزم وهو عند الله ألوم) لتدل على النصح والإرشاد أيضا لمن طابق حاله حال من وصف.

ومنه قوله في الوعظ "فاتعضوا عباد الله بالعبر النوافع، واعتبروا بالآي السواطع وازدجروا بالنذر البوالغ، وانتفعوا بالذكر والمواعظ"⁽¹⁾ والملاحظ هذا الاتساق العجيب بين أفعال الأمر ومتعلقاتها في هذه الفقرة، ففعل اتعضوا تناسبه العبر النوافع وقد جاءت على صيغة منتهى الجموع لكثرتها كثرة توجب الاتعاض، وفعل اعتبروا تناسبه الآي السواطع وقد جاءت مبنية على صيغة منتهى الجموع فما أكثر الآيات لمن أراد الاعتبار وتقصي الأقدار، وحقائق البشر بين الأخيار والأشرار، وفي كل عبر، وأما فعل (ازدجروا) فيناسبه تماما لفظ النذر، لأن النذر لا تستعمل إلا في الإنذار بالمكروه والعذاب، وازدجروا بمعنى كفوا بسرعة وانقمعوا، والنذر البوالغ هي الواضحة الشديدة الوضوح، المبلغة لكم غاية التبليغ بما يجري أمامكم من أحداث وما أنذر به القرآن من مصارع الأقدمين، وما هي من الظالمين ببعيد فإذا أتينا إلى الجملة الأخيرة (وانتفعوا بالذكر والمواعظ) وجدنا التناسب نفسه بين (انتفعوا) ومتعلقاته (الذكر والمواعظ) والذكر بمعنى التذكر والاعتبار، وقد يكون بمعنى ذكر الله كالتسبيح والتهليل والمعنى الأول (أقوى لأن الانتفاع يحصل نتيجة التفكير في آلاء الله حتى إذا اطمأنت القلوب ولانت جنحت للعبادة، وما قيل عن الذكر يمكن أن يقال عن المواعظ، فالموعظة تحصل بالتفكير أولا حتى إذا استلانتها النفوس ووقعت منها الموقع الحسن اتعظت عندها واطمأنت.

ونجد في بعض الأحيان جملة فعل الأمر هي بؤرة النص، فإليها ترجع كل المعاني والأفكار، كما هو الشأن مع باقي أدوات التعبير الأخرى التي تحوز المزية نفسها، والأمر في ذلك يعود إلى السياق في الخطاب الأدبي ومن أمثلة تبوئ جملة الأمر بؤرة النص قول الإمام علي لعمار بن ياسر وقد سمعه يراجع المغيرة بن شعبة كلاما حيث قال له: "دعه يا عمار، فإنه لم يأخذ من الدين إلا ما قاربه من الدنيا، وعلى عمد لبس على نفسه،

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 143.

ليجعل الشبهات عاذرا لسقطاته"⁽¹⁾ ففي دعوته لعمار ترك المغيرة بن شعبه (دعه يا عمار) هي مناط الحديث والفكرة الأساسية التي نما من خلالها النص، لماذا؟ لأن المغيرة لم يأخذ من الدين إلا ما داناه من الدنيا ولبس عمدا على نفسه، ليتخذ الشبهات عذارا لأخطائه، ولذلك فهو حري بأن يترك وأن لا يجادل أو يحاور.

ومن هذا النمط قوله في الوعظ "أيها الناس، اتقوا الله ، فما خلق امرؤ عبثا فيلهو، ولا ترك سدى فيلغو، وما دنياه التي تحسنت له بخلف من الآخرة التي قبحها سوء النظر عنده، وما المغرور الذي ظفر من الدنيا بأعلى همته كالآخر الذي ظفر من الآخرة بأدنى سهمته"⁽²⁾ بدأ هذا النص بتببيه الناس عن طريق النداء، ثم انتقل فيه الإمام علي إلى توجيه الأمر لهم في قوله : (اتقوا الله) فجملة الأمر هنا هي نبراس النص، ومفتاحه، ومنه تلاقت وتوالت الأفكار والمعاني، فتقوى الله توجب الاعتبار، ومن الاعتبار والعظة أن يعي الإنسان أن الله ما خلقه للهو واللعب، ولم يتركه هملا يعيش بلا ضوابط كالأنعام، وما دنياه التي تبهرجت بالزينة بمغنية عن الآخرة التي قبحها سوء نظره إليها؛ لقلة عقله، وليس المغرور الذي نال من الدنيا أعلى ما تبتغيه الأنفس، بشيء إزاء الإنسان الآخر الذي أثر الآخرة لأن أدنى ما يناله في آخرته لا يساويه أعظم ما ناله الآخر من الدنيا في عز بهجتها وفتنتها وإذا أمعنا النظر وجدنا أن فعل (اتقوا) هو الركن الأساس الذي يبنى عليه النص، لأن التقوى كلمة جامعة للأوامر والنواهي في المرجعية الإسلامية، فإليها يرجع الاعتبار في أن الإنسان لم يخلق عبثا ولا ترك سدى، وما دنياه بمعوضة إياه عن آخرته مهما نال من مباحها.

ومنها قوله في التخويف من أهوال القيامة "واعلموا أن مجازكم على الصراط ومزالق دحضه، وأهاويل زلله، وتارات أهواله، فاتقوا الله عباد الله تقية ذي لب شغل التفكير قلبه، وأنصب الخوف بدنه، وأسهر التهجد غرار نومه، وأظمأ الرجاء هواجر يومه وظلف الزهد شهواته، وأوجف الذكر بلسانه، وسلك أقصد المسالك إلى النهج

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق- ص: 291.

(2) المصدر نفسه ص: 289.

المطلوب، ولم تفتله فاتلات الغرور...." (1) يبدأ النص بفعل الأمر (اعلموا) الذي يستوجب الإصغاء إليه والأخذ به؛ لأنه جاء من إمام في العلم، وقائد في السلم والحرب، وقد حباه الله بالعلم والمعرفة، ولما أن بوّاه الله صدارة هذه الأمة حين تولى الخلافة كان عليه أن ينصح ويرشد، وقد فعل، فماذا يريد أن يعلمه المتلقي؟ يريد أن يعلم بان مجازه على الصراط وعبره عليه محل لزلل الأقدام ومشاهدة رعب أهواله وانتقاماته ممن عمل غير صالح، ولما كانت هذه عقوبات من تأخر به عمله أرشد إلى اتقاء هذه الأهوال بنصائح جمة، بدأها بالأمر فاتقوا الله عباد الله والتقوى كلمة جامعة لكل خير؛ فهي تنهى عن الشر وتأمّر بالخير، وفعل الأمر (اتقوا) هو مصدر ومورد الحقائق العلمية العملية، فكيف تكون حقيقة هذه التقوى يا ترى؟ إنها ترغيب في تقوى تشغل الفكر بالتفكير في آلاء الله وأنعمه، وإنذاره وعقابه، تحمله - خوفا وطمعا - على التهجّد تقربا لله ورغبة مما أعدّه لأوليائه، ورهبة مما أعدّه لأعدائه، فلا يكاد يفتر عن عباداته (قيام الليل، والصيام، والزهد في الدنيا) حتى يوقظه الفكر في المعاد، ومصائر العباد، بعد رحلة الحياة الشاقة، فينتفض انتفاضة السليم ويواصل ويتدارك ما فاتته من العمل الصالح، فيلهج لسانه بالذكر، ويقدم الخوف على ما سلف منه من عمل غير زكي أو تقاعس عن أمر أو عن إتيان منهي عنه، فيسلك نهج الله القويم، ليوصله في أقل زمن إلى المبتغى، فتتفطم نفسه عن كل حرام وعن كل إسراف، حتى تحقق ما أراده الله لها من الكرامة الباقية والرحمة الواسعة ويمضي على السياق نفسه في هذه الموعظة التي نعتبر أن جملة الأمر فيها هي بؤرة التأثير ودائرة الإشعاع على سائر كلام الفقرة يقول "فاتقوا الله تقيه من سمع فخشع، واقترب فاعترف، ووجل فعلم، وحاذر فبادر، وعبر فاعتبر، وحذر فحذر، وزجر فازدجر، وأجاب فأناب، وراجع فتأب، واقتدي فاحتذى، وأوري فرأى، فأسرع طالبا، ونجا هاربا، فأفاد ذخيرة وأطاب سريرة، وعمر معادا واستظهر زادا ليوم رحيله ووجه سبيله، وحال حاجته، وموطن فاقتته، وقدم أمانه لدار مقامه فاتقوا الله عباد الله جهة ما خلقكم له، واحذروا منه كنه ما حذرکم من نفسه، واستحقوا منه ما أعد لكم بالتجنز لصدق ميعاده،

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 139. دحضه: دحضت رجله زلقت غرار: الغرار قليل النوم، الهواجر: نصف النهار، ظلف: ظلفه أخذه كله. تنكب: تنكبه نحاه، ومال عنه، المخالج: خلج أي جذب وشغل. تفتله: قتله صرفه، والفتيل حبل دقيق من ليف.

والحذر من هول معاده"⁽¹⁾ ينحو في هذا المقطع سبيله في المقطع السابق فها هو ذا يستفتح بالدعوة إلى التقوى عن طريق الأمر (فاتقوا الله) وهي قطب الرحي- جملة الأمر- ثم حدد ملامح هذه التقوى ليكون المتلقي على بصيرة من أمره، إنها تقوى رجل سمع المواعظ فخشع لها، فعمل بها فلما خشع أقر بذنوبه، وإذ أقر بذلك فقد خاف على نفسه الهلاك، ولما خاف بادر العمل، وحاذر ما حذر منه فأسرع إلى الطاعة، وأيقن بالمعاد فأحسن العمل، وأندرته العبر فاستعبر واعتبر فمال نحو العمل الصالح، وحذر فأخذ الأهبة وزجر عن الخطايا فامتنع وكف، وأجاب دعوة الداعي إلى الله فتأب عن ذنوبه وراجع نفسه فاقلع عما يغضب الرب سبحانه وتعالى، واقتدى بأهل التقوى فأحسن الاقتداء، وأرى من الحجج ما جعله يسلم بالله ربا وبالإسلام ديناً وبالععمل برهاناً، لذلك أسرع طالباً للنجاة هارباً من خطايا معتزلاً رزايه في دينه؟ فاستفاد عملاً إدخره ليوم مياعده، فأطاب سريرته بالنية الصادقة، وعمر معاده بالعمل الصالح مبادراً، واستظهر زاد الطاعة ليوم أوبته وحيث مقصده، وهنا نلاحظ هذا الإلحاح على يوم الرحيل ومكانه بتكرار المعنى بجمال شتى ليوم رحيله، ووجه سبيله، وحال حاجته، وموطن فاقته، وقدم أمامه لدار مقامه، وهذا التكرار سبيل من سبل محاولة إقناع المتلقي ليتقي ما حذر وأندر، ثم يعود إلى فعل الأمر فاتقوا الله عباد الله جهة ما خلقكم له (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريدان يطعمون)⁽²⁾ واحذروا ما حذركم من نواهي، وما أكثرها (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)⁽³⁾ (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)⁽⁴⁾ وكونوا أهلاً لما أعده لكم حتى ينجزه لكم عاجلاً، وكونوا على وجل من هول ما أوعدكم به تتجوا بإذنه.

وهكذا نرى أن السرد بالماضي ولد من رحم الأمر؛ لأنه مركز الدفع والقوة في بناء النص.

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 137-138.

(2) سورة ق الآية 56-57.

(3) سورة البقرة الآية 189.

(4) سورة النساء الآية 42.

والملاحظ أن الأمر في خطابات الإمام علي جاءت على خليفة ما كان يراه من إصراف الناس على أنفسهم أو التقصير فيما أوجبه الله على عباده من أوامر ونواه، أو الاضطراب في السلوك اليومي للأفراد والجماعات مما يخالف كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وكان هذا السلوك يشعره بالغربة والاغتراب، فالمسلم الحق؛ وقاف عند حدود الله، فإن هو جاوزها عد من الذين زاغوا عن الهدى الصحيح، وكان ذلك يؤلمه ويحز في نفسه، لأنه يريد أن يحملهم على ما حمل نفسه عليها من الجد والاجتهاد وتمثل الإسلام في كل سلوك، فإذا رأى في غيره ما يسوؤه داهمه الاغتراب، فقام بما يجب عليه من النصح والإرشاد، لأن من شأن ذلك أن يرد إليه بعض الاتزان ويقويه في نفسه، تماشيا مع ذاته الأصيلة التي تتأبى عليه قبول ما يخالف الصواب والحق، وإن ارتضاه غيره لنفسه - لأن في ذلك تزييف للذات، والتزييف معناه الوقوع تحت تأثير الحشد والانصياع للحشد فقدان للحرية، وفقدان الحرية مظهر من مظاهر الاغتراب.

د. النهي:

اعتمد الإمام علي كثيرا على النهي كإستراتيجية في خطاباته، والنهي قرين الأمر، وغايتهما واحدة؛ فالأمر يتوسل به إلى إتيان الفعل لأهميته والنهي يتوسل به إلى عدم إتيان الفعل لقبحه، ومنافاته للحق والصواب.

ولما كان رضي الله عنه في فترة كثر فيها الهرج والمرج، والفتن والشبهات، وهو قائد الأمة لم يجد بدا من استعمال هذا الأسلوب في الإقناع والبيان، حتى يستبصر الناس وحتى يتبين له الناصح الشفيق، والخاذل المفارق، ولما كان يصدر عن المرجعية الإسلامية فقد كان يرغبهم في الخير وينفرهم من الشر، وكان الأمر خليقا وسفيرا للخير، وكان النهي وسيلة للردع عن الشر وإبعاده أو التنفير منه والتحذير منه.

وقد لاحظنا في النصوص التي بين أيدينا أن الإمام علي يعتمد أحيانا إلى تكرار النهي في النص الواحد عدة مرات، وفي أحيان أخرى يجعل النهي الواحد مركزا لخطابه، فإليه تعود كل المعاني والأفكار المثبتة في نسيج النص.

فمن الأول قوله يخاطب جيشه قبل بدء وقائع صفين " لا تقاتلوهم حتى يبدوؤوكم، فإنكم بحمد الله على حجة، وترككم إياهم حتى يبدوؤوكم حجة أخرى لكم عليهم، فإذا كانت الهزيمة بإذن الله، فلا تقتلوا مدبرا، ولا تصيبوا معورا، ولا تجهزوا على جريح، ولا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم..."⁽¹⁾ فهذه الفقرة تكشف عن سلوك الفرسان الشجعان الذي يمتاز به رضي الله عنه تؤازره في ذلك تعاليم الإسلام السمحة فقد بدأ بنهي جيشه عن المبادرة إلى القتال؛ لأنهم أهل حق وليسوا أهل بغي، وهذه حجتهم على أهل الشام، وترك أهل الشام بإشعال المعركة حجة أخرى لهم على بيان عدوانهم وبغيهم، وهذه حجة ثانية على استقامتكم وضلالهم، ثم يورد بعد ذلك نواهي متكررة حين تنهزم جيوش الشام فلا انتقام للنفس، لأن ذلك مما يجافي حقائق الدين القويم، إذن فلا قتل للمدبر، ولا لمن كان هدفا سهلا للقتل أثناء الانهزام، ولا إجهاز على جريح وقتله، ولا التفات إلى صراخ النساء بالسباب والشتائم، لأن الغاية كل الغاية هي محاولة

(1) نهج البلاغة تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 199.
معورا: المعور: الفارس بدا فيه موضع خلل للضرب، تجهزوا: أجهز: أسرع إلى القتل.

إرجاع هؤلاء الناس إلى جادة الصواب فلا نصيب للشيطان ولا للنفس فيما يحدث ويقع، بل إن الحق والحق وحده هو الفيصل في هذا الموضوع، وهكذا تتبين لنا إستراتيجية التوجيه السامية عن طريق توسل النهي طريقة إلى ذلك، وما أجدرها من طريقة وأجلها في إحقاق الحق وإبطال الباطل.

ومن تكرار النهي أيضا ما ورد في قوله رضي الله عنه " لا يرجون أحد منكم إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحين أحد منكم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم ولا يستحين أحد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه..."⁽¹⁾ عندما نمعن النظر في هذه الجمل التي دخلت عليها لا الناهية وأكد فعلها بنون التوكيد الثقيلة، نجد أن كل جملة منفصلة عن الأخرى من حيث معناها ولا مناسبة بينها وبين الأخرى إلا الاشتراك في النفي، ولما كان الإمام علي يصدر في كلامه عن روح الإسلام الأصيلة، فأنا نجد ظلال ذلك في هذه المقطوعة بوضوح، ففي الجملة الأولى (لا يرجون أحد منكم إلا ربه) حقيقة إسلامية ردها القرآن الكريم كثيرا كما السنة، لأن مضمونها من حقائق التوحيد التي يجب أن يعلمها كل مسلم، فالنفع والضرر ليسا بيد أي مخلوق، وإنما مصدرها الله، وما يبدو سببا ظاهرا في ذلك، إنما هو أداة ووسيلة لإيصال النفع أو الضرر لا غير، وإذن فإن يرجو الإنسان الخير أو دفع الضرر ما عليه إلا الالتجاء إلى بارئه سبحانه وتعالى: الذي بيده ملكوت كل شيء ولا رب سواه ولا معبود إلا إياه، فتوحيد الألوهية وتوحيد الربوبية عند أهل الحقيقة ينفيان الالتجاء إلى غيره أو الاستعانة بما سواه، وقد أكد فعل (يرجون) بنون التوكيد الثقيلة إمعانا في تأكيد حقيقة الرجاء؛ وأنه لا يكون إلا ممن يقول للشيء كن فيكون، وتلك حقيقة التوحيد.

وأما الجملة الثانية (ولا يخافن إلا ذنبه) فهي في مضمونها من الحقائق الإسلامية التي يجب أن يتمثلها كل إنسان مسلم، ومن المسلم به أن الإنسان يخاف خلال حياته من أشياء وجهات كثيرة، ولكن هذا الخوف سرعان ما يزول بزواله سببه أو أسبابه، وهو خوف دنيوي يمتلك ويمتلك معظم المسلمين ولا يتجاوزه إلا المتحققون من أولياء الله الصالحين، وهم بين الناس كالغراب الأعصم في كل ألف نجد واحدا في أحسن الأحوال،

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق، صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 265.

أما الخوف الذي يؤكد عليه الإمام علي؛ فهو الخوف من الذنوب التي يرتكبها الإنسان في حق الله وفي حق عباده، وهي لا تسقط بالتقادم، ولا بزوال دوافعها أو بموت من كان مستهدفا بها، لأن الذنب لا ينسى والديان لا يموت، والجزاء من جنس العمل، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها، وبما أننا بصدد الحديث عن الذنوب، فإن المحاسب عليها بصير وعباده خبير، وقد تعجل العقوبة في الدنيا، ويلقى مثلها في الآخرة، أو تجمع له كلها في الآخرة، وحيث لا درهم هناك ولا دينار، وإنما هي حسنات وسيئات، فما أجدر بالمسلم أن يحذر الذنوب صغيرها وكبيرها لأن القاضي حكم عدل وجهنم دركات، والجنة درجات فلينظر كل امرئ أين يضع نفسه، ولا يحقرن من الذنوب شيئا، فإن إبليس أخرج من الجنة ملعونا بذنب واحد، وآدم أخرج هو الآخر منها بذنب واحد وتلك هي حقيقة المراقبة.

وإذا أتينا إلى الجملة الثالثة (ولا يستحين احد منكم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم) ومحملها من حقائق الإسلام فإذا علم أجاب، وإن لم يعلم وقال: لا أعلم فقد أجاب، ولا تحمله النفس الأمانة بالسوء أن يجيب فيخطئ فيهلك ويهلك غيره، فإن كان السؤال في الدين فقد يضل ويضل، وإن كان في أمور الدنيا فقد يهلك ويهلك غيره باستشارة كاذبة خاطئة قد تؤدي إلى ويلات كبيرة، وإن فكل إنسان سئل فأشكّل عليه الأمر فإن له في كلمة لا أعلم مخرجا مشرفا، وذلك من حقائق الإيمان وهو الصدق.

وإذا جئنا إلى الجملة الأخيرة (ولا يستحين أحد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه) فإن محمولها من فضائل الإسلام، فالعلم بحر والمتحققون فيه قلة ومن علم شيئا غابت عنه أشياء، ومن علم أشياء غابت عنه أضعافها، فالمرء يتدرج في المعرفة والعلم تدرجا، يستفيد كل يوم في حياته جديدا، ووسيلته في ذلك التعلم والسؤال، والبحث ولولا ذلك لما تقدم الإنسان خطوة في العلوم الشرعية أو البشرية، وكل العلماء الجهابذة يشكون من قلة علمهم وقلة حيلتهم وهم على صواب وفي كل يوم جديد، جديد يبحث عن الشرح والتوضيح، وفي كل يوم جديد حدث يحتاج إلى فحص وتحلية، وسبل العلم بعد كل هذا كثيرة فمن جرى في مجال كبا في آخر، ومن سبق في مضمار وقف في آخر، وإن فمن العيب أن يستحي الإنسان حين لا يعرف أن يسأل من يعرف ليستتير بفكره وعلمه وتلك حقيقة التواضع.

وقد يتساءل القارئ ما علاقة هذا الكلام بالاغتراب عند الإمام علي؟ وهو تسأول وجيه، والإجابة مبثوثة في حياة الإمام علي وما عاناه من رعيته، بقصد أو بغير قصد، فهناك من الناس في عهده- وفي كل العهود- من يرجو العباد وما عندهم ويغفل الله وما عنده، وهناك من لا يلقي بالا للذنوب مهما عظمت، وهناك من تأول عليه القرآن وحاربه على غي بينة من أمثال أصحاب الجمل وصفين، والخوارج، وهناك من يفتي بالجهل فيضل الناس بقصد أو بغير قصد، وقد أشار رضي الله عنه إلى هذه الفئة من الناس وحذر منهم حيث قال " إن في أيدي الناس حقا وباطلا، وصدقا وكذبا، وناسخا ومنسوخا، وعاما وخاصا... ولقد كذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على عهده، حتى قام خطيبا، فقال : (من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)" (1) وإن التناقض القيمي- الذي يعد من أوجه الاغتراب عنده- هو الذي حمل على استعمال أسلوب النهي كأداة تقويمية وتوجيهية لإصلاح الناس ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

وأما الطريقة الثانية التي يسلكها في النهي، والتي يجعل فيها جملة النهي الواحدة مناط كل النص أو أغلبه ما ورد في رسالته إلى سهل بن حنيف عامله على المدينة المنورة، حيث بلغته أخبار عن التحاق بعض أهل المدينة بمعاقبة في الشام حيث يقول : "أما بعد فقد بلغني أن رجالا ممن قبلك يتسللون إلى معاوية، فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم ويذهب عنك من مددهم، فكفى لهم غيا، ولك منهم شافيا، فرارهم من الهدى والحق وإيضاعهم إلى العمى والجهل، وإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها مهطعون إليها، وقد عرفوا العدل ورأوه، وسمعوه ووعوه، وعلموا أن الناس عندنا في الحق أسوة، فهربوا إلى الأثرة، فبعدا لهم وسحقا!!" (2) نلاحظ بعد التقديم في هذه الرسالة جملة النهي (فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم، ويذهب عنك من مددهم) وهي مركز النص فيما أعتقد لأن كل ما جاء بعدها من المعاني والأفكار تعود إليها لقد خاطب الإمام علي سهل بن حنيف وأبلغه أن رجالا من أهل المدينة تسللوا إلى الشام ملتحقين بمعاقبة، فنهاه عن

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 191.

(2) المصدر نفسه- ص: 254.

غيا: غوى، ضل، إيضاعهم: أوضع أسرع في سيره، مهطعون: أقطع مد عنقه وصوب رأسه، وأقبل ببصره على الشيء لا يقلع عنه.

الأثرة: الأثرة أن يختار لنفسه أشياء حسنة. سحقا: سحقه دقه وعفى آثاره

التأسف على ذلك. لماذا؟ لأن الإمام علي ينظر إلى الأمور بالمثالية الإسلامية الواقعية، فهو لاء قد فروا من العدل والمساواة، والهدى والحق، فهم إذن ليسوا ممن ينبغي الاعتماد عليهم في إقامة المجتمع السليم السوي، وقد رأوا مظاهره المتمثلة في العدل وعرفوا أن الناس في الحق سواسية، فما راقهم ذلك، لأن معدنهم معدن الجور والميل إلى الاستئثار بما ينفعهم خاصة، فأسرعوا في الفرار إلى الشام حيث الأثرة وقد كان للمصدر إيضاعهم دلالة القوية في إبراز المعنى وتصويره، لأن الإيضاع معناه الإسراع في المشي بخطى طويلة، وهو تعبير عن شدة كراهية ما هم فيه من الحق والعدل، وشوقهم الشديد إلى الأثرة وحظ الدنيا فلما رأوها في الشام سارعوا إليه، كما كان لاسم الفاعل مهطعون إشعاعه الكبير في بيان حرصهم على حب الذات، فالمهطع هو من يجعل الشيء نصب عينيه ثم يسعى إليه سعيا حثيثا، لا يلتفت يمينا ولا يسارا ولا وراء، وكأنما شيء يحده ويخرجه حتى يصل عن قريب، وإذن فهم أهل دنيا، ولما كانوا كذلك فلا خير فيهم البتة، ومن العار أن يتأسف المرء عليهم، فما هم أهل لذلك ولا أقل من ذلك.

ومن هذا النمط أيضا ما نجده في كلام قاله لرجل طلب منه أن يعظه حيث قال له: " لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل، ويرجي التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا بقول الزاهدين، ويعمل فيها بعمل الراغبين، إن أعطى منها لم يشبع، وإن منع منها لم يقنع، يعجز عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي، ينهى ولا ينتهي، ويأمر بما لا يأتي، يحب الصالحين ولا يعمل عملهم، ويبغض المذنبين وهو أحدهم، يكره الموت لكثرة ذنوبه ويقيم على ما يكره الموت من أجله، إن سقم ظل نادما، وإن صح أمن لاهيا يعجب بنفسه إذا عوفي، ويقتط إذا ابتلي، إن أصابه بلاء دعا مضطرا وإن ناله رخاء أعرض مغترا...." (1)

أزعم أن مركز النص هنا هو جملة (لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل) لأن من يرجو الدرجات العلا في الآخرة دون أن يقدم عملا صالحا، حري به أن يرجئ التوبة ويسوف الإنابة، ومن شأن ذلك أن يجعله أكثر في القول مقلا في العمل، يقول في الزهد

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 276-277.

وبالزهد ولا يعمل به، ومن شأن تارك الزهد أن يكون راغبا وعاملا للدنيا، وإذا رغب فيها اشتد بلاؤه، لأنه إن أعطى منها لم يشبع وإن إزورت عنه جزع ولم يقتنع، ومن يجزع لا يمكنه أن يشكر ما أتاه الله قل أم كثر، ويبتغي الزيادة في كل الأحوال؛ وهذا هو الحرص بعينه، ومن أعماه الحرص ضلت به السبيل فنراه ينهي، ولا ينتهي، يخالف قوله عمله، فهو يحب من يأتي الصالحات ولا يأتيها ويكره العاصين وهو رأس الحربة فيهم، لا من لا يرعوي عن غي، لذلك نجده يكره الموت لكثرة زلله، ويقيم على سلوكه لا يريمه، فإن مرض ظل نادما أسفا على ما فرط منه، وإن عوفي مما ابتلي به أسرع إلى اللهو وكأن المعافاة أمان دائم، يختال إن صح له جسم، ويأسى إن مسه سقم، يدعو دعاء المضطرين عند البلاء، ويغفو إغفاء المغترين عند الرخاء: فلو حذفنا الجملة الأولى (جملة النهي) والثانية المعطوفة عليها وقلنا (يقول في الدنيا بقول الزاهدين ويعمل فيها بعمل الراغبين....) لكان الكلام وصفا لشخص ما في زمن ما، أما عندما نحل الجملة الأولى محلها فإن الوصف عندها يتعين ويصبح دالا على شخصية ذات سمات خاصة؛ شخصية إنسان يريد الآخرة بغير العمل... فالأول وصف والثاني نهى الاتصاف بذاك الوصف.

والنهي بعد كل هذا محاولة تقويم لسلوك الناس ارتآه الإمام علي وسيلة توجيهية رشيدة يمكن لمن أخذ بها أن ينجو من شرور النفس وآفاتها ويكشف من جهة أخرى عن التناقض القيمي بينه وبين غالبية مجتمعه.

المبحث الثاني: الألفة بين اللغة والفكر

هناك دائما تساوق بين الفكر والفن في عالم الإبداع الأدبي فالمعاني والأفكار تلبس من الألفاظ ما يناسبها سلبا وإيجابا وتتنوع معها قوة وإيحاء وتناسبا واطرادا، وتقابلا وطباقا، ويمكن للباحث أن يميز ما بين الفكر والمعنى من جهة وبين اللغة من جهة أخرى من علاقات تدل على التآلف بين التجربة الفنية واللغة المعبرة عنها، فقد يجنح المبدع إلى أفاق فكرية رحبة، فيتجرد اللفظ معه، وقد يصور حركة نفسية معينة فيأتي اللفظ موحيا، وقد يتصدى لقضايا خارجية تقتضي الشرح والتقرير فيكون اللفظ حيث كان .

ولما كان العمل الإبداعي تعبيراً عن العالم الداخلي للفنان فإن هذا الإبداع يعتمد أساسا على فهم المبدع أولا، وذلك بجمع كل ما يتصل بحياته وسيرته الخاصة، حتى نتأكد من تميز أسلوبه عن أساليب الآخرين، وإبراز تفرده بميزات وخصائص تختلف عن أساليب سواه لارتباط ذلك بالتكوين الخاص لمبدعه⁽¹⁾ وقد أشرت فيما سلف من الفصول إلى بعض الحقائق الخاصة بشخصية الإمام علي، كما أوضحت تفاعله مع الأحداث المؤلمة التي سادت فترة خلافته والتي كان لها أكبر الأثر في تنوع اغترابه، إن طبيعة التشكيل اللغوي تتناسب طرديا مع نفسية المبدع، مما يجعل فهم الشخصية المبدعة أمرا واقعا، وذلك باستقراء ما يمكن من إبداعه الأدبي "و معنى ذلك أن الأديب حين يعبر عن شخصيته تعبيراً صادقا بحكم اتصاله بالحياة ومعايشة تجاربها، ينتهي به الأمر إلى أسلوب متميز يشتهق من خلال هذه الشخصية"⁽²⁾ ويمكن التوصل إلى ذلك عن طريق الدراسة النفسية المتعمقة للأثر الأدبي، وذلك بربطه بحياة وتجارب المبدع، ومحيطه الاجتماعي والسياسي والنفسي والفكري، ويتجسد ذلك من خلال أدائه الفني الذي يتجسد في اللفظ والعبارة والفقرة والقطعة المكتملة⁽³⁾ ومن هنا يمكن لنا أن نعتبر النص الأدبي وثيقة نفسية بها نستطيع التعرف على ملامح نفسية وأفكار المبدع، كما يمكن الانطلاق من المعلومات الخاصة عن حياة المبدع وتاريخه لنفك بها أسرار النص نفسانيا .⁽⁴⁾

(1) ينظر: د. محمد عبد المطلب- البلاغة والأسلوبية- الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة د.ط 1984- ص 150.

(2) المرجع نفسه- ص 164.

(3) المرجع نفسه- ص 166.

(4) ينظر: عبد السلام المسدي- الأسلوبية والأسلوب- الدار العربية للكتاب تونس ط 1982- ص 200.

وانطلاقاً من هذا الأمر فإنه بمجرد أن يحاول الدارس تسليط أضواء النقد على أدب الإمام علي في وحدات الاغتراب، فإنه يستطيع أن يكتشف تلك الشخصية القائمة على الصراع والتصادم بين قيمه المتمثلة في الوعي بالحرية والعدالة والحق والنزاهة والصدق والصبر والتقوى وما إليها من قيم، وبين المجتمع الذي يعادي أو يتحايّل بطريقة أو بأخرى للقفز على هذه القيم، مما ولد لديه النفور النفسي من مسلك ذلك المجتمع، وتجلى ذلك بالدفاع عن قيمه المثلى بكل شجاعة وإيمان بسلوكه وفي أدبه (خطب، رسائل، وصايا) وأصبحت قيمه حبيسة فكره، وحبيسة أدبه، فلولا أدبه لما عرفنا تمسكه بهذه القيم أو تلك، ولما عرفنا مدى اغترابه في ذلك المجتمع الذي ينكر - أو يكاد - أغلب قيمه مما ولد لديه نزعة الاغتراب التي تعتبر منحى في حياة كثير من الأدباء والساسة والمفكرين العباقر.

و مما لا شك فيه أن المنهج الإحصائي أصبح صاحب اليد الطولى في مجال الأسلوبيات باعتباره نموذجاً للدقة العلمية التي لا تترك مجالاً لذاتية الناقد أو الباحث كي ينفذ إلى العمل الأدبي⁽¹⁾

وعلى الرغم من أن هذا المنطق يرفضه بعض الدارسين في مجال دراسة الأسلوب لإغفاله العلاقات الاجتماعية والنفسية والتاريخية التي يكون المبدع قد تأثر بها⁽²⁾ إلا أننا حاولنا التوفيق بين الرأيين، ففي الدراسة الموضوعاتية قد تعرضت للنواحي الاجتماعية والسياسية والفكرية لاغتراب الإمام علي، وهنا في الدراسة الفنية سنحاول أن نكشف عن أن دراسة الأسلوب ما هو إلا تدعيم لما سبق كشفه في الفصول السابقة.

السلب والإيجاب

لا يوجد أدب دون لغة، فاللغة هي مادة الأدب⁽³⁾ ولما كانت اللغة بتلك الصفة، فإن الأسلوب في الأدب هو كيفية استخدام اللغة⁽⁴⁾ أو هو استخدام خاص للغة تتجلى فيه

(1) ينظر: د. محمد عبد المطلب - البلاغة والأسلوبية - مرجع سابق - ص 136.

(2) المرجع نفسه - ص 139.

(3) ينظر: رينيه ويليك وأوستن وارين - نظرية الأدب - ترجمة محي الدين صبحي - مراجعة د. حسام الخطيب - د. ط 1978 - ص 223.

(4) ينظر: جودت فخر الدين - شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى آخر القرن الثامن الهجري - دار الأدب ط 1984 - ص 198.

شخصية الأديب إذ يتصف كلامه بالفردية إزاء الصفة الجماعية أو المشتركة للغة⁽¹⁾ إذن لابد من وجود ترابط قوي بين مزاج الأديب ولغته، ولنا أن نوضح ذلك من خلال الجداول التي أثبتنا فيها لغة الإمام علي في نصوص الاغتراب، وكان عملنا هو المقارنة بين الألفاظ المثبتة التي استعملها، والتي تحمل معنى الاغتراب وبين الألفاظ السلبية التي تنفي الانسجام بين عدة معطيات، منها شخصية الأديب والتي بدورها تثبت الاغتراب لنفيها الاتساق والانسجام وتكون المقارنة جزئية في الأول ثم تعم بعد ذلك، أي أننا سنقوم بعقد مقارنة بين الألفاظ المثبتة والمنفية أو السلبية (الدالة على الاغتراب) في خطبة واحدة، أو رسالة واحدة، ثم نكرر العملية مع باقي النصوص ثم سنحاول الوقوف على نتائج هذا التحليل والمقارنة والطريقة المثلى هنا هي طريقة الطباق والمقابلة فعن طريقهما يتضح لنا النفي والإثبات دون عناء ومنها يتجلى الاغتراب في وضوح تام، يقول رضي الله عنه في خطبة يستنهض فيها جيشه لرد غارات أهل الشام بعد قصة التحكيم وتلك أصحابه في الاستجابة له "أيها الناس، المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهي الصم الصلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء، تقولون في مجالسكم كيت وكيت، فإذا جاء القتال قلتهم حيدي حيادي ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم أعاليل بأضاليل وسألتموني التطويل، دفاع ذي الدين المطول لا يمنع الضيم الذليل، ولا يدرك الحق إلا بالجد، أي دار بعد داركم تمنعون، ومع أي إمام بعدي تقاتلون؟ المغرور والله من غررتموه، ومن فاز بكم فقد فاز - والله - بالسهم الأخيب، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل، أصبحت والله لا أصدق قولكم، ولا أطمع في نصركم ولا أوعد العدو بكم، ما بالكم؟ ما دائكم؟ ما طبكم؟ القوم رجال أمثالكم، أقولا بغير عمل! وغفلة من غير ورع، وطمعاً في غير حق؟! "⁽²⁾والآن سنميز بين السلب والإيجاب أو الإثبات والنفي لنصل إلى النتيجة.

(1) ينظر: جودت فخر الدين - شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى آخر القرن الثامن الهجري - مرجع سابق - ص 199.

(2) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص 117.
يوهي: يسعق. الصلاب: الصلب الشديد. حيدي حياء: حاد أي مال، والمراد الهرب. أعاليل: تعلل بالأمر تشاغل.
المطول: المطل التسويف، كالمماطلة. أفوق: ميل وانكسار في موضع الوتر. ناصل: أنصل السهم أزال عنه السهم

الجملة الأولى	الجملة الثانية	نوعها	النتيجة 1	النتيجة 2
أيها الناس المجتمعمة أبدانهم	المختلفة أهوائهم	مقابلة	عصيان	اغتراب
كلامكم يوهي الصلاب	وفعلكم يطمع فيكم الأعداء	مقابلة	تناقض	اغتراب
تقولون في مجالسكم كيت وكيت	فإذا جاء القتال قلتم حيدي حيادي	مقابلة	تناقض	اغتراب
ما عزت دعوة من دعاكم	المسكوت عنه (بل ذلت)	مطابقة	مخالفة	اغتراب
ولا استراح قلب من قساكم	المسكوت عنه (بل تعب)	مطابقة	مخالفة	اغتراب
أعاليل	بأضاليل	مطابقة	عصيان	اغتراب
لا يمنع الضيم الذليل	المسكوت عنه (لستم أعزاء)	مقابلة	مخالفة	اغتراب
ولا يدرك الحق إلا بالجد	المسكوت عنه (لستم جادين)	مقابلة	استنكار	اغتراب
أي دار بعد داركم تمنعون	المسكوت عنه (أنتم عاجزون)	مقابلة	استنكار	اغتراب
ومع أي إمام بعدي تقاتلون؟	المسكوت عنه (أنتم غير مبالون)	مقابلة	العجز	اغتراب
المغرور والله	من غررتموه	مقابلة	الخيبة	اغتراب
ومن فاز بكم	فقد فاز بالسهم الأخبب	مقابلة	الخيبة	اغتراب
ومن رمى بكم	فقد رمى بأفوق ناصل	مقابلة	العجز	اغتراب
أصبحت والله لا أصدق قولكم	المسكوت عنه أي أنتم كاذبون	مقابلة	استنكار	اغتراب
ولا أطمع في نصركم	المسكوت عنه (أي أنتم جبناء)	مقابلة	استنكار	اغتراب
ولا أوعد العدو بكم	المسكوت عنه (أي أنتم ضعفاء)	مقابلة	استنكار	اغتراب
القوم رجال	أمثالكم	مقابلة	تعجب	اغتراب
أقولا بغير علم	المسكوت عنه (أنتم جهلة)	مقابلة	استنكار	اغتراب
وغفلة من غير ورع	المسكوت عنه (أنتم حمقى)	مقابلة	استنكار	اغتراب
وطمعا في غير حق	المسكوت عنه (أنتم أنانيون)	مقابلة	استنكار	اغتراب

وباستقراء هذا الجدول الذي يفضي إلى الاغتراب كما رأينا، نجد الأسباب الموجبة لذلك واضحة فأصحابه، يعصون أوامره، ويتناقضون في سلوكهم، وتتناقضهم يشئت كلمتهم وبالتالي يضعفهم وإذا ضعفوا ذلوا، وإذا ذلوا عجزوا وإذا عجزوا أورثوا من عاشرهم الهم والغم وبالتالي الغربية والاغتراب "وأغرب الغرباء من صار غريبا في وطنه، وأبعد البعداء من كان في محل قربه (....) يا هذا الغريب من إذا ذكر الحق هجر...⁽¹⁾ وهم إلى ذلك يخالفون أمره، مخالفة تقضي هي الأخرى إلى الضعف ومنه إلى العجز ومنه إلى الاغتراب، ومن المقابلات السالفة ما يبين الخيبة والعجز عند القوم، ومنها ما يثير الاستنكار عند الإمام علي فتضافرت جهودهم وجهوده فوضع في وضع لا يحسد عليه من الحسرة والألم.

(1) أبو حيان التوحيدى. الإشارات الإلهية- تحقيق وداد القاضي- دار الثقافة بيروت 1973- ص 80.

وإذا أعدنا النظر مرة أخرى في الخطاب السالف نجد أن ظاهرة التفرق هي الغالبة عليه في القول والعمل وعلي يريد أن يرجع الأمور إلى طبيعتها وذلك بالجمع، وللأسئلة أن يسأل كيف ذلك ؟ والإجابة - حسب ما تقتضيها المرجعية الفكرية للإمام علي - هي إرادة الجمع جمع (القوم المجتمعة أبدانهم + المجتمعة أهواؤهم) و (كلامكم يوهي الصلاب + وفعلكم يوهي الأعداء) وبذلك تعز دعوة من دعاكم، ويستريح قلب من قاساكم، ويمنع الضيم الأحرار، ويدرك الحق بالجد، وبذلك تمنعون دياركم، وبالانقياد لإمامكم يكون قد رمى بالسهم الأصيب، وأصبح يصدق أقوالكم ويوعد العدو بكم وبإقدامكم، لأنكم رجال شجعان لستم بجهلة ولا غفلا عما يراد بكم، وليس لكم طمع في حطام الدنيا لأن الآخرة خير وأبقى وفي اعتقادي هذا هو النص الغائب الذي أراد الإمام علي أن يقوله بطريقة أو بأخرى.

لأن قوله (المختلفة أهوائهم) يتقاطع مع قوله تعالى (ولا تنازعوا فتفشلوا و تذهب ريحكم)⁽¹⁾ وقوله (كلامكم يوهي الصلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء) يتقاطع مع قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون)⁽²⁾ ولنأخذ أنموذجا ثانيا لنستكشف عالم الإمام علي الإبداعي عن طريق السلب والإيجاب والنفي والإثبات يقول رضي الله عنه موبخا - أيضا أنصاره على تقاعسهم وتخاذلهم وعصيانهم إياه، وفي آخر الخطبة يقارن بينهم وبين صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الجزء الأول "... أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم، وإبطائكم عن حقي، ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي، استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا، وأسمعتكم فلم تسمعوا ودعوتكم سرا وجهرا فلم تستجيبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا، أشهود كغياب وعبيد كأرباب؟! أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها، وأعظمكم بالموعة البالغة فتتفرقون عنها، وأحثكم على جهاد أهل البغي، فما آتي على آخر قولي حتى أراكم متفرقين أيادي سبأ، ترجعون إلى مجالسكم، وتتخاذلون عن مواظكم أقومكم غدوة وترجعون إلي عشية كظهر الحنية، عجز المقوم، وأعضل المقوم، أيها القوم الشاهدة أبدانهم، الغائبة

(1) الأنفال الآية 47.

(2) الصف الآية 2.

عنهم عقولهم، المختلفة أهوائهم، المبتلى بهم أمرائهم، صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه، لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم⁽¹⁾

إن النتيجة التي يمكن التوصل إليها في معنى الخطبة ظاهرة للعيان ولكننا لن نذكرها حتى نستعرض الجمل المنفية والمثبتة والسلبية والإيجابية والجدول سيكون كالتالي:

الجملة الأولى	الجملة الثانية	نوعها	النتيجة 1	النتيجة 2
لأسراعهم إلى باطل صاحبهم	وإبطائكم عن حقي	مقابلة	عصيان	اغتراب
الأمم تخاف رعاتها	أخاف ظلم رعيتي	مقابلة	عصيان	اغتراب
استنفرتكم للجهاد	فلم تنفروا	مطابقة	عصيان	اغتراب
وأسمعتكم	فلم تسمعوا	مطابقة	عصيان	اغتراب
دعوتكم سرا وجهرا	فلم تستجبوا	مطابقة	عصيان	اغتراب
ونصحت لكم	فلم تقبلوا	مطابقة	عصيان	اغتراب
أشهود	كغيب	مطابقة	عصيان	اغتراب
وعبيد	كأرباب	مطابقة	عصيان	اغتراب
أتلو عليكم الحكم	فتنفرون منها	مقابلة	عصيان	اغتراب
وأعظكم بالموعظة البالغة	فتنفرون عنها	مقابلة	عصيان	اغتراب
وأحثكم على جهاد أهل البغي	حتى أراكم متفرقين	مقابلة	عصيان	اغتراب
ترجعون إلى مجالسكم	وتتخادعون عن مواضعكم	مقابلة	عصيان	اغتراب
أقومكم غدوة	فترجعون إلي عشية كظهر الحنية	مقابلة	اللامبالاة	اغتراب
عجز المقوم	وأعطل المقوم	مقابلة	حيرة	اغتراب
القوم الشاهدة أبدانهم	الغائبة عنهم عقولهم	مقابلة	تيهان	اغتراب
المختلفة أهواؤهم	المبتلى بهم أمراؤهم	مقابلة	عصيان	اغتراب
صاحبكم يطيع الله	وأنتم تعصونه	مقابلة	عصيان	اغتراب
وصاحب أهل الشام يعصي الله	وهم يطيعونه	مقابلة	هوانهم	اغتراب
لو أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار	بالدرهم	مطابقة	هوانهم	اغتراب
فأخذ مني عشرة منكم	وأعطاني واحدا منهم	مقابلة	هوانهم	اغتراب

من ملاحظة الجدول يتبين لنا أن جل المقابلات والمطابقات تصب في اتجاه واحد، وهو العصيان، عصيان ولي الأمر الذي أمر الشرع بإطاعة أوامره ونواهيه - ما لم تكن عصيانا لله - وشدة وطأة هذا العصيان على الإمام علي جعلته يعلن النتيجة في المقدمة حين قال (أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم ولكن ...) إن إفصاحه على النتيجة في المقدمة لم يكن فلتة، بل كانت بعد أعمال فكر

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 149.

وملاحظة سلوك القوم ومعاناة الانتظار، لذلك جاءت الإثباتات واضحة مركزة مبرهنة تدل على وعي رهيب باغترابه بين القوم، والملاحظ أنهم قد جنحوا في سلوكهم إلى الفرقة فعز عليه ذلك، فحاول أن يبين لهم أضرارها - والقوم ليسوا بحاجة إلى تبیین - ومنافع الاجتماع والألفة وطاعة ولي الأمر، لأن في كل ذلك مرضاة الرب، ومدعاة إلى القوة والنصر، وإن كان ما قاله - في نظري - من باب إقامة الحجة عليهم في الدنيا وفي الآخرة، لأنه خبرهم حق الخبرة وأيقن بأقول نجمهم لا محالة إن هم بقوا على حالتهم تلك، فالقوم أبوا القتال فليس له أن يحملهم على ما يكرهون أو على ما يحب، وبمن يحملهم على القتال وكلهم مختلفون عليه، يريد أن يداويهم وهم الداء والمرضى في الوقت نفسه، والداء الثاني هم أهل الشام فلا عجب أن يقول "أريد أن أداوي بكم وأنتم دائي"⁽¹⁾

ويمكن أن نلاحظ هنا تشابها كبيرا بين حالة الإمام علي وهو خليفة المسلمين مع حالة سيدنا موسى مع بني إسرائيل، فما لاقاه سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام يكاد يطابقه ما عناه الإمام علي مع أهل العراق وأهل الكوفة خاصة - حيث كانت عاصمة خلافته - فقد عصى اليهود موسى عليه السلام حين أمرهم بقتال عدوهم فأبوا إباء الجفاة وقالوا له (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون)⁽²⁾ كذلك استتفر على أهل الكوفة إلى قتال أهل البغي فأبوا عليه إباء العصاة مخالفين قول الله تعالى : (و إن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله)⁽³⁾ وقد تبين أن أهل الشام هم الفئة الباغية عندما قتلوا عمار ابن ياسر رضي الله عنه، والذي أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تقتله الفئة الباغية، كررنا هذا لا للتطويل ولكن للتدليل على أن الإمام علي أصيب بالإحباط الشديد، فأصبح فريدا مع الحق على الرغم من ظهور الآي السواطع بأنه على المنهاج المستقيم وما مقتل عمار بن ياسر إلا آية من الآيات الكثيرة الدالة على أحقية مطالبه التي توجبها المرجعية الإسلامية المشتركة، والتي تدعو فيما تدعو إلى طاعة الله وولي أمر المؤمنين.

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 161.

(2) المائدة الآية 26.

(3) الحجرات الآية 9.

فإذا انتقلنا إلى الجزء الثاني من الخطبة وطبقنا عليها الخطة نفسها، فلا شك أننا سنتحصل على النتائج ذاتها أو ما كان قريباً منها يقول "يا أهل الكوفة منيت منكم بثلاث واثنيتين : صم ذوي أسماع، وبكم ذوي كلام، وعمي ذوي أبصار لا أحرار صدق عند اللقاء، ولا إخوان ثقة عند البلاء! تربت أيديكم! يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها ! كلما جمعت من جانب تفرقت من آخر والله لكأنني بكم فيما إخالكم، أن لو حمس الوغى، وحمي الضراب، قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج المرأة عن قبلها، وإني علي بينة من ربي، ومنهاج من نبيي، وإني لعلّى الطريق الواضح ألقطه لقطاً"⁽¹⁾

و لنضع الجدول الآن وسنرى أين يقف بنا.

الجملة الأولى	الجملة الثانية	نوعها	النتيجة 1	النتيجة 2
صم	ذوي أسماع	مطابقة	عصيان	اغتراب
بكم	ذوي كلام	مطابقة	عصيان	اغتراب
وعمي	ذوي أبصار	مطابقة	عصيان	اغتراب
لا أحرار صدق عند اللقاء	المسكوت عنه (أنتم جنباء)	مقابلة	أهل ريبة	اغتراب
ولا إخوان ثقة عند البلاء	المسكوت عنه (أنتم أهل ريبة)	مقابلة	لا يوثق بكم	اغتراب
يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها	المسكوت عنه (أنتم متفرقون تحكمكم الأهواء)	مقابلة	لا يوثق بكم	اغتراب
كلما جمعت من جانب	تفرقت من آخر	مقابلة	عصيان	اغتراب
قد انفرجتم عن ابن أبي طالب	انفراج المرأة عن قبلها	مقابلة	وضوح الرؤية	اغتراب
وإني على بينة من ربي	المسكوت عنه (لم يلبس علي الأمر)	مقابلة	وضوح الرؤية	اغتراب
ومنهاج من نبي	المسكوت عنه (لم يلبس علي الأمر)	مقابلة	وضوح الرؤية	اغتراب
وإني لا على الطريق الواضح	المسكوت عنه (لم يلبس علي الأمر)	مقابلة	وضوح الرؤية	اغتراب
ألقطه لقطاً	المسكوت عنه (لا أزيغ عنه)	مقابلة	وضوح الرؤية	اغتراب

من هذا الجدول ننتبين مرة أخرى ملامح أهل الكوفة، فهم أهل عصيان وأهل ريبة، أهل ريبة فيما بينهم، فكل شخص في خصومة مع نفسه، وهم أهل ريبة، لأن من صاحبهم أدخلوا الريبة في نفسه تجاههم، فهم لا يمكن أن يركن إليهم ولا أن يعتمد عليهم لانعدام

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق- ص: 150

الثقة فيهم ودناءة سلوكهم الحقيقي و(الافتراضي)، والمقابلة الكبرى في هذا النص هي العصيان والشك والتفرق يقابلها وضوح الرؤية وقلة الأعوان للمضي في هذا السبيل، والنتيجة هي اغتراب الإمام علي، وقد أشار في بداية الشطر الثاني من الخطبة إلى هذه النتيجة وهي قوله (يا أهل الكوفة منيت منكم بثلاث واثنين) أي قدر على أن ألقى منكم من الصمم والبكم والعمى، وعدم الصدق والثقة ما يورث الجهد والبلاء ومعاناة الغربة والاغتراب، لأن من معاني الاغتراب الأساسية حسب فعل Alienare هو "نقل ملكية شيء ما إلى شخص آخر وهذا يعني جعل شيء ما منتميا إلى شخص آخر" (1) والذي نقل عن علي رضي الله عنه هو الحكم، لأنه يأمر فلا يطاع وينهي فلا يطاع، فسلب بذلك حق من حقوقه الطبيعية التي منحها له الخلافة الإسلامية .

وإذا مضينا إلى القسم الثالث والأخير من الخطبة والذي يقارن فيه بين أصحابه وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسنجد ما يعضد هذا الرأي، ولندع النص يتحدث بنفسه " قد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وآله، فما أرى أحدا يشبههم منكم! لقد كانوا يصبحون شعنا غبرا، وقد باتوا سجدا وقياما، يراوحون بين جباههم وخدودهم، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم ! كأن بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم! إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبل جيوبهم، ومادوا كما يميد الشجر يوم الرياح العاصف، خوفا من العقاب ورجاء الثواب " (2) ولنا تقسيم آخر هنا يفرضه النص وهو كالتالي :

(1) محمد عباس يوسف- الاغتراب والإبداع الفني- ص: 21.

(2) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مرجع سابق- ص: 150

الجملة الأولى	الجملة الثانية	نوعها	النتيجة 1	النتيجة 2
أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم	أصحاب علي رضي الله عنه	مقابلة	اختلاف بينهما	اغتراب
لقد كانوا يصبحون شعثا غيرا	المسكوت عنه (ليسوا كذلك)	مقابلة	اختلاف بينهما	اغتراب
وقد باتوا سجدا وقياما	المسكوت عنه (ليسوا كذلك)	مقابلة	اختلاف بينهما	اغتراب
يراوحون بين جباههم وخدودهم	المسكوت عنه (ليسوا كذلك)	مقابلة	اختلاف بينهما	اغتراب
ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم	المسكوت عنه (ليسوا كذلك)	مقابلة	اختلاف بينهما	اغتراب
كأن بين أعينهم ركب المعزى	المسكوت عنه (ليسوا كذلك)	مقابلة	اختلاف بينهما	اغتراب
إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبل جيوبهم	المسكوت عنه (ليسوا كذلك)	مقابلة	اختلاف بينهما	اغتراب
ومادوا كما يميد الشجر يوم الرياح العاصف	المسكوت عنه (ليسوا كذلك)	مقابلة	اختلاف بينهما	اغتراب
خوفا من العقاب ورجاء الثواب	المسكوت عنه (ليسوا كذلك)	مقابلة	اختلاف بينهما	اغتراب

يتبين من هذا الجدول الفرق بين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وبين أصحاب علي رضي الله عنه، والبون شاسع بينهما، أجمله الخطاب في هذه الجملة (فما أرى أحدا يشبههم منكم!) وبما أنه (علي) رأى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فهو إذن أحدهم، وصفاتهم هي صفاته، ولما افتقدتهم شق عليه ذلك لأنه عوض عنهم بخلافهم، فاشتاق إليهم ومعنى أنه اشتاق إليهم تغرب عن زمانهم الذي هو زمانه أيضا، وهكذا فإن العلاقة غير الودية بين الإمام علي وأصحابه أفرزت فقدان الألفة، وهذه من المعاني التي يشير إليها الفعل اللاتيني Alienare كما أشرنا في مكانه، إن تلك القيم التي أشار إليها الخطاب والتي كان يتمتع بها السابقون الأولون من المسلمين - وعلي منهم - والقيمة هي كل ما هو جدير بعناية الفرد وتقديره، وبما أنه كان يقدر تلك القيم ويشاركه فيها من تقدم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأصبح مغتربا بينهم، نتيجة التناقض القيمي لأن "المغترب ليس مفقدا للقيم، بل لديه كثير من القيم التي يعاني من أجلها، لكنها قيم تناقض قيم المجتمع كما أنه عاجز عن تحقيقها سواء في سلوكه الشخصي أو الواقع الذي يعيشه" ⁽¹⁾ والعقل الجمعي أو أنا الاجتماعي يقدس هذه القيم في المجتمع الذي عاشه الإمام علي مع أهل العراق، ولكنه كان تقديسا صوريا لم يتح له أن يتحول إلى سلوك

(1) د. محمد عباس يوسف - الاغتراب والإبداع الفني - ص: 27.

ومنهاج حياة كمال كان يتمناه - رضوان الله عليه - وإذا انتقلنا مع الإمام علي إلى موضوع آخر وطبقنا المنهج نفسه في استقراء منابع الاغتراب عن طريق السلب والإيجاب والنفي والإثبات، فلن نعدم شواهد على ذلك، والموضوع التالي الذي نتناوله هو موقفه رضي الله عنه من الخوارج وحججه لهم يقول في خطبة له "فإن أبيتم إلا أني أخطأت وضللت، فلم تضللون عامة أمة محمد صلى الله عليه وسلم، بضلالي وتأخذونهم بخطئي، وتكفرونهم بذنوبي ! سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم، وتخلطون من أذنبي بمن لم يذنب، وقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وآله، رجم الزاني المحصن، ثم صلى عليه، ثم ورثه أهله، وقتل القاتل وورث ميراثه أهله، وقطع السارق وجلد الزاني غير المحصن، ثم قسم عليهما من الفيء، ونكح المسلمات، فأخذهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذنوبهم، وأقام حق الله فيهم، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام ولم يخرج أسماءهم من بين أهله"⁽¹⁾ والآن نضع الجدول كالتالي :

الجملة الأولى	الجملة الثانية	نوعها	النتيجة 1	النتيجة 2
فإن أبيتم إلا أني أخطأت وضللت	فلم تضللون عامة أمة محمد صلى الله عليه وسلم بضلالي وتأخذونهم بخطئي وتكفرونهم بذنوبي والبرء	مقابلة	الحكم بالهوى	اغتراب
سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع السقم وتخلطون من أذنبي	بمن لم يذنب	مطابقة	الحكم بالهوى	اغتراب
وقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجم الزاني المحصن وقاتل القاتل وقطع السارق وجلد الزاني غير المحصن فأخذهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذنوبهم	ثم صلى عليه ثم ورثه أهله ثم قسم عليهما من الفيء ونكح المسلمات وأقام حق الله فيهم	مقابلة	إقامة العدل	الحكم بالعدل
		مقابلة	إقامة العدل	الحكم بالعدل
		مقابلة	إقامة العدل	الحكم بالعدل

أراد الإمام علي في هذا الجزء من الخطبة أن يقيم الحجة على الخوارج ويبين لهم سوء فعلهم وضلالهم عن الطريق السوي، فأتى ببعض سلوكاتهم التي يتضح فيها زيغهم، ثم برهن على هذا الزيغ بإتيانه بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الزاني المحصن والقاتل والزاني غير المحصن والسارق، وكيف أنه أخذ حق الله منهم، ثم أعطاهم نصيبهم

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 167-168.

الذي يستحقونه فلم يمنع عنهم العطاء ولم يحرمهم من الزواج من المسلمات، ولم يمنعهم من الميراث، وبما أن الخوارج كان أغلبهم من القراء فقد ذكرهم بما في القرآن من عقوبات والعقوبات تترتب عن الذنوب، والذنوب لا تخرج صاحبها من الإسلام ولذلك ختم هذا الجزء من الخطبة بقوله (و لم يمنعهم سهمهم من الإسلام ولم يخرج أسماءهم من بين أهله) والغاية من هذا الخطاب هي تبرئة علي لنفسه ولعامة المسلمين، فهو لم يرتكب جرماً، وهبه فعل فإن المنطق الإسلامي يقتضي أن يحاسب هو لا غير، ولكن الخوارج خطئوه وكفروه - وهو بريء من ذلك - وكفروا كل من رضي بالتحكيم وليتهم قاسوا أمورهم بالدين والعقل ولكن غلبت عليهم شقوتهم فحكموا أهواءهم، فضلوا وأضلوا وبعد أن بين لهم بالحجة ضعف حجتهم وبكتهم، انصرف إلى فكرة أخرى في الجزء التالي من الخطبة يقول "ثم أنتم شرار الناس، ومن رمى به الشيطان مراميه وضرب به تيهه ! وسيهلك في صنفان محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق، وخير الناس في حالا النمط الأوسط فالزموه، والزموا السواد الأعظم، فإن يد الله مع الجماعة، وإياكم والفرقة! فإن الشاذ من الناس للشيطان كما أن الشاذ من الغنم للذئب..."⁽¹⁾ ولنرى الآن الجدول إلى أين يسوقنا.

الجملة الأولى	الجملة الثانية	نوعها	النتيجة 1	النتيجة 2
ثم أنتم شرار الناس	المسكوت عنه (لأنكم تهتم عن الدين الصحيح)	مقابلة	عصيان وتمرد	اغتراب
ومن رمى به الشيطان مراميه وضرب به تيهه	المسكوت عنه (أنتم أصحاب كبر لأنكم لا تتقنون للحق)	مقابلة	إتباع الهوى	اغتراب
وسيهلك في صنفان: 1. محب مفرط	يذهب به الحب إلى غير الحق	مقابلة	إتباع الهوى	اغتراب
2. ومبغض مفرط	يذهب به البغض إلى غير الحق	مقابلة	إتباع الهوى	اغتراب
وخير الناس في حالا	النمط الأوسط	مقابلة	النصح	التوجيه
فالزموه والزموا السواد الأعظم فإن يد الله مع الجماعة	وإياكم والفرقة	مقابلة	النصح	التوجيه
فإن الشاذ من الناس للشيطان	كما أن الشاذ من الغنم للذئب	مقابلة	التحذير	التوجيه

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 168.

كما بين الإمام على في القسم الأول فساد رأي الخوارج بالحجة الواضحة، لأن الحجاج ملازم للمعنى المشترك كما يقول (بليث)⁽¹⁾ وبما أن أخذ الناس بذنوبهم يكون حسب قوانين الشرع - وهو معنى مشترك بين جميع المسلمين - فلما أقحمهم أصدر حكمه فيهم، وهو أنهم شرار الناس، لإعراضهم عن الحق الذي قرعه بالحجة، فهم من جنود إبليس، لأنه أبى أن يسجد لآدم كبرا، وهم أبوا إتباع الصواب انتصارا لأهوائهم وبالتالي لكبرهم، فحذرهم مخالفته وإفراطهم في بغضه كما حذر من يحبه أن ينزله غير منزلته وكلا الفريقين يسلكون سبل الهلاك وألزم سامعيه بإتباع الحق فهو - الإمام علي - خليفة المسلمين تحب طاعته وينزل منزلته التي أوجبها الشرع الحنيف، وحذر من مخالفة أمره؟ لأن ذلك يؤدي إلى الفرقة، والتشرذم وفي التشرذم يجد الشيطان ضالته، ولكن ما كان أغناه عن هذا الكلام لولا عصيانه والطعن عليه فكأنهم الراعي وهو الرعية، فأرادوا سلبه ما له وإنزاله غير منزلته وهم يتلون القرآن ويعملون بما لم يؤمروا فكيف لا يصاب بالإحباط والاغتراب من كان أمرا بما أمر الشرع، فيخالف أمره ويعصى نصحه، فإذا انتقلنا إلى الجزء الثالث والأخير من هذه الخطبة فإننا نجده يقول: "ألا من دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه ولو كان تحت عمامتي هذه فإنما حكم الحكمان ليحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن، وإحياءه الاجتماع عليه، وإماتته الافتراق عنه، فإن جرننا القرآن إليهم اتبعناهم وإن جرهم إلينا اتبعونا فلم آت - لا أبالكُم - بجرا ولاختلتكم عن أمركم، ولا لبسته عليكم، إنما اجتمع رأي ملئكم على اختيار رجلين أخذنا عليهما ألا يتعديا القرآن فتاها عنه، وتركنا الحق وهم يبصرانه، وكان الجور هواهما فمضيا عليه، وقد سبق استثنائنا عليهما - في الحكومة بالعدل والصمد للحق - سوء رأيهما وجور حكمهما"⁽²⁾ ولنعد الآن الجدول فإلى أين يقودنا ؟

(1) هنريش بليث - البلاغة والأسلوبية - ترجمة وتعليق د. محمد العومري - إفريقيا الشرق - د. ط 1999 - ص: 43.

(2) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 168.
بجرا: البحر: الشر والأمر العظيم والعجب.

الجملة الأولى	الجملة الثانية	نوعها	النتيجة 1	النتيجة 2
فإنما حكم الحكماء ليحييا ما أحيا القرآن وإحياءه الاجتماع عليه فإن جرم القرآن إليهم وإن جرمهم إلينا فلم أت - لا أب لكم - بجرا ولا خلتكم عن أمركم ولا لبسته عليكم إنما اجتمع رأي ملئكم على اختيار رجلين أخذنا عليهما ألا يتعديا القرآن وترك الحق وقد سبق استثنائنا عليهما	ويميتا ما أماتا القرآن وإماتته الافتراق عنه اتبعناهم اتبعونا المسكوت عنه (لست مذنباً) المسكوت عنه (أنتم اخترتم الرجلين ولست أنا) فتأها عنه وهما يبصرناه سوء رأيهما وجور حكمهما	مقابلة مقابلة مقابلة شرطية مقابلة شرطية مقابلة مقابلة مقابلة مقابلة مقابلة مقابلة	التوازن التوازن التوازن والالتزام التوازن والالتزام تبرئة الذمة أنتم من يتحمل المسؤولية عصيان عصيان عصيان	عدم احترام الالتزام والشرط: اغتراب

إن عبارة بوفون الشهيرة "الأسلوب هو الرجل نفسه"⁽¹⁾ تتوضع في هذا الخطاب ففيه تتساق الشخصيات المبدعة خارج الخطاب مع أفكاره في الخطاب لا ينفصل الواحد عن الآخر فقوله في بداية هذا الجزء الثالث من الخطبة (فإنما حكم الحكماء) بالبناء للمجهول إشارة منه إلى أنه كان رافضاً للتحكيم، فلما حملة عليه أصحابه، وخاف الفرقة قبل به على مضض، ولكن قبوله كان مشروطاً وشرطه متوازن، فالاحتكام إلى القرآن هو العمل به وبأحكامه في مثل هذه القضايا، وما قاتلهم أي أهل الشام إلا ليقبلوا بحكم القرآن، فشرطه أن يحيي الحكماء ما أحيا القرآن وإماتة ما أماته و كان - لو حدث - سيكون في جانبه، ولكن الحكماء اتبعوا هواهما وتركوا الحكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فكان هو في حل من حكمهما لأنه استثنى على الحكمين الحكم برأيهما، فلما فعلا ذلك أصبح منهم بريئاً، ولكن الخوارج الذين أرغموه على القبول بالتحكيم، ثم تراجعوا عنه بعد التحكيم ونادوا بأن لا حكم إلا لله وأن كل من رضي بالتحكيم قد كفر وعليه أن يتوب ويجدد إيمانه وإلا قاتلوه، كان منطقهم غريباً، لأنهم عصوا إمامهم في البدء وعصوه في النهاية، وكل ما حدث لأهل العراق من تفرق كان بسببهم، فهم يمرقون مرة يمينا ومرة شمالاً ويريدون من الناس أن يتبعوهم في اللحظ واللفظ وإلا انتقموا منه بالقتل والتشنيع، وهذا تصدع فكري لدى جماعة الخوارج، الذين كانوا جزءاً من جيش الإمام

(1) هنريش بليث - البلاغة والأسلوبية - مرجع سابق - ص: 52.

علي، وهذا التصدع هم صنعوه وكل ملابساته، وكان خطر هذا التصدع الفكري السلوكي شديدا وقعه على الإمام علي لذلك دعا دون مواربة إلى حرب الخوارج وقتالهم، وقتل كل من ينادي بشعارهم (لا حكم إلا لله) نعم لا حكم إلا لله، ولكن لابد لأحكام الله أن تتجسد في الواقع والذي يقوم بذلك هو الإنسان المسلم كل في محيطه والإمام علي خليفة المسلمين أولى الناس بالضرب على أيدي هؤلاء الناس حتى لا يفضي المجتمع إلى فوضى والاضمحلال لذلك قال في بداية الجزء الثالث من الخطبة (ألا من دعا إلى هذا الشعار فاقتلوه ولو كان تحت عمامتي هذه فالنتيجة جاءت في مقدمة القسم الثالث، واستعجل بها الإمام علي لأنها الأصل وما جاء بعدها هو عبارة عن تعليل ومحااجة عن قراره، لأن اشتراطه الاحتكام إلى القرآن وعدم مخالفته برر له أمر القتال، وإن كان كارها له، لولا تعارض تخليه عنه لمبادئ الحق والصدق والصبر، وهكذا نرى مطابقة شخصية علي في النص شخصية علي الخليفة في الواقع المعيش، واغتراب الإمام في هذا الموقف بالذات نابع من عدم قدرته إستيساغ ما أقدم عليه الخوارج من سلوك ينافي كل أبعاد الفكر المشترك بينهما والذي مرجعه الإسلام فكرا وسلوكا في مرجعية الكتاب والسنة الشريفة.

ومما قاله رضي الله عنه ويكشف عن مدى اغترابه خطبته حين بلغته إغارة النعمان بن بشير الأنصاري صاحب معاوية على أطراف العراق وفيها يبدي غضبه وأسفه مما صار إليه أمره يقول : " منيت بمن لا يطيع إذا أمرت، ولا يجيب إذا دعوت، لا أبالكُم! ما تنتظرون بنصر ربكم، أما دين يجمعكم ولا حمية تحمشمكم أقوم فيكم مستصرخا وأناديكم متغوئا، فلا تسمعون لي قولا، ولا تطيعون لي أمرا، حتى تكشف الأمور عن عواقب المساءة، فما يدرك بكم ثار ولا يبلغ منكم مرام، دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجرجرتم جرجرة الجمل الأسر، وتناقلتم تناقل النضو الأدير، ثم خرج إلي منكم جنيد متذائب ضعيف، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون.. " (1) وسنقف أيضا عند جدول الجمل

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص : 121-122. تحمشمكم: تغضبكم. متغوئا: غوث قال واغوثاه. جرجرتم: الجرجرة صوت يردده البعير في حنجرته. الأسر: وجع يأخذ البعير في كركرته من دبره. النضو: الهزيل من الإبل وغيرها. الأدير: الدبرة: قرحة الدابة. جنيد: تصغير جند. متذائب: مضطرب.

البلاغية لنتبين كيف عبر عما أسخطه عن طريق المقابلات والمطابقات والسلب والإيجاب
والنفي والإثبات.

الجملة الأولى	الجملة الثانية	نوعها	النتيجة 1	النتيجة 2
منيت بمن لا يطيع ولا يجيب لا أبا لكم	إذا أمرت إذا دعوت المسكوت عنه (لا أصل لكم ولا شرف)	مطابقة مطابقة مقابلة	عصيان عصيان الذم	اغتراب اغتراب اغتراب
ما تنتظرون بنصركم ربكم؟	المسكوت عنه (أنكر عليكم هذا السلوك)	مقابلة	لا شرف لكم	اغتراب
أما دين يجمعكم؟	المسكوت عنه (أنكر عليكم ما أنتم عليه)	مقابلة	لا شرف لكم	اغتراب
ولا حمية تحمشكم؟ أقوم فيكم مستصرخا وأناديكم متغوئا	المسكوت عنه (أنكر ما أنتم عليه) فلا تسمعون لي قولا ولا تطيعون لي أمرا	مقابلة مقابلة	لا شرف لكم عصيان	اغتراب اغتراب
فما يدرك بكم ثار ولا يبلغ منكم مرام دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجررتكم جرجرة الجمل الأسر وتناقلتم تناقل النضو الأدبر ثم خرج إلي جنيد متذائب ضعيف	المسكوت عنه (وجودكم عدم) فتناقلتم المسكوت عنه (عصيتم أمري)	مقابلة مقابلة مقابلة	جبناء عصيان عصيان	اغتراب اغتراب اغتراب
	كأنما يساقون إلى الموت	مقابلة وصفية	ضعف وخور	اغتراب

إن اختلال المعايير واضح في الخطاب السابق، فمن المعروف عند كل الأمم أن القائد يطاع فيما يأمر وينهى ويرشد وينصح وإلا لما كان قائداً، وهذه من المسلمات ومن البديهيات التي لا تحتاج إلى برهان، وهل يحتاج النهار إلى دليل، ولكن أصحاب الإمام علي - كما يبدو - قد صيغوا خصيصاً لتغيب حياته، فهم لا يأترون وإذن فهم عصاة، ولا ينصرون الحق فهم إذن فقدوا شرف الفرسان، وعندما يقوم إمامهم صارخاً (واغوئاه) ولا يسمع مجيباً فإن القوم ضعفاء الأنفس وجبناء، وإن أجاب بعضهم - وما أقلهم - كانوا رزية ما بعدها رزية فهم جنيد متذائب كأنما يساقون إلى الموت، وتكشف صيغة التصغير على التحقير والهوان كما تكشف كلمة متذائب أي مضطرب في سلوكه الظاهري الذي يعكس نفسيتهم المضطربة بين الإقدام والإحجام، فمن خرج أورت غصة ومن قعد أورت ذلاً شاملاً فكيف بمن يريد أن يقيم دولة الإسلام العادلة ألا يغترب بين قوم هذه بعض صفاتهم .

المبحث الثالث: التصوير الفني في نصوص نهج البلاغة

أ. التصوير الوصفي والمجازي

يمكن لنا القول بأن التصوير هو نتاج الإدراك والفهم والإحساس والانفعال، والتعبير بدقة عن تفاعل الذات بالموضوع، مما ينتج عنه تشكيل جديد، يربط بين الأشياء في عالم المحسوسات، وبين الانطباعات الذهنية والنفسية في عالم الذات، وذلك التشكيل كلي في جدته، فهو يحمل المعنى أو الفكرة، والعاطفة واللغة بصورة غير معهودة. فهناك تفاعل دائم بين الفكر واللغة، إذ للغة دور إيجابي في توجيه الفكر والتأثير فيه، كما أن للفكر دوره وفعاليته المتميزة في توجيه اللغة وإعادة تشكيله لعلاقاتها أثناء تشكيله لنفسه. (1)

إن الصورة الفنية ومفهومها في النقد القديم يقف عند الصورة البلاغية في التشبيه والمجاز، بينما يضيف النقد الحديث - بالإضافة إلى ذلك - نوعين آخرين من الصور، هما الصورة الذهنية، والصورة باعتبارها رمزا. (2)

وبذلك لم تعد الصورة البلاغية هي المقصودة وحدها بهذا المصطلح، بل قد تخلو الصورة بالمعنى الحديث من المجاز أصلا، إذ تكون العبارات غير مجازية، ومع ذلك فهي تشكل صورة دالة على خيال خصب. (3)

إن الغاية من التصوير هو التأثير، التأثير سلبا أو إيجابا، ولذلك يحظى التصوير باختيار الأدوات الملائمة لموضوعه، حتى يتحقق الهدف من إبلاغيته، فمثلا يرى سيد قطب أن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن إذ يعبر بالصورة الحسية المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية. (4)

(1) ينظر د. جابر عصفور - الصورة في التراث النقضي والبلاغي - دار المعارف - القاهرة - د.ط - د.ط - ص: 359.

(2) ينظر علي البطل - الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري - دار الأندلس - ط1 - د.ت - ص:

04.

(3) المرجع نفسه - ص: 253.

(4) ينظر سيد قطب - التصوير الفني في القرآن - دار الشروق - بيروت - ط7 - 1988 - ص: 36.

والحقيقة أن الصورة قد ترد ثابتة جامدة، وقد ترد متحركة متماوجة كأنها تحدث في الحال والآن، ويرجع ذلك إلى قدرة المرسل في امتلاك ناصية اللغة والقدرة على تشكيلها حسب المواقف في توجهها ووضوحها أو التباسها، ويكون التصوير عندئذ مساوقا لها، لا في وضوح الصورة وغموضها، ولكن في وضوح الموقف أو غموضه، فلكل واحد منهما لغته وتشكيله وبنائه، وفي جموده وحركيته، وفي كلتا الحالتين تكون الصورة معبرة عن الواقع الخارجي، أو الداخل النفسي، أو عن الداخل النفسي الواقع تحت تأثير الواقع الخارجي، والعبرة في التوفيق بدقة تصوير المواقف مهما اختلفت ولنا في نصوص الاعتزاب من الصور ما كان رافدا ومعينا في إظهار معاناة الإمام علي حيال ما لاقاه خلال تجربته المريرة مع الناس والحياة فيقول في أول تجربة له مع الناس حين أرادوه خليفة فأبى " دعوني والتمسوا غيري، فإننا مستقبلون أمرا له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وإن الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت، واعلموا أنني إن أجبتكم ركبتم بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل، وعتب العاتب وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيرا خير لكم مني أميرا". فأول صورة تلقانا هي قوله (دعوني والتمسوا غيري) وهي صورة وصفية خالية من التشبيه والمجاز، وهي واضحة الدلالة (كراهيته تولي الخلافة في هذا الظرف)، ثم يعطف على هذه الصورة الوصفية صورة مجازية في قوله (فإننا مستقبلون وجوها وألوانا) وهي استعارات تصريحية أصلية، تمثل المواقف المختلفة للناس من مقتل عثمان رضي الله عنه وتولييه الخلافة، وهي خلافات ستندر بالقلقل والأحداث المخلة بالسلام، وهذا الأمر (الاختلاف) لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول وهو تصوير قائم على الاستعارة أيضا؛ فقله (لا تقوم له القلوب) يعني أنها لا تطمئن له وهي استعارة تبعية تصريحية جعل فيها فعل تقوم المنفي بدل تطمئن المنفي، وتبعاته، ولا تثبت عليه العقول، أي لا تتيقن منه العقول، وهي استعارة تصريحية تبعية، إذ جعل فعل تثبت المنفي بدل الفعل تتيقن المنفي لإخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، وما يدرك بالوجدان إلى ما يدرك بالحواس، لأن الثبات ألصق بالأشياء المادية الحسية، والتيقن ألصق بالوجدانيات، ولما كان هذا الأمر خطيرا عرج إلى التعبير بالمادي حتى تتمله النفوس وكأنها تراه وتلمسه، وأضرب عن الإحساس الوجداني الذي لا يمكنه تجسيد الموقف

المقلق كما يراه، ثم يواصل تصويره لما يتوقعه، يقول (وإن الآفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت) إن المراد بالآفاق أحوال الأمة الإسلامية والطريق قد تغيرت، والمراد بالطريق الكيفية التي كان يختار بها الخليفة، وإذن فالآفاق تلبدت بالغيوم، وهي استعارة تمثيلية إذ مثل لاختلاف المسلمين المتوقعة حول هذا الأمر بالآفاق التي سدها السحاب والغيوم، الذي يحجب الرؤية، كما يحجب الاختلاف موقع الصواب، وكذلك الطريقة قد تنكرت استعارة تمثيلية، حيث مثل الصعوبة التي ستعقب مقتل عثمان رضي الله عنه وتوليته الخلافة بالكيفية التي تغيرت في مثل هذه الحالة والتي تنذر بسوء العواقب، لأن مقتل الخليفة الشهيد، قد قلب كل الموازين في الأنفس والعقول، فمن راض بمقتله ومن مطالب بدمه، ومن لا رأي له، ومعنى ذلك الفرقة والتشتت، وبعد أن بين أن الأمر ليس كما يتخيلون، أجابهم إلى طلبهم بقوله "واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب) فالصورة هنا وصفية ومجازية، استهلها بحركة وصفية (واعلموا إن أجبتكم) ثم ثنى بصورة مجازية (ركبت بكم ما أعلم) وهي استعارة فعل سرت، وجاء مكانه بفعل ركبت لإبراز المعنى في صورة موحية بالسبيل الذي سيسلكه معهم إن تولى أمرهم، ثم ينكص إلى الصورة الوصفية المشوبة بالحركة الفعلية الحسية والوجدانية في قوله (لم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب)".⁽¹⁾

ثم يستمر في تصوير المشهد المتخيل بلمسة وصفية وأخرى تشبيهية لمحاولة إقناعهم بتركه وشأنه (وإن تركتموني فأنا كأحدكم ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيراً خيراً لكم مني أميراً).

فالصورة هنا واضحة لا لبس فيها، فهو إن ترك وشأنه سيكون كأبي مسلم، بل سيكون أطوع الناس لمن تولى الخلافة، ومقام استشارته كوزير لمن ولوه أمرهم خير لهم من أن يكون أميراً لهم، لأنه إن فعل لم يحمده، وقد كان.

ومن الخطب التي غلبت عليها الصور الوصفية قوله في وصف بيعته "وبسطتم يدي فكففتها، ومددتموها فقبضتها، ثم تداكتم علي تذاك الإبل الهيم على حياضها يوم

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 146-147. أغامت: الغيم السحاب. المحجة: الطريق المستقيم. تنكرت: التكرار التغير عن حال تسرك إلى حال تكرهها.

وردها، حتى انقطعت النعل، وسقط الرداء، ووطئ الضعيف، وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير، وهدج إليها الكبير وتحامل نحوها العليل، وحسرت نحوها الكعاب".⁽¹⁾

إن بلاغة هذا النص تتجلى في نقل المشهد وكأننا نراه متجددا ونحن نقرؤه، فهاهم الناس قد بسطوا يده لبياعه، فكفها، ومددوها فقبضها ازورارا عنهم ودفعا لهم، وهي صورة وصفية تعبر بنفسها، ثم نراه يلجأ إلى التشبيه لنقل صورة التزاحم الشديد عليه، فشبههم في ذلك بالإبل العطاش حين ورودها على حياضها، وما في ذلك من تدافع وسرعة، وكذلك كانوا، فهاهي ذي نعالهم قد تقطعت، وأرديتهم سقطت والضعيف قد ديس عليه من شدة الزحام والإكتضاض والتدافع، وها نحن ذا نرى ابتهاج الناس بالبيعة وسرورهم بها حتى لقد شمل الابتهاج الصغير والكبير، فالكبير تحمل المشقة وحظرها، ولم تمنع العلة صاحبها من حضورها، بل وكشفت الجارية عن وجهها ابتهاجا لما حصل. إن الصور الوصفية قد جعلتنا نعيش الموقف وكأننا ننظر إليه ونشارك فيه، وهي من أهم مزايا التصوير الفني وينطبق قول سيد قطع على هذا النص حيث يقول : " حيث تتوالى المناظر وتتجدد الحركات ... ويتخيل أنه منظر يعرض وحادث يقع، فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات المنبعثة من الموقف المتساوقة مع الحوادث"⁽²⁾ ونبقى مع التصوير الوصفي لنعطيه حقه في نقل المشهد والحركات والانفعالات التي نكاد نحسها ونلمسها ونراها عيانا ونتملاها وجدانا، يقول رضي الله عنه في وصف انهزام جيشه أمام أهل الشام ثم انعطافهم عليه حيث استردوا زمام المبادرة فهزموا أهل الشام، يقول : " وقد رأيت جولتكم وانحيازكم عن صفوفكم، تحوزكم الجفافة الطغام وأعراب أهل الشام، وأنتم لهاميم العرب ويأفيخ الشرف، والأنف المقدم والسنام الأعظم، ولقد شفى وحاوح صدري أن رأيتم بأخرة تحوزونهم كما

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 196.

تداككتكم: تزاخمت. الهيم: الإبل العطاش. تحامل: تحامل الأمر: تكلفه على مشقته. تحسرت: كشفت عن وجهها. الكعاب: الجواري. هدى: الهدجان: مشية الشيخ.

(2) سيد قطب- التصوير الفني في القرآن ص: 36.

حاوزكم وتزيلونهم عن مواقفهم كما أزالوكم، حسا بالنصال، وشجرا بالرماح تركب أولاهم أخراهم كالإبل الهيم المطرودة ترمى عن حياضها وتزاد عن موارد⁽¹⁾.

يبدأ تصوير هذا المشهد بالصورة الوصفية إذ يرى - الإمام علي - أصحابه قد تقهقروا عن صفوفهم يطردهم أهل الشام، ولا يفوته أن يصفهم بأنهم جفاة من أراذل الناس، وأعراب شيمتهم البعد عن الدين والحق، ثم يعود إلى وصف أصحابه فهم لهاميم ورؤوس العرب، ثم ينتهي إلى المجاز مستعملا الكناية، فهم يأفيخ العرب كناية عن فضلهم على جميع العرب، والأنف المقدم كناية عن الشرف، والسنام الأعظم كناية عن علو الشأن، وهي كنايات جامعة لكل الصفات المحبوبة، وقد خاطبهم بها لإثارة نخوتهم وتمكين الشجاعة في أنفسهم، ثم يصور كرتهم على أهل الشام تصويرا مزج فيه بين المجاز والوصف، فمن المجاز قوله (ولقد شفى وحاوح صدري) وهي استعارة تبعية تصريحية حيث شبه إزالة وحاوح صدره (غيظه) بالشفاء، والشفاء أبلغ لأنه لا يترك أي مجال للشك في زوال غيظه، ثم يعود إلى الوصف؛ فقد كان إزالة الغيظ من نفسه أن رأى أصحابه في آخر الأمر يزيلون أهل الشام قتلا وطعنا بالرماح، ولما استحر فيهم القتل تقهقروا منهزمين يعلو أولهم آخرهم، وهم في ذلك كالإبل العطاش التي وردت، فردت على أعقابها لم تشرب ولم ترتو، وهي صورة تشبيهية تبين حال أهل الشام لحظة انهزامهم فلا أحد يلوي على أحد، فالصفوف قد دكت والناس وطئ بعضهم بعضا وقد أخذ الجهد منهم مأخذه.

وإذا أمعنا النظر في هذا التصوير وجدنا الصورة متتالية أمام الأنظار وفي ذهن، توالي الجمل والعبارات، ولأدركنا دقة الكلمات أيضا في وصف كل مشهد من المشاهد، ففي المشهد الأول ترد الكلمات بسرعة وكأن صاحبها يريد تجاوز الموقف بأسرع ما يمكن ويمثل ذلك قوله (وقد رأيت جولتكم وانحيازكم عن صفوفكم) ثم يستحضر كرهه الشديد لمن فعل بهم ذلك في قوله : (تحوزكم الجفاة الطغام وأعراب أهل الشام) في لمحة خاطفة وسمتهم بما هم أهله، ثم يلتفت إلى أصحابه فيصفهم بما هم أهله من الشرف

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 152. الطغام: أوغاد الناس. لهاميم: الهيم السابق الجواد من الناس. يأفيخ: يلفوخ حيث يلتقي عظم مؤخر الرأس ومقدمه. وحاوح: الوحوشة: صوت معه بحج وهو الخشونة والغلظة. حسا: القتل والاستئصال. شجرا: شجره بالرمح: طعنه. الهيم: العطاش. تزداد: تطرد وتدفع.

والكرم والسيادة، ثم يقف في المشهد الثاني عند استرداد أصحابه لزمam المبادرة، فيكشف عن ابتهاجه ويصور المشهد حركة حركة، وكأنني به يستمتع لغويا وفكريا كما استمتع بالمشاهدة الواقعية.

يعمد الإمام علي في بعض آثاره إلى تغليب الصورة الوصفية على الصورة المجازية، وذلك في مواضع نحسب أن الوصف فيها أنفع وأوقع في النفوس، ويأخذها المتلقي مسمحة سهلة لا يستحضر الخيال فيها كثيرا لأن الموضوع أجل من أن يتكلف له - فيما أرى - المجازات المختلفة التي تستدعي إعمال الفكر واستحضار الصورة وإن كان مخاطبيه من أهل الفصاحة والبلاغة، ولعل فعله ذلك حجة من حججه على أصحابه حتى لا يقعوا في التأويلات المختلفة، من ذلك قوله في أصحابه عند تخاذلهم وعصيانهم له وعدم الائتmar بأوامره بالسير إلى محاربة أهل الشام بعد قصة التحكيم يقول: " أما والذي نفسي بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم، ليس لأنهم أولى بالحق منكم، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم، وإبطائكم عن حقي، ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها، وأصبحت أخاف ظلم رعيتي، استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا وأسمعتهم فلم تسمعوا، ودعوتكم سرا وجهرا فلم تستجيبوا، ونصحت لكم فلم تقبلوا" (1).

لقد وصف في هذا النص الأفكار والأفعال، (... ليظهرن هؤلاء القوم عليكم ...) أي لينتصرن هؤلاء الناس عليكم ليس لأنهم على حق، وإنما لإسراعهم إلى ضلال صاحبهم وإبطائكم عن نصره حقي، وهذا وصف لفكرة الائتmar عند أهل الشام، وعدم الانصياع للحق عند أهل العراق، ثم ينتهي لوصف محسوس فهاهي ذي الشعوب تخاف ظلم حكامها، وهو قد أصبح يخاف ظلم شعبه وأنصاره، وتلك مفارقة. ثم يمضي في وصف الحركة الظاهرة والخفية لصحبه، فإذا هم لا يحركون ساكنا كلما خاطبهم، فإذا استنفروهم لم ينفروا، وإذا أسمعوهم لم يستجيبوا، وإذا نصحوهم لم يقبلوا سواء كان ذلك سرا أو جهرا.

إن كل فعل من أفعال الكلام يقابله منهم فعل من أفعال النفس الراضة للأوامر والنصائح يترجمها عدم الانصياع لها والقيام بما يجب القيام به، وهو تصوير يثير الشفقة

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 49.

والرحمة بالإمام علي، فهو أمير بلا إمرة وحاكم بلا سلطة، فهو إذن مشحون بالأشجان بين حقيقة السلطة وحقيقة الواقع، وتكشف الصورة الكلية من جانب آخر تبدل أحاسيس أنصاره ولا مبالاتهم، فما أشدها من معضلة.

ويمضي في الخطبة نفسها مصورا حالهم الثابت قائلا " أيها القوم الشاهرة أبدانهم، الغائبة عنهم عقولهم، المختلفة أهواؤهم المبتلى بهم أمراؤهم، صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطيعونه ⁽¹⁾ ، فالقارئ لهذه الفقرة لا يجد اختلافا كبيرا بينها وبين الفقرة السابقة، فهام أولاء أصحابه أجسادهم حاضرة، وعقولهم غائبة - عدم الاهتمام - وأهواؤهم وآراؤهم مختلفة قد ابتلى بهم أمراؤهم فلا طاعة لهم ولا انقياد، صورة أقرب إلى الصنمية. ثم يمضي في التصوير بوصف لحركة الطرفين؛ فإذا أهل الشام يقومون بتنفيذ أوامر صاحبهم على الرغم من عصيانه لله، وإذا بأصحابه يعصونه فيما يأمر وهو يطيع الله، والصورة هنا تثير حركة ذهنية مثل حركة نواس الساعة وهي في ذلك تساق موقف الطرفين في حركيتهما.

ومن الصور الوصفية ما ورد في رسالته إلى ابن عباس واليه على البصرة، لما بلغه مقتل محمد بن أبي بكر الصديق واليه على مصر حيث يقول " أما بعد فإن مصر قد افتتحت، ومحمد بن أبي بكر - رحمه الله - قد استشهد، فعند الله نحتسبه ولدا ناصحا وعاملا كادحا، وسيفا قاطعا، وركنا دافعا، وقد كنت حثت الناس على لحاقه، وأمرتهم بغياثه قبل الواقعة، ودعوتهم سرا وجهرا وعودا وبدءا، فمنهم الآتي كارها، ومنهم المعتذر كاذبا ومنهم القاعد خاذلا، أسأل الله تعالى أن يجعل لي منهم فرجا عاجلا، فوالله لولا طمعي عند لقاء عدوي في الشهادة، وتوطيني نفسي على المنية لأحببت ألا ألقى مع هؤلاء يوما واحدا ولا ألتقي بهم أبدا ⁽²⁾.

يكشف هذا النص عن صورة بصرية محسوسة وصورة نفسية حزينة متأذية أشد الأذى. أما الصورة البصرية الحسية فنستحضرها عن طريق الكلمات والعبارات، فهاهي ذي مصر قد سقطت في يد أهل الشام، ومحمد بن أبي بكر قد استشهد ولقد كان ولدا

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 49.

(2) المصدر نفسه - ص: 234.

ناصحا لأميره كادحا في عمله، وكان رحمه الله سيفا قاطعا، وركنا دافعا (تشبيهان) ثم يستحضر صورة حثه الناس للحاق به (محمد بن أبي بكر) قبل المعركة، فإذا الناس وقد أمرهم وحثهم وسارهم وجاهرهم لم ينفروا لنجدته، فمنهم من أتى بعد لأي وهو متكاره، ومنهم من قدم عللا واهية لعدم قدرته على النفور، ومنهم المتخاذل الذي لم يقدم عذرا صحيحا أو كاذبا وهي صورة وصفية تكشف عن ملهم ونفورهم من الحرب، واختيار البقاء حيث لا ضرر.

ثم يعود إلى الحديث عن نفسه مصورا مأساته؛ فيسأل الله أن يجعل له منهم فرجا عاجلا وذلك بالتفريق بينه وبينهم، ولولا رغبته في الفوز بالشهادة لما رضي أن يصحبهم يوما واحدا من حياته. والصورة الكلية للنص كما نرى يجلها الحزن واليأس ظاهرا وباطنا؛ ظاهرا للواقع المومع لموت محمد بن أبي بكر من جهة ولتخاذل الناس من حوله من جهة أخرى، وباطنا للزوم الفاجعة دخيلة نفسه وامتلاء نفسه غيضا من انتصار الباطل وخذلان الحق.

ب. التصوير التشبيهي والمجازي :

تنوعت أساليب التعبير بالصورة عند الإمام علي - كما أشرنا سابقا - تنوع الموضوعات والمواقف التي واجهته وكان له معها تفاعل، فمن التعبير بالصور المجازية والتشبيه ما نلحظه في مخاطبته لأبي سفيان وعمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهما عندما عرضا عليه البيعة - عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم - وقد تمت قبل ذلك بيعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه حيث قال لهما ولغيرهما " أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وخرجوا عن طريق المنافرة، وضعوا تيجان المفاخرة، أفلح من نهض بجناح، أو استسلم فأراح، هذا ماء آجن، ولقمة يغص بها آكلها، ومجنتي الثمرة لغير وقت إيناعها، كالزراع بغير أرضه، فإن أقل يقولوا : حرص على

الملك، وإن أسكت يقولوا جزع من الموت ! هيهات بعد اللتيا والتي! والله لابن أبي طالب أنس بالموت من الطفل بثدي أمه⁽¹⁾.

صورت هذه الخطبة موقفه رضي الله عنه مما دعي إليه من طرف عمه العباس وأبي سفيان، بإرشادهما إلى طريق الصواب، وبخاصة أن الخلافة قد تمت لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، لأن قبوله عرضهما معناه الدخول في الفتنة ، وهو يأبأها - الفتنة - فعبر لمن أرادوه خليفة تعبيراً مجازياً، مستعملاً الاستعارة في قوله (شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة) والاستعارة الأولى مكنية حيث شبه الفتنة بالبحر وحذف البحر وأبقى على لازمة من لوازمه، وهي الأمواج التي تهلك كما تهلك الفتن، والثانية تصريحية حيث شبه أفعال الخير والكف عن هذا الحديث بالسفن، والسفن مناط نجاة الناس من الغرق في أمواج البحر، وفعل الخير ونهج السبل القويمة منجاة من الفتن، وتلك هي المناسبة بين الصورتين، ثم ينحو في الجملة التالية النهج نفسه (وعرجوا عن طريق المنافرة) وعرجوا بمعنى أتركوا وهي استعارة تصريحية تبعية، أي دعوا المنافرة فإنها لا تأتي بخير أبداً، لأن المنافرة (التفاخر) طريق ضلالة، يورث حقداً ووهناً، ويمضي مع أسلوب الاستعارة في قوله (وضعوا تيجان المفاخرة) وهي استعارة تصريحية أصلية، إذ المراد بالتيجان هنا ما يتفاخر به من الأعمال كالشجاعة الكرم مثلاً، فحذف هذه الصفات وجاء في مكانها بالتيجان، والاستعارة هنا أبرزت المعنوي في صورة المحسوس وأضفت عليها جمالياً مرئياً. ويمضي مع الاستعارة دائماً معبراً عن موقفه عما دعي إليه بقوله (أفلح من نهض بجناح أو استسلم فأراح)، ففي الجملة الأولى استعارة تصريحية حيث شبه القوة بالجناح، وحذف القوة وجاء بالجناح مكانها على سبيل الاستعارة التصريحية، والمناسبة بينهما أن الطائر لا يطير إلا بجناح، والخلافة لا تكون إلا لمن يملك القوة، وبما أن الخلافة حسمت لأبي بكر فالقوة معه إذ بايعه المسلمون، وأما قوله (أو استسلم فأراح) فهي كناية عن صفة وهي الرضا بالواقع الحاصل، ثم ينتهي إلى الاستعارة مرة أخرى ليوصل فكرته لمن أهمه أمره فيشبه أمر الخلافة بالماء الكدر، والجامع بينهما عدم الوضوح وتغير الأحوال، وهو أمر

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 102. عرجوا: ميلوا. آجن: الأجن المتغير الطعم واللون وقيل المراد بذلك الخلافة. يغص: ما اعترض في الحلق فأشرق. ايناعها: نضجها. اللتيا والتي: من أسماء الداهية والمراد الشدائد كبارها وصغارها.

مريب، فالأنصار قد طالبوا بالخلافة وبنو هاشم ومن ناصرهم يطلبونها له، وعامة المسلمين قد بايعوا أبا بكر رضي الله عنه، فالأمر ملتبس كالماء العكر، ويمضي مع الاستعارة مرة أخرى فأمر الخلافة (لقمة يغص بها أكلها) من تولاها الآن أورثته المتاعب كما تورث اللقمة عندما يغص بها صاحبها.

ويواصل التعبير بالصورة الرمزية وهذه المرة يلتفت إلى الاستعارة التمثيلية في قوله (ومجتني الثمرة لغير وقت إيناعها) حيث شبه حال من يريد الخلافة والأمور المهيأة لها غائبة، بحال من يريد جني الثمرة قبل نضجها، وهي استعارة معنوي بمحسوس ليتمكن المعنى في نفوس السامعين ثم في نقل أفكاره سالكا مسلك الصورة معتمدا هذه المرة على التشبيه في قوله (كالزارع بغير أرضه) بعد أن أضمر المشبه، وهو الطالب للخلافة قبل توفر شروطها ومناخها، والجامع بينهما العناء دون فائدة ترجى.

ثم يعود إلى الصورة الوصفية التي تخللت هذه الصورة الإستعارية وذلك في قوله (فإن أقل يقولوا حرص على الملك، وإن أسكت يقولوا : جزع من الموت) وهي صورة معبرة بنفسها يستحضرها الذهن بلا عناء، تكشف عن الحركة والحركة المضادة، ومنها يمضي إلى نفي خوفه وجبنه باستعمال أسلوب الاستعارة التمثيلية في قوله (هيهات بعد اللتيا والتي) حيث تشير هذه الاستعارة التي معناها هيهات أن أخاف بعد أن خضت من الأهوال الكبير والصغير خلال حياتي الحربية الجهادية و(اللتيا والتي) تعبير عن الكبير والصغير، إذ اللتيا تصغير التي وهو ما يناسب الأمر الضعيف و(التي) هي ما يناسب الأمر العظيم، ويؤكد ما ذهب إليه من عدم خوفه بالصورة التشبيهية في قوله (والله لابن أبي طالب أنس بالموت من الطفل بثدي أمه) بل إن هذه الصورة لتؤكد رغبته بالموت أكثر من دفع الخوف من الموت، ونلاحظ من خلال ما سبق من التعبير بالصورة خطين متوازيين، فهو في القسم الأول يدعو إلى نبذ الفرقة والشقاق بعد أن تمت البيعة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفي القسم الثاني ينفي عن نفسه الطمع في الخلافة بعد أن تمت، ويرد في غضون ذلك على من يتهمة بالقعود عن طلب حقه كما يزعمون.

ونمضي مع التصوير الإستعاري والتشبيهي فيما نطق به الإمام علي من ذلك قوله في رسالة أرسلها إلى أهل مصر وقد بعث إليهم مالك بن الحارث الأشتر؛ وهو أحد قادته

الكبار والصناديد الأبطال ليتولى قيادتهم ، يقول " من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى القوم الذين غضبوا لله حين عصي في أرضه، وذهب بحقه، فضرب الجور سراحه على البر والفاجر، والمقيم والظاعن، فلا معروف يستراح إليه ولا منكر يتناهى عنه أما بعد ، فقد بعثت إليكم عبدا من عباد الله، لا ينام أيام الخوف، ولا ينكل عن الأعداء ساعات الروع، أشد على الفجار من حريق النار، وهو مالك بن الحارث أخو مذحج، فاسمعوا له وأطيعوا أمره فيما طابق الحق، فإنه سيف من سيوف الله، لا كليل الظبة ولا نابي الضريبة، فإن أمركم أن تنفروا فانفروا، وإن أمركم أن تقيموا فاقيموا فإنه لا يقدم ولا يحجم، ولا يؤخر ولا يقدم إلا عن أمري، وقد آثرتكم به على نفسي، لنصيحته لكم وشدة شكيمته على عدوكم"(1).

يبدأ علي رضي الله عنه رسالته بصورة وصفية في قوله (إلى القوم الذين غضبوا لله حين عصي في أرضه وذهب بحقه) فقد عبرت الجملتان تعبيراً وصفيًا مباشرًا، والقول موجه لأناس غضبوا لما ضيعت حقوق الله وحقوق عباده، ويمكننا استحضار صورة هؤلاء الأقوام وهم غاضبين منفعلين تدب فيهم الحركة جيئة وذهابا وعلامات الاستياء بادية على وجوههم وحركاتهم. ثم ينتهي إلى الصورة الإستعارية في قوله (فضرب الجور سراحه على البر والفاجر والمقيم والظاعن)، حيث شبه الجور بالإنسان وحذف هذا الإنسان وأبقى على شيء من لوازمه وهو إقامة سراق عظيم على كل أهل مصر، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية، والمناسبة بين الواقع بيّن وبين الاستعارة هو شمول الظلم هذا المصر شمولاً كلياً، وكذلك في قوله (على البر والفاجر والمقيم والظاعن) كناية عن صفة وهي شمولية الظلم لكل الناس بلا استثناء، ومكمن شمول الجور والظلم يظهر في اختفاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن تعبيره عن ذلك كان أدق (فلا معروف يستراح إليه، ولا منكر يتناهى عنه) فنفس الإنسان هناك دائماً التشوف والانتظار والغضب حيث لا يستراح إلى معروف حتى يتغير، ولا منكر يتناهى عنه فتطمئن النفس، وإن فالرجل من هؤلاء لا يني يراوح مكانه؛ دائم الاستشراف للمعروف ودائم الخوف

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 236.
مذحج: قبيلة مالك بن الحارث. كليل: لم يقطع. الظبة: حدة السيف أو السنان. نابي: نبا السيف كل ولم يقطع.
الضريبة: حد السيف. شكيمته: الشكيمة الأنفة والانتصار من الظلم.

والانزعاج من المنكر. وقد استطاع هذا المقطع أن يصور لنا الحركة الخارجية والحركة النفسية للمواطن في تلك الفترة وفي ذلك المكان.

أما في الجزء الثاني من الرسالة فيصف الرجل الذي بعثه إليهم ليكون قائدا لهم؛ فهو عبد من عباد الله، ومعنى العبودية هنا أنه وقاف عند كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، (لا ينام أيام الخوف ولا ينكل عن العدو ساعات الروح) فهو موصوف بالحزم، والشجاعة، ولكن التعبير جاء كنائيا، فـ (لا ينام أيام الخوف) كناية عن صفة الحذر واليقظة، ومن ثمة فهو كثير الحزم، و (لا ينكل عن العدو ساعات الروح) كناية عن صفة الثبات وعدم الاهتزاز أمام العدو وبالتالي فهو شجاع غاية الشجاعة، ثم ينتهي إلى التشبيه ليبين بعض صفات هذا الرجل فيقول (أشد على الفجار من حريق النار) فالمشبه ضمير (هو) يعود على مالك بن الحارث، والمشبه به حريق النار، والمناسبة بينهما إذ أن كلا منهما أتى على شيء لم يبق منه شيئا، والصورة هنا تبين هيئة ودخيلة هذا الرجل، فمن يكون يا ترى؟ (وهو مالك بن الحارث أخو مذحج) وهو شخص يعرفه أهل ذلك الزمان بأنه من صناديد العرب ومن أبطال اليرموك والقادسية، وهو الذي ألجأ أهل الشام إلى رفع المصاحف حين اخترق أربعة صفوف من الخمسة التي كانت تحيط بمعاوية رحمه الله.

ويمضي في رسالته موصيا وواصفا، (فاسمعوا له وأطيعوا أمره فيما طابق الحق)، إن الصورة هنا ذهنية يستحضرها القارئ بسهولة ويسر، وهي الامتثال لأوامره وطاعته، ولكن فيما طابق الحق، وما طابق الحق عند الإمام علي هو المضي مع القرآن والسنة، والوقوف حيث يقفان، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

إن هذا الرجل (سيف من سيوف الله) وهو تشبيه مبني على استعارة، فالصورة مركبة، فالرجل كالسيف في حدته وقطعه وصرامته، وهو سيف من سيوف الله، بمعنى أنه رجل من الرجال الذين تتوفر فيهم تلك الميزات، فهو إذن صارم في أوامره قاطع لكل ما يثنيه عن مهمته، فهو كالسيف (لا كليل الظبة ولا نابي الضريبة)، لا يرجع عما عزم عليه، وإذا عزم أنفذ أمره، ولما كان أمره كذلك فعليكم أن تتفروا إذا أمركم، وأن تقيموا إن طلب ذلك منكم، ثم يصف حركته تلك بأنها من أمره (علي) فهو لا يقدم عن أي أمر أو يحجم عنه إلا بأمره، وهي صورة وصفية تتناسب مقام الحرب الذي يكون فيه الكلام سهلا

واضحاً لا يحمل تأويلات مختلفة، حتى لا يختلف الفهم ويقع الشقاق، ويختم الرسالة بصورة يدركها العقل بلا عناء، إن هذا الرجل صاحب أنفة لا يرضى بالذل والمهانة، وقد أثرتكم به على نفسي ليكون لكم عوناً ومعلماً وقائداً.

ومن تعبيره بالصورة المجازية والتشبيهية ما ورد في رسالته إلى ابن عباس عندما تخلى عنه وأخذ أموال المسلمين التي بببيت ولاية البصرة حيث يقول: " فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب، والعدو قد حرد، وأمانة الناس قد خربت وهذه الأمة قد فنكت، وشغرت، قلبت لابن عمك ظهراً المجن، وفارقت مع المفارقين وخذلت مع الخاذلين، وخنته مع الخائنين، فلا ابن عمك آسيت، ولا الأمانة أديت، وكأنك لم تكن الله تريد، بجهادك، وكأنك لم تكن على بينة من ربك، وكأنك إنما كنت تكيد هذه الأمة عن دنياهم، وتنوي غرتهم عن فيئهم، فلما أمكنتك الشدة في خيانة الأمة أسرعت الكرة وعاجلت الوثبة، واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم، اختطف الذئب الأزل دامية المعزى الكسيرة، فحملته إلى الحجاز رحيب الصدر بحمله ... " (1).

عبر الإمام علي رضي الله عنه في هذه الرسالة عن حزنه الشديد وكشف عن آلامه الفضيعة في أواخر أيام حياته، حيث عصرته الأحداث عصراً وادلهمت عليه الخطوب من كل جانب، وهو يخاطب في هذا النص ابن عمه ابن عباس (عبد الله بن عباس) الذي كان يثق فيه كل الثقة حيث جعله موضع مشورته في كل ما أنابه، ولم يكن أحد من أهل بيته أوثق منه إليه ولكن الزمان دوار فهاهو ذا يعتزله ويفارقه أحوج ما يكون إليه ويستهل كلامه بتصوير مجازي في قوله (فلما رأيت الزمن على ابن عمك قد كلب) فالزمان لا يشتد وإنما أحداثه هي التي تشتد ففي الكلام مجاز مرسل علاقته المحلية حيث ذكر المحل (وهو الزمان) والأحداث الواقعة فيه، فمن تخاذل أصحابه، وخروج الخوارج عليه، واشتداد قوة أهل الشام عليه، كل ذلك جعله يعبر بالمجاز المرسل لأنه أبلغ هنا لأنه لا يمر يوم إلا ويقع له من الأحداث ما يوهن الصم الصلاب وكأن الزمان (الوقت أصبح

(1) نهج البلاغة- تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد- مصدر سابق - ص: 238.

كلب: اشتد وضاق. حرد: اشتد غضبه. فنكت: الفك: اللجاج والكذب. شغرت: شغرت الأرض لم يبق أحد يحميها ويضبطها. المجن: الترس. غرتهم: الغرة: الغفلة. الأزل: السريع. دامية: الدامية المجروحة.

من أعدائه) ثم يمضي مع المجاز دائما ولكن هذه المرة مع الكناية في قوله (والعدو قد حرد) وحرد اشتد غيظه وغضبه، وما كان له ذلك إلا لأنه أصبح قويا، فالكلام كناية عن قوة العدو وتأهبه للانقضاض وأما قوله (وأمانة الناس قد خربت) فاستعارة مكنية حيث شبه الأمانة بشيء مادي يمكن أن يخرب وحذف هذا الشيء وأبقى على شيء من لوازمه وهو الخراب، والمناسبة بينهما هو الفساد الكلي، ومعناه لم يبق أحد يصون الأمانة، لأن النفوس أصبحت خلوا من القيم والأخلاق، وأما قوله (وهذه الأمة قد فنكت، وشغرت) ففي الجملة الأولى مجاز مرسل علاقته الكلية، فأطلق لفظ الأمة، وأراد معظمها، وأما الجملة الثانية (شغرت) وهي جملة معطوفة على الأولى (والأمة شغرت) ومعنى شغرت لم يبق منها أحد، فهنا مجاز مرسل علاقته الحالية إذ ذكر الحاليين (الأمة) وأراد المحل، أي البلاد الإسلامية، ويمكن أن نعتبرها كناية (الأمة شغرت) إذ لم يبق فيها أحد من الخيرين، وهي كناية عن صفة وهي عموم فساد الأمة، وأما قوله (قلبت لابن عمك ظهر المجن) فهي استعارة تمثيلية، حيث شبه موقف ابن عباس في خذلانه له بمن يقلب ظهر الترس في الحرب وهي دليل على الإقبال على القتال والاستمرار فيه، وأما قوله (ففارقت مع المفارقين وخذلت مع الخاذلين وخنته مع الخائنين) فهي كناية عن هول صدمته بموقف ابن عباس المقرب منه جدا، كما أشرنا سالفًا، وهو موقف يكشف عن غربة قاتلة واغتراب رهيب، فما أفزع أن يأتي الخذلان ممن كان لا يرقى إليه الشك.

ويستولي عليه نوع من الهستيريا إن صح التعبير، فأصبح يقلب كفا على كف، يكشف عنها تكراره لـ (كأن) التي تفيد الظن الذي هو أقرب إلى اليقين، فيستحضر صورة ابن عباس فيخاطبه خطاب الحاضر المائل أمامه، وفي خطابه نستحضر نحن المتلقين الصور الذهنية المتوالية لمواقف ابن عباس من خلال قوله (وكأنك لم تكن الله تريد بجهادك، وكأنك لم تكن على بينة من ربك، وكأنك إنما كنت تكيد هذه الأمة عن دنياهم وتتوي غرتهم عن فيئهم) فالصور الفكرية لسلوك ابن عباس كما تفضحها العبارات، صور شخص انتهازي كان يتحرك بلا وعي، لأنه لم يرد الله بجهاده، ولم يكن على بينة من ربه في سلوكه، بل كان يكيد الأمة، ويتحين الفرصة وغفلة المسلمين حتى ينقض على أموالهم، فلما واثته الفرصة لم يفوتها، وكشف بذلك عن حقيقة نفسه النزاعة لحب الدنيا، يوضح ذلك قوله

(فلما أمكنتك الشدة في خيانة الأمة ، أسرعت الكرة ، وعاجلت الوثبة) ففي هذه الجمل صور مختلفة، ففي الجملة الأولى أسند فعل (أمكن) للمصدر (الشدة) ، فهو مجازي عقلي علاقته المصدرية، وفي هذه العلاقة من البلاغة والاختصار ما يدل على إبلاغية الإمام علي، فبدل أن يذكر أهل الشام، وتخاذل أصحابه ، وخروج الخوارج، أجمل كل ذلك في عبارة (أمكنتك الشدة) أما الصورة في قوله (أسرعت الكرة) فهي بالإضافة إلى كشفها واستحضارها للصورة الحسية البصرية، فهي تكشف من جانب آخر عن أن ابن عباس كان ينتظر مثل هذه اللحظة وقد أعد لها ما يلزمها، فلما حانت (أسرع الكرة) أي أسرع في اختطاف ما قدر عليه من أموال المسلمين، وفي قوله (أسرعت الكرة) صورة بصرية وصفية من جانب الشكل، وهي صورة المتربص المنتظر لساعة الصفر لبدء العمل، وهي صورة نفسية لتهيئ ابن عباس للتحرك سريعا لإشباع رغباته الذاتية، وهي توحى بالأنانية المفرطة في حب الذات، وأما الصورة في قوله (عاجلت الوثبة) فهي معطوفة على الأولى، فالإعداد للوثبة كان قد حدث فعلا ، والذي كان ينقص هو الوقت الملائم فلما حان استعجل الوثبة، أي أخذ أموال المسلمين بغير حق، والصورة بصرية وصفية من ناحية الشكل ، فكلنا يستطيع استحضار الصورة دون عناء ، وهي من جانب آخر صورة نفسية لابن عباس لأنه عاجل وبسرعة أخذ ما أراد، خوفا من أن لا تتكرر الفرصة مرة أخرى، ثم يورد الإمام علي صورة حزينة لما أقدم عليه ابن عباس في قوله (واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم المصونة لأراملهم وأيتامهم اختطاف الذئب الأزل دامية المعزى الكسيرة) فهنا صورتان بارزتان، فالصورة الأولى صورة وصفية بصرية يكشف عنها إقدام ابن عباس على اختطاف ما قدر عليه من أموال الأمة المرصودة للأرامل واليتامى، والصورة هنا تضيء جانبيين، فالجانب الأول سرعة التنفيذ، أي الاستيلاء على الأموال، والجانب الثاني يكشف أن هذه الأموال، هي أموال الضعفاء من الأرامل والأيتام وهو معنى يفت الصم الصلاب، فأن يأخذ المرء أموال الناس بغير حق أمر عظيم، وأعظم منه أن تكون هذه الأموال مرصودة لطلبات الضعفاء من الأمة، لذلك فقد أصيب الإمام في مقتل واكتنفه الاغتراب المريع، فكيف يصح في العقل ناهيك عن الدين أن يقدم ابن عباس على ما أقدم عليه، لا يفسر ذلك إلا اختلال القيم بين الرجلين، فعلي وقاف عند حدود الله لا يستعمل الشبهات لتبرير أعماله، وهو ما لم يعره ابن عباس

أي اهتمام، كما يقرر النص، وأما الصورة الثانية فهي صورة تشبيهية حيث شبه إقدام ابن عباس على أخذ أموال اليتامى والأرامل بالذئب السريع حين انقضاضه على معزى جريحة وهي صورة مفعمة بالإحياءات والإشارات، فتشبيه ابن عباس بالذئب له أكثر من دلالة، كالمكر، والشراسة، وجمود القلب، وهي صفات لا رحمة فيها، وأما تشبيه أموال اليتامى والأرامل بالمعزى الجريحة، فهي صورة تستدر العبرة وتثير الشفقة، والكرهية والمقت في آن واحد، فهي تستدعي الدموع والشفقة لكون هذه الأموال قد رصدت لضعفاء الأمة، وأما أنها تستدعي الكراهية والمقت، لأن من استولى عليها ليس له من الإحساس - حسب النص - ما يردعه عن سلوك هذا السبيل، الذي لا يليق إلا بقاطع طريق، ولم يكن ابن عباس كذلك بل كان من أحبار هذه الأمة، وهذا ما زاد في فضاة الأمر عند الإمام علي وجعله يحس بالاغتراب، لأن القيم التي يؤمن بها ويحاول تجسيدها في واقع الحياة لم يعد يقيم لها كثير من الناس أدنى اعتبار أو أدنى اهتمام.

وعادة ما تتناسب عمليات التصوير بأجواء النفس والفكر، من حيث العلاقة المتلازمة بين الذات والموضوع تناسباً تتجلى فيه أصالة التجربة وواقعيتها وصدقها، فهي صدى للنفس في مختلف تجلياتها التي تتنوع تنوع ما يرد عليها من العالم الخارجي فتصبغها بصبغتها الوجدانية حالئذ، أو تلقى على الواقع الخارجي وتلونه بإحساساتها الداخلية إن في حالة السرور وإن في حالة الحزن والكآبة، فتغدو الصورة انعكاساً حقيقياً لعالم الذات إزاء ما استثاره أو يستثيره من وقائع الفكر المجرد أو الواقع الطبيعي، وكلما كانت التجربة ألصق بالذات الداخلية كان توهج الصورة وإبلاغيتها، وتأثيرها في المتلقي حين يلقي هذا التناسب والتجاوب والألفة بين المعاناة وتشكيل الصورة، يقول الإمام علي رضي الله عنه قبل موته بقليل "إن تثبت الوطأة في هذه المزمة فذاك، وإن تدحض القدم فإننا كنا في أفياء أغصان، ومهاب رياح، وتحت ظل غمام، اضمحل في الجو متلفقها، وعفا في الأرض مخطها، وإنما كنت جارا جاوركم بدني أياما، وستعقبون مني جثة خلاء، ساكنة بعد حراك، وصامتة بعد نطق، ليعظكم هدوي، وخفوت إطراقي، وسكون

أطرافي، فإنه أوعظ للمعتبرين من المنطق البليغ والقول المسموع، وداعي لكم وداع امرئ مرصد للتلاقي⁽¹⁾.

هو كلام من يوشك أن ينتقل من الدنيا إلى الآخرة، بعد طعنة ابن ملجم، فيصور حالته في موقع البرزخ هذا تصويرا يملأ النفس أسى وحزنا، متوسلا الاستعارة في تصوير ما أهمه، مشبها إمكان عاقبته من هذه الضربة إن حصلت بثبات القدم وهو ما يرجوه، وإن تكن الأخرى؛ الموت، فهي جديرة بأن تكون، فالحياة عبارة عن ظل سرعان ما تذهب الشمس، أو هي مهاب رياح مختلفة ومتعاقبة، قريبا ما تركز إلى الهدوء، أو هي — الحياة — غمام اجتمع ثم اضمحل في الأجواء، أو هي خطوط في الأرض عفت عليها الرياح فطمست وهي جديرة بذلك، لأن كل الإشارات تشير إليها. نلاحظ في هذا الجزء من الخطبة تناسب رؤيا الإمام للدنيا في واقعه المعيشي وفي تصويره لها، لقد كان زاهدا لا يلقى لها بالا، إلا ما كان يرجوه من إقامة الدين القويم، إذعانا لشريعة الله، فلما أبى الله له إلا الرحيل، كانت الحياة بالنسبة له غماما فرقته الحياة، ومعالم درستها الرياح، وتلك هي حقيقتها التي أراد أن يبينها للناس، بحيث يعوها وعيه، ويروها برؤاه، فما أفلح ولكنه لم يقصر ثم انتفى إلى وصف ذاته حين تفارقه الروح متوسلا في ذلك التشبيه والمجاز المرسل والوصف منبها إلى أنه كان جارا لهم (أي كالجار) لفترة جاورهم فيه بدنه، وهي إشارة إلى اغترابه عنهم، إذ لم يشاركوه أفكاره وآماله، وإنما شاركوه في الحيز الزماني والمكاني ليس غير، وبعد خروج الروح إلى بارئها سيبقى الجسد مسجى على الأرض ساكنا بعد حراك، وصامتا بعد نطق وكلام، وما أكثر ما نطق وقال، ليكون ذلك الهدوء واعظا لهم، وفي الكلام مجاز مرسل علاقته المسببة، إذ ذكر المسبب الهدوء، والخفوت والسكون، وأراد السبب الحقيقي في ذلك وهو الموت، وكفى بالموت واعظا. وهذا الموقف الحزين والمخيف في آن واحد أوعظ من كل المواعظ، إذ الإنسان غالبا ما ينسى الموت ويراه بعيدا ولكن ما ينسى، يأتي فيذكر، وما يكون في الذهن بعيدا، يطرق فيكون قريبا، وهو مثال حي لما يقول، لقد كان يصول ويجول ولكن هاهو ذا جثة هامدة، إنه الموت متجسدا في

(1) نهج البلاغة - تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد - مصدر سابق - ص: 173.
الوطأة: موضع القدم. تدحض: دحضت رجله: زلقت. المزلة: محل الزلل. أفياء: الفيء ما كان شمسا فينسخه الظل.
المتلفق: المنظم بعضه على بعض. عفا: انمحى و اندرس. مخطها: مكان ما خطت فيه الأرض.

جسد لا حركة فيه ليشير - لمن يريد الاعتبار - أن هذا هو غاية كل حي، وأن الحياة أقصر مما يتصور الإنسان، والموت يحدو الجميع إلى منهله، ولما كان الأمر كذلك وطبقا للمرجعية الإسلامية - فالسعيد - من اتعظ بغيره، لأن الموت ليس هو الغاية، بل الغاية ما بعد الموت، أجنة أم نار، أشقاء أم سعادة، ثم يودع أهله وداع منتظر للتلاقي، ومعنى التلاقي لا يخلو من أحد أمرين، إما أن يكون منتظرا للقاء محمد صلى الله عليه وسلم وحزبه، أو هو منتظر هناك لمن سيلتحق به من أهله وصحبه ومن كان على سمته، والصورة الكلية للخطبة توحى بالرهبة، وتشير بوعظية حزينة إلى ما ينتظره كل حي وهو الأفول، ومن ذا الذي لم يأفل، أليس الأحياء خلفاء الأموات؟!

الختامة

و بعد فليس للمرء مهما كان أن يدعي الكمال للعمل الذي قام به، و بخاصة إذا كان هذا العمل في مجال العلوم الإنسانية و في الدراسات الأدبية على الأخص، لاختلاف المناهج و الأدوات و الطرائق و الاتجاهات الفكرية، و الذوق الفردي و الثقافة المتشعب بها صاحبها و إذا كان ذلك كذلك، فإني أعلن منذ البداية أنني قد بذلت جهدا في إعداد هذا البحث، و لا أدعي فيه الكمال، و قد تبين لنا من خلال فصوله أن الاغتراب ملمح للحياة الإنسانية، و هو ليس نعمة كما أنه ليس مرضا دائما كما يفهمه كثير من الناس، فالاغتراب هو تنافر بين الفرد و بنيته الاجتماعية لأسباب موضوعية في غالب الأمر، و تبين لنا أيضا أن كثيرا من مظاهر الاختلاف و التضاد، و الرفض و القلق و التمرد و الانزواء و غيرها مما يعترى الإنسان تدخل تحت غطاء ما يعرف بالاغتراب.

و انطلاقا من كونه ملمحا إنسانيا؛ يمكن أن يظهر عند أي إنسان و في أي مكان و زمان، لمسنا مظاهره في نهج البلاغة بكل وضوح، و تجلت أبعاده عند صاحبه - الإمام علي- في المجال السياسي و الاجتماعي و الديني، مما حمله على مقاومته بمختلف الطرق و السبل إن في الحياة السياسية و إن في الحياة الاجتماعية و لم يأل جهدا في المجال الديني الوعظي، و لكن سطوة الأحداث أبانت لنا كيف سلبته حريته في مواقف عديدة، كما كان للتناقض القيمي في مجتمعه قوة الدفع؛ دفعه إلى مجال الاغتراب؛ إذ كان ما يؤمن به و يسعى من أجل تحقيقه بكل تقان مع مجتمع كان من المفروض أن يؤازره في كل خطوة خطاها في ذلك الإتجاه، إلا أن الذي حصل هو العكس، فالمجتمع الذي شاركه في الزمان و المكان و المرجعية الواحدة، لم يقف معه كما كان يريد، و الواضح أنه يحمل ما كان يحمل من هموم إصلاحية و خطط تنفيذية لمنهجه ذاك بحماسة، لم تكن بالحماسة نفسها عند مجتمعه، فهو إذ يقدر المبادئ المشتركة و الأفكار الجامعة وجد من يناوئه في تنفيذها و يحول دون تطبيقها بل وجدنا من يحاول القفز على تلك المبادئ و التغاضي عنها.

كما تبين من خلال البحث أن أهم أبعاد الاغتراب التي تجلت في نصوص نهج البلاغة كانت أعمق و أشد الأمور التصاقا بالإنسان المسؤول في مجاله الحيوي؛ الذي

بدونه لا يمكن أن يقيم عدلاً أو يحق حقاً أو يبطل باطلاً، تلك هي معضلة فقدان الحرية و السيطرة التي مني بها الإمام علي، فقد سلبت حريته من لدن أنصاره - كما رأينا- في مواطن كثيرة؛ منها حمله على قبول التحكيم، و منها حمله على الرضى بقبول أبي موسى الأشعري ممثلاً له، و منها انقسام جيشه و أنصاره بعد التحكيم، و منها مطالبة الخوارج له بالإقرار بالكفر و إعلان التوبة ثم ينظروا في أمره و يقروه أو يعزلوه، و منها رفض أنصاره بعد حربه الخوارج، الخروج إلى قتال أهل الشام حتى شنت عليهم الغارات من لدن أهل الشام، فاستصرخهم للدفاع عن أنفسهم و عن حرمة البلد فما ألقوا له بالاً، فكان هذا من أنكى الأسباب و أشدها على نفسه في مكابدة الاغتراب، و أما فقدان السيطرة فتجلت في عدم قدرته على ثني أصحاب الجمل عن سبيلهم و إرجاعهم إلى الجادة، فمروا حيث شأؤوا و حاول منع وقوع الحرب بينه و بينهم، و حل الأمر بالحوار فما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فكانت الطامة الكبرى، حيث وقعت المعركة و أريقت دماء المسلمين و هو كاره.

ثم حاول أن يكف أهل الشام عن شغبهم، و دعاهم إلى الدخول فيما دخل فيه الناس ثم ليحاكموا عنده قتلة عثمان رضي الله عنه، فيحملهم و إياهم على كتاب الله و سنة نبيه صلى الله عليه و سلم فأبوا عليه ذلك، و أرادوا أن يحملوه على ما أرادوا و إلا فليس له إلا السيف عندهم، و كان لهم ما أرادوا فوقع الحرب، و أريقت دماء آلاف المسلمين، من أجل نزوات أفراد، و كان إخفاقه هذا في عدم قدرته على بسط سلطته على كافة البلاد الإسلامية من افضع و أشنع الأحداث في تعميق اغترابه و تأصيله.

و قد حاول مع أنصاره منذ البدء أن يقيم دولة العدل و الحق بالحق فما استطاع إلى ذلك سبيلاً، حيث كان الناس يخونونه في أماناتهم و ولاياتهم كما أشرنا إلى بعض منهم، بل لقد نادى بعض ممن يعد من أنصاره إلى عدم التسوية في العطاء و محاباة بعض الناس على باقيهم لفضلهم -حسب اعتقادهم- فأبى عليهم ذلك و علم عندها بأن الإيمان بالقيم و الدفاع عنها باللسان شيء، و محاولة إقامتها في عالم الواقع شيء آخر، لأن المؤمن الحق في نظره -وفي المنهج الإسلامي- من يكون ظاهره كباطنه و من تتساوى أقواله مع أفعاله، فما وجد من يناصره على منهجه ذلك إلا عصابة قليلة من

أصحابه الأوفياء، فلما ماتوا أو قتلوا، و بقيت الدهماء نغصوا حياته وولوا الأدبار و أخلدوا إلى الأرض و رضوا من الآخرة بالحياة الدنيا بدلا، فكان لهذا الاختلال في القيم ما كان لفقدان السيطرة، و سلب الحرية من آثار موجلة في نفسيته حيث أورثته غما على غم و عمقت الاغتراب في أغوار فكره.

و إذا كان للتناقض القيمي دوره في تفريخ اغترابه، فإن لانهايار القيم و تشتتها عند كثير من الناس من أنصاره و خصومه قد عمل على استدامة محنته، و بخاصة في أواخر أيام حياته، حيث ادلهمت عليه الخطوب من كل جانب، و لاحقته الفجائع من كل صوب، و كان من حقه على الناس أن يقفوا معه وقفة رجل واحد، حفاظا على بيعتهم له، و لكن ذلك لم يحدث، لأن مقاييس الحق و العدالة اختلت عندهم و تلاشت عند البعض الآخر، و كان لهذا التلاشي و الانحطاط في القيم أثره السلبي في المجتمع، و كان لسلبية المجتمع تلك آثارها في شعوره بالوحدة و الاغتراب، فلم يعد يؤمن بثبات القيم الإسلامية و رسوخها إلا هو و قلة من أصحابه، لا تغني عنه كثيرا ولا قليلا.

إلا أنه مع ذلك بقي شامخا كالطود العظيم لا يريم مكانه ولا يبرحه، نعم تأثر كثيرا بسلوك الناس، حتى لقد تمنى لقاء الله، إلا أنه لم يتنازل عن مواقفه الأساسية قيد أنملة، و لم يهزمه الاغتراب و إن ألمه و آذاه و لم يعزله عن المجتمع إلا أنه أفقده الثقة فيهم، و تمنى الخلاص منهم.

ولما كانت ظاهرة الاغتراب ظاهرة نفسية شعورية فكرية شاملة فقد بدت في خطاباته المختلفة و توسل كثيرا من الأدوات الإبلاغية في بيان ما كان يلقيه من عنق و لدد من طرف خصومه أولا و من أنصاره آخرا.

وبين البحث أيضا أن الاغتراب يمكن أن يصيب أي إنسان؛ إذا توفرت له شروطه، وليس الاغتراب مخصوصا به المرضى؛ مرضى الشخصية كما يعتقد كثير من الناس، لأنه ملمح إنساني عام؛ ليس مختصا بزمان دون آخر، أو بمكان دون آخر؛ ولا بطبقة أو جنس دون آخر، وإنما هو حالة تظهر عند الأفراد عند توافر شروط معينة في أزمنة متأزمة و أمكنة متعفنة و نفوس قلقة.

وليس ما كتبته عن هذا الموضوع مما لا يرقى إليه النقصان، أو يتعالى على النقد، بل هو نظرة إنسان قرأ وحلّل وكتب؛ فيمكن أن تبني على هذا البحث أبحاث كثيرة أخرى، ويمكن أن يعتبر ما كتبته لبنة في كتابات الاغتراب عن شخصيات إسلامية أخرى طالتها هذه الظاهرة، ويمكن أن يعتبر هذا البحث نافذة صغيرة فتحتها في عالم الاغتراب عند الإمام علي يتوصل بها إلى دراسات أعمق و أدق في عالم الرجل، و يمكن قراءة الأدب و التاريخ قراءة جديدة.

قائمة

المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش

1. ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبي الفضل، عيسى الحلبي، ط1 1959.
2. ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم البناء، مطبعة الشعب، د.ط.
3. ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط2 1971.
4. ابن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، دار الفكر، بيروت، ط1 1987.
5. ابن الجوزي، صفة الصفوة، دار المعرفة، بيروت، د.ط. د.ت.
6. ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، النهضة المصرية، د.ط 1949.
7. ابن سعد، الطبقات الكبرى، طبع مصور عن كتاب طبع في مدينة ليدن، 1322هـ منشورات مؤسسة النصر طهران.
8. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، مطبوع على هامش كتاب الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني، دار صادر، بيروت، ط1 1328هـ.
9. ابن عبد ربه، العقد الفريد، شرحه وضبطه، أحمد أمين وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2 1982.
10. ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، مكتبة البابي الحلبي وأولاده، مصر، الطبعة الأخيرة 1969.
11. ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط 1972.
12. ابن كثير، البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1 2007.
13. أبو حيان التوحيدي، الإشارات الإلهية، تحقيق وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت د.ط 1973.

14. أبو العلاء المعري، سقط الزند، دار الطباعة، بيروت، د.ط 1980.
15. اللزوميات، دار بيروت للطباعة والنشر، د.ط د.ت.
16. أبو علي القالي، ذيل الأمالي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ط 1980.
17. أبو نعيم الإصبهاني، حلية الأولياء، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، ط3 1980.
18. أحمد بن حنبل (الإمام) فضائل الصحابة، دار ابن الجوزي، السعودية، ط2 1999.
19. أحمد جواد مغنية، الغربة في شعر محمود درويش، دار الفارابي، بيروت لبنان ط1 2004.
20. أرسطو، الخطابة، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، د.ط 2007.
21. امرؤ القيس، الديوان، دار الطباعة والنشر، بيروت، د.ط 1972.
22. إيريك فروم، الخوف من الحرية، ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد، المؤسسة العربية والنشر، د.ط 1972.
23. جابر عصفور، الصورة في التراث النقدي والبلاغي، دار المعارف، القاهرة، د.ط د.ت.
24. جودت فخر الدين، شكل القصيدة العربية حتى آخر القرن الثامن الهجري، دار الأدب، ط1 1984.
25. جورج زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مطبعة الهلال، ط1 1963.
26. الحافظ المنذري، مختصر صحيح مسلم، الشركة الجزائرية اللبنانية، باش جراح، الجزائر، ط1 2007.
27. حسن جاد حسن وآخرون، الأدب العربي بين الجاهلية والإسلام، المطبعة الفاروقية الحديث، مصر، ط1 1991.

28. حسن محمد حسن حماد، **الاغتراب عند إيريك فروم**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1 1995.
29. دومينيك مونقانو، **المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب**، ترجمة محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 2005.
30. الذهبي، **ميزان الاعتدال**، تحقيق محمد علي البجاوي، عيسى الحلبي، القاهرة، ط1 1963.
31. الرازي، **مختار الصحاح**، عني بترتيبه محمود خاطر، طبعة دار المعارف، د.ط 1983.
32. ريتشارد شاخ، **الاغتراب**، ترجمة كامل يوسف حسين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1 1980.
33. رينيه ويلك، أوستن وارين، **نظرية الأدب**، ترجمة محيي الدين صبحي، د.ط 1978.
34. الزبيدي (الإمام) **مختصر صحيح البخاري**، الشركة الجزائرية اللبنانية، باش جراح، ط1 2007.
35. سالم بيطار، **اغتراب الإنسان وحرية**، المؤسسة الحديثة للكتاب، طرابلس لبنان د.ط 2001.
36. سميرة سلامي، **الاغتراب في الشعر العباسي**، دار الينايع، دمشق، ط1 2000.
37. سيد قطب، **التصوير الفني في القرآن**، دار الشروق، بيروت، ط7 1982.
38. شوقي ضيف، **تاريخ الأدب العربي**، العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، ط5 1971.
39. شوقي ضيف، **الفن ومذاهبه في النثر العربي**، دار المعارف، مصر، ط6 1971.
40. عبد الحق منصف، **أبعاد التجربة الصوفية**، الحب، الإنصات، الحكاية، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د.ط 2007.

41. عبد الرحمن بدوي، دراسات في الفلسفات الوجودية، دار الثقافة، بيروت، ط3
1983.
42. عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، ط2
1982.
43. عبد اللطيف محمد خليفة، الاغتراب، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع،
القاهرة، د.ط 2006.
44. عبد الله البهلول، في بلاغة الخطاب الأدبي، مطبعة التسفير، صفاقص تونس، ط1
2007.
45. عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، دار الكتب الوطنية، بنغازي ليبيا،
ط1 2004.
46. عروة بن الورد، الديوان، دار صادر، بيروت، د.ط 1953.
47. علي بن أبي طالب (الإمام) نهج البلاغة، تحقيق وتوثيق صبري إبراهيم السيد،
مكتبة رحاب، بورسعيد، الجزائر، د.ط 1989.
48. علي بن أبي طالب (الإمام) نهج البلاغة، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم عيسى
الحلبي ط1 1963.
49. علي بن أبي طالب (الإمام) نهج البلاغة، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،
المكتبة التجارية، مصر، د.ط د.ت.
50. علي البطل، الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثامن الهجري، دار
الأندلس، ط1 ، د.ت.
51. علي خليل مصطفى، قراءة تربوية في فكر أبي الحسن الماوردي، من خلال
كتاب أدب الدنيا والدين، دار الوفاء، ط1 1990.
52. علي عبد العزيز الإبراهيم، الإمام علي في ملاحم نهج البلاغة، الدار الإسلامية،
لبنان، ط1 1996.

53. علي محمد محمد الصلابي، أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، القاهرة د.ط د.ت.
54. عنتر، الديوان، تحقيق عبد المؤمن عبد الرؤوف شلبي، المكتبة التجارية القاهرة، د.ط د.ت.
55. فتح الله خليف، الاغتراب في الإسلام، مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر 1979.
56. فيصل عباس، الاغتراب والوعي الشقي، دار المنهل اللبناني، ط 1 2008.
57. قيس النوري، الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً، مجلة عالم الفكر، المجلد العاشر، 1979.
58. مجاهد عبد المنعم مجاهد، الإنسان والاغتراب، سعد الدين للطباعة والنشر، د.ط 1985.
59. المتنبى، الديوان، شرح الشيخ ناصف اليازجي، دار بيروت للطباعة والنشر، د.ط 1980.
60. محمد بن عفيفي الخصري، إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، تحقيق محمد الإسكندراني دار الكتاب العربي، بيروت، د.ط 2005.
61. محمد أبو الفضل وآخرون، سجع الحمام في حكم الإمام، المكتبة العصرية صيد، بيروت، ط 1 2004.
62. محمد رضا، رابع الخلفاء الراشدين، دار الكتاب، القاهرة، د.ط د.ت.
63. محمد عباس يوسف، الاغتراب والإبداع الفني، دار غريب للطباعة والنشر، والتوزيع، د.ط 2005.
64. محمد عبده، شرح نهج البلاغة، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، د.ط 2005.
65. محمد عبد المطالب، البلاغة والأسلوبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة د.ط 1984.
66. محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشرق، د.ط 2002.

67. محمد محيي الدين عبد الحميد، **دروس التصريف**، المكتبة العصرية، بيروت د.ط، 2003.
68. مجمع اللغة العربية بالقاهرة، **المعجم الوسيط**، دار عمران، القاهرة، ط3 1983.
69. مرتضى المطهري، **في رحاب نهج البلاغة**، ترجمة الهادي اليوسفي، دار الينابيع الإسلامية، بيروت لبنان، ط1 1980.
70. المسعودي، **مروج الذهب**، دار الأندلس، بيروت لبنان، ط5 1983.
71. مصطفى الغلابيني، **جامع الدروس العربية**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 2002.
72. نبيل اسكندر، **الاغتراب وأزمة الإنسان المعاصر**، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية مصر، د.ط 1988.
73. نبيل راغب، **موسوعة الفكر الأدبي**، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط 2002.
74. النسائي (الإمام) **خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب**، دار ابن حزم، ط1 2004.
75. النووي (الإمام) **الأذكار النبوية**، دار صبح، بيروت لبنان، ط1 2006.
76. رياض الصالحين، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط4 1984.
77. الهادي كاشف الخطباء، **مدارك نهج البلاغة ودفع الشبهات عنه**، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط3 1983.
78. هنريش بليث، **البلاغة والأسلوبية**، ترجمة محمد العمري، افريقيا الشرق الدار البيضاء، د.ط 1999.
79. ويل ديورانت، **قصة الفلسفة**، ترجمة عبد الله المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت لبنان، ط4 1975.

الفهرس

الفهرس

مقدمة.....	أ - ك
الفصل الأول: الإمام علي ، ونهج البلاغة.....	12-58
المبحث الأول: مولد الإمام علي و سيرته	13
المبحث الثاني: الإمام علي و نهج البلاغة	46
الفصل الثاني: مفهوم الاغتراب.....	59-107
المبحث الأول: مفهوم الاغتراب عند الغربيين	60
المبحث الثاني: مفهوم الاغتراب عند العرب قبل الإسلام	90
المبحث الثالث: مفهوم الاغتراب عند المسلمين	101
الفصل الثالث: الاغتراب عند الإمام	108-173
تمهيد	109
المبحث الأول: تجليات الاغتراب عند الإمام علي	114
المبحث الثاني: أبعاد الاغتراب عند الإمام علي	142
الفصل الرابع: الدراسة الفنية.....	174-255
المبحث الأول: استراتيجيات الخطاب في نصوص الاغتراب	175
I. أ. الإقناع بالحجاج.....	176
ب. الإطار	194
ج. الأفعال في الماضي والمضارع والأمر	199
د. النهي	216
المبحث الثاني: الألفة بين اللغة والفكر	222
السلب والإيجاب	223
المبحث الثالث: التصوير الفني في نصوص الاغتراب.....	238
أ. التصوير الوصفي و المجازي	238
ب.التصوير التشبيهي والمجازي	245
الخاتمة	256
المصادر والمراجع	261
الفهرس	268